

د. عبد الرؤوف سُنّو

النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية

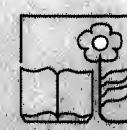
١٨٨١ - ١٨٧٧

بلاد الشام - الحجاز - كردستان - ألبانيا

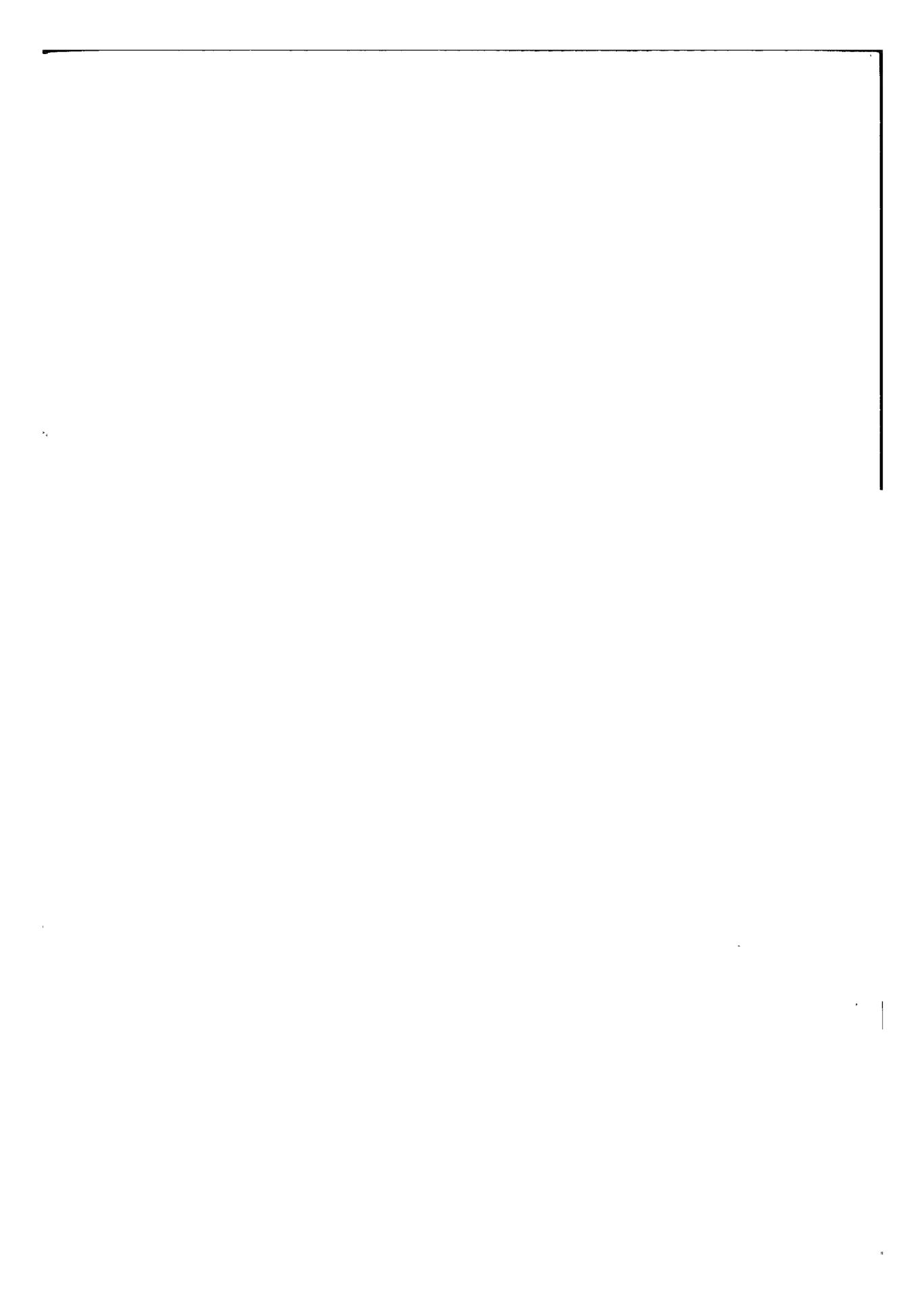


الكتاب

٦٠١٧٤٧٩



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



١٨٦٥

١٨٦٥

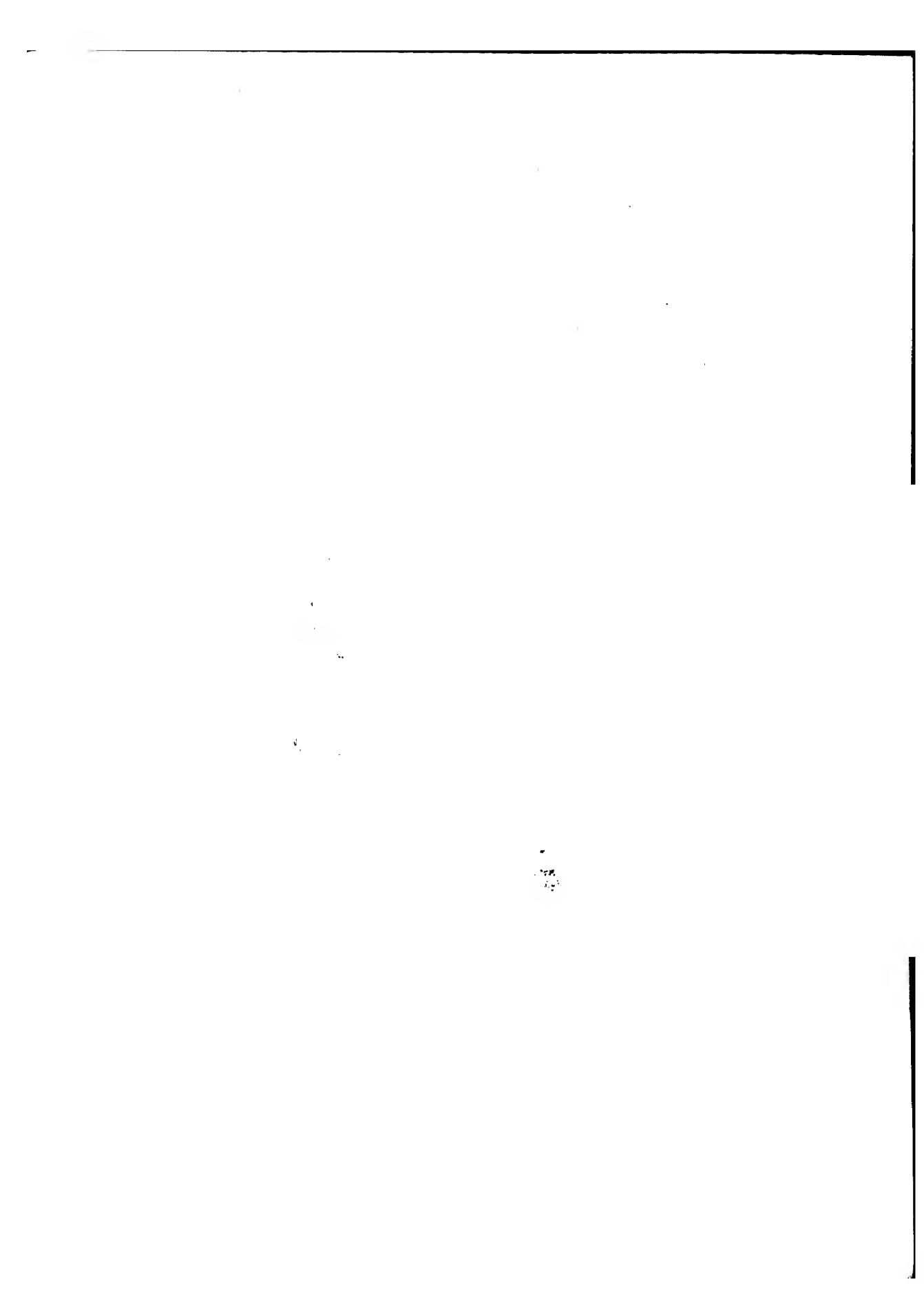
١٨٦٥

١٨٦٥

الزرعات الكيانية الإسلامية
في الدولة العثمانية

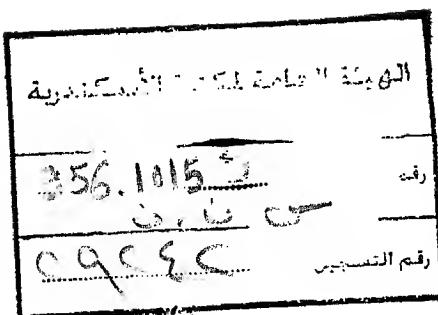
١٨٧٧ - ١٨٨١

بلاد الشام - الحجاز - كردستان - ألبانيا



٩٥٦.١٥١٥
سنوات
٥

د. عبد الرؤوف سنو

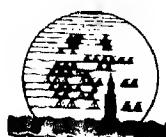


١ - لغة عربية شعر إسلامي - الفصل ، طازم الرازي

النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية

١٨٧٧ - ١٨٨١

بلاد الشام - الحجاز - كردستان - ألبانيا



GOAL - Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Biblioteca Alessandrina



• التزعمات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية: ١٨٧٧ - ١٨٨١

(بلاد الشام، الحجاز، كردستان، ألبانيا)

• تأليف: د. عبد الرؤوف ستو

• الطبعة الأولى: ١٩٩٨ م.

• جميع الحقوق محفوظة للناشر

• الناشر: يسان للنشر والتوزيع

□ ص. ب. / ٥٢٦١ - ١٣ - بيروت - لبنان

□ هاتف/ ٩٦١ - ٧٤٧٠٨٩ * فاكس: ٣٥١٢٩١

المحتويات

٧	قائمة الملاحق
١١	قائمة المختصرات
١٣	مقدمة
٢١	مدخل : السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية حتى حرب عامي ١٨٧٧-١٨٧٨
٣١	الفصل الأول : مسلمو بلاد الشام والدولة العثمانية: إشكالية العلاقة بين الهوية الدينية والهوية الوطنية
٣١	أولاً: مسلمو بلاد الشام بين «الرابطة العثمانية» و«الوطن السوري» (١٨٣٩-١٨٧٧)
٤٠	ثانياً: حركة الأعيان المسلمين (١٨٧٧-١٨٧٨): مشروع استقلالي أم تحرك احترازي؟
٤٨	ثالثاً: مشروع الأعيان المسلمين ويوسف كرم وعلاقة الأمير عبدالقادر الجزائري بهما
٦٧	الفصل الثاني : تزاحم المشاريع لفصل «سوريا» عن الدولة العثمانية وردود الفعل الإسلامية
٦٧	أولاً: «سوريا» في الاستراتيجية البريطانية المتوسطية الجديدة والمواقف الإسلامية منها
٧٢	ثانياً: تقاطع مشروع «الخديوية السورية» (مدحٍت باشا) و«الوطن السوري» (جمعية بيروت السورية) وردود الفعل الإسلامية
٨٧	الفصل الثالث : بريطانيا ومشروع فصل العرب عن الدولة العثمانية: خلافة عربية في الحجاز
٨٧	أولاً: أشراف مكة : المكانة الدينية - الاجتماعية - السياسية
٨٩	ثانياً: أشراف مكة والدولة العثمانية

ثالثاً: بريطانيا ومشروع «إعادة تعریب الخلافة الإسلامية» تحت نفوذها (النظرية)	٩٢
رابعاً: العرّاب : القنصل زوهراپ وأمراء مكّة والخلافة العربية في الحجاز (محاولة التطبيق)	٩٥
الفصل الرابع : كردستان والدولة العثمانية : الثورة والولاء	١١٣
أولاً: تطور الأوضاع السياسية والاجتماعية - الاقتصادية في كردستان حتى الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧ - ١٨٧٨)	١١٣
ثانياً: الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧ - ١٨٧٨) وأثارها على كردستان العثمانية	١١٦
ثالثاً: صعود الزعamas الدينية إلى السلطة : الشيخ عبید الله (النهرى) ومشروع «كيان أرمني» في شرق الأناضول (الانتفاضة الأولى عام ١٨٧٩)	١١٨
رابعاً: الشيخ عبید الله : الخطاب «القومي - القبلي» في مشروع كردستان موحدة ومستقلة (انتفاضة الأكراد الكبرى عام ١٨٨٠)	١٢٣
الفصل الخامس : الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧ - ١٨٧٨) وأثرها في انبات القومية الألبانية	١٣٧
أولاً: ألبانيا تحت السيطرة العثمانية	١٣٧
ثانياً: التحولات الاجتماعية - الاقتصادية في ألبانيا وإرهادات الوعي القومي	١٤٠
ثالثاً: الحركة الثقافية: المسلمين والقومية الألبانية	١٤٠
رابعاً: معاهدتنا سان ستيفانو وبرلين (١٨٧٨) وتأثيرهما في ظهور الحركة القومية الألبانية	١٤٣
خامساً: الصدام بين «ال القومية الألبانية» وبين العثمانيين والتحالف البلقاني - الدولي	١٥٠
إستنتاج	١٥٥
الملاحق	١٨١
المصادر والمراجع	٢٢٧
فهرست الأعلام	٢٤١

قائمة الملاحق

ملحق رقم (١): تقلب النفوذ الروسي في الشرق. نقلًا عن: Paul Haury, *Expose simple et clair de la question d'Orient*, 1770-1915, 2.em. ed. Paris 1923.

ملحق رقم (٢): قاضي الناصرة يصف اعلان السلطان عبد المجيد حول حرية المعتقد في السلطنة العثمانية بأنه «كلام تخريف». المرجع BPP/69, *Finn to Malmesbury*, no. 29. *Jerusalem* 22.6.1858, *inclosure*. no. 2, *Vice-Consul Rogers to Finn, Caiffa* 18.6.1858.

ملحق رقم (٣): تقرير لسكين، قنصل بريطانيا في حلب، حول رغبة المسلمين في شمال سوريا في التخلص من الحكم العثماني وإنشاء دولة عربية مستقلة برئاسة أشراف مكة. المرجع BPP/69, *Skene to Finn* 2.8.1858, *inclosure in no. 43*, *Malmesbury*, no. 43, *Aleppo* 7.8.1858, *inclosure in no. 43*, *Skene to Finn, Aleppo* 31.7.1858.

ملحق رقم (٤): رسالة من ايلدريدج إلى ساليزبوري حول رغبة السوريين، مسلمين وموسيحيين، في أن تفرض بريطانيا حمايتها على بلادهم / F.O. 78/2848, *Eldridge to Salisbury, political* no. 57, *Alieh* 18.7.1878.

ملحق رقم (٥): رسالة من القنصل زوهراب إلى ساليزبوري بشأن استعداد الشريف حسين لخدمة بريطانيا ومصالحها في المسألة الأفغانية وأية مسائل أخرى، وإيمان الشريف بعدلة الحكم البريطاني للمسلمين. المرجع F.O. 78/2988, *Zohrab to Salisbury, secret/conf./*: *separate. Jeddah* 12.3.1879.

ملحق رقم (٦): زوهراب يبلغ ساليزبوري عن جمعية سرية في مكة غير راضية عن

نتائج الحرب الروسية - العثمانية تقوم باتصالات مع القيادات في العالم الإسلامي لازحة العثمانيين، عن الخلافة الإسلامية. كما أبلغه عن مشروع دولة عربية يجري اعداده، وأنه يتوقع عما قريب حدوث اضطرابات في الحجاز. المرجع: F.O. 78/2988, *Zohrab to Salisbury, conf./political, no. 1, Jeddah* 6.8.1879.

ملحق رقم (٧): رسالة من الشريف حسين إلى زوهرب حول استعداده لخدمة المصالح البريطانية في أفغانستان، وأنه سيفعل ذلك ما في وسعه سراً F.O. 78/2988, *Letter from Grand Sherif to* وعلناً، المرجع F.O. 78/2988, *Letter from Grand Sherif to* 23.12.1879، الموافق في ٣ محرم ١٢٩٧ هـ.

ملحق رقم (٨): زوهرب يبلغ ساليزبورى عن أن الشريف حسين يريد أن يتفاوض معه شفهياً من خلال وسيط موثوق، وأن مشاعر العداء ضد السلطان العثماني تفاقمت في الحجاز وأن مراجع دينية تطلب من بريطانيا وضع يدها على الأوقاف الإسلامية في الدولة العثمانية، وأخيراً، أن عرباً حجازيين يسعون للحصول على الجنسية البريطانية F.O. 78/2988 *Zohrab to Salisbury, secret/conf./separate, Jeddah* 22.12.1879.

ملحق رقم (٩): الشريف حسين يبلغ ساليزبورى عبر زوهرب أن الانقلاب ضد السلطنة يستوجب الحصول على دعم بريطانيا وحمايتها، وأن سكان الحجاز يشاركونه موقفه هذا. زوهرب يرى أن فرض بلاده حمايتها على الحجاز سيجعلها تحصل على نفوذ ثابت على كل المسلمين في العالم. F.O. 78/3131, *Zohrab to Salisbury, secret, Cairo* 9.1.1880.

ملحق رقم (١٠): زوهرب يقترح على صديقه ألستون أن تفرض بريطانيا حمايتها على الحجاز اذا ما أرادت محاربة السلطان العثماني، المرجع F.O. 78/3131, *Zohrab to Alston, Private/secret, Cairo* 12.1.1880.

ملحق رقم (١١): زوهرب يطلب من قائد الأسطول البريطاني في المحيط الهندي إرسال إحدى قطعه الحربية إلى ساحل الحجاز تحسباً لوقوع أحداث خطيرة وذلك نفلاً عن أعلى المراجع في مكة، المرجع F.O. 78/

2988, Zohrab to Burners, most secret/ conf., Jeddah
6.12.1879.

ملحق رقم (١٢) : رسالة من لايارد إلى غرانفيل حول سياسة الجامعة الإسلامية للسلطان عبد الحميد الهدافه إلى إثارة مسلمي الهند ضد بريطانيا، وأن الدعاية العثمانية خلال موسم الحج تُروج بأن بريطانيا هي عدو الإسلام وأنها تسعى للقضاء على الخلافة العثمانية، المرجع, F.O. 881/4341
Layard to Granville, no. 10, Therapia 25.5.1880.

ملحق رقم (١٣) : لايارد يبلغ ساليزبوري بردود الفعل الإسلامية المستاءة من اغتيال الشريف حسين، وكذلك عن محاولاته ثني السلطان عن تعيين بديل له هو الشريف عبد المطلب، ووغرد السلطان بأن الشريف الأكبر التالي بعد عبد المطلب سيكون عون الرفيق، المرجع, F.O. 424/97,
Layard to Salisbury, no. 112, Constantinople 25.3.1880.

ملحق رقم (١٤) : مخاطر اغتيال الشريف حسين على المصالح البريطانية في الهند. إن السلطان العثماني كان على علم بالمخططات البريطانية بشأن الاستيلاء على الحجاز والأماكن المقدسة. الشريف الجديد عبد المطلب من المعارضين الشديدين لبريطانيا، وعون الرفيق (المرشح المقبول) يبلغها عن استعداده للمحافظة على أقصى علاقات الود معها إذا ما أصبح أميراً على مكة، المرجع F.O. 424/97, *Layard to Salisbury, secret, no. 113, Constantinople 26.3.1880.*

ملحق رقم (١٥) : لايارد يخبر ساليزبوري أن اتصالات الشريف حسين المشبوهة بالحكومة البريطانية كانت وراء اغتياله، ويحدد الاعتبارات التي جعلت السلطان العثماني يعين عبد المطلب أميراً على مكة، المرجع F.O. 424/97, *Layard to Salisbury, inclosure no. 113, Constantinople 26.3.1880.*

ملحق رقم (١٦) : كردستان، المرجع: عبد العزيز نوار، تاريخ العراق الحديث.

ملحق رقم (١٧) : كردستان والحدود الدولية عام ١٩٠٠ .

المرجع : David McDowall, The Kurds, London 1992, p28.

ملحق رقم (١٨) : الأراضي الألبانية قبل معاهدة برلين ويعدها.

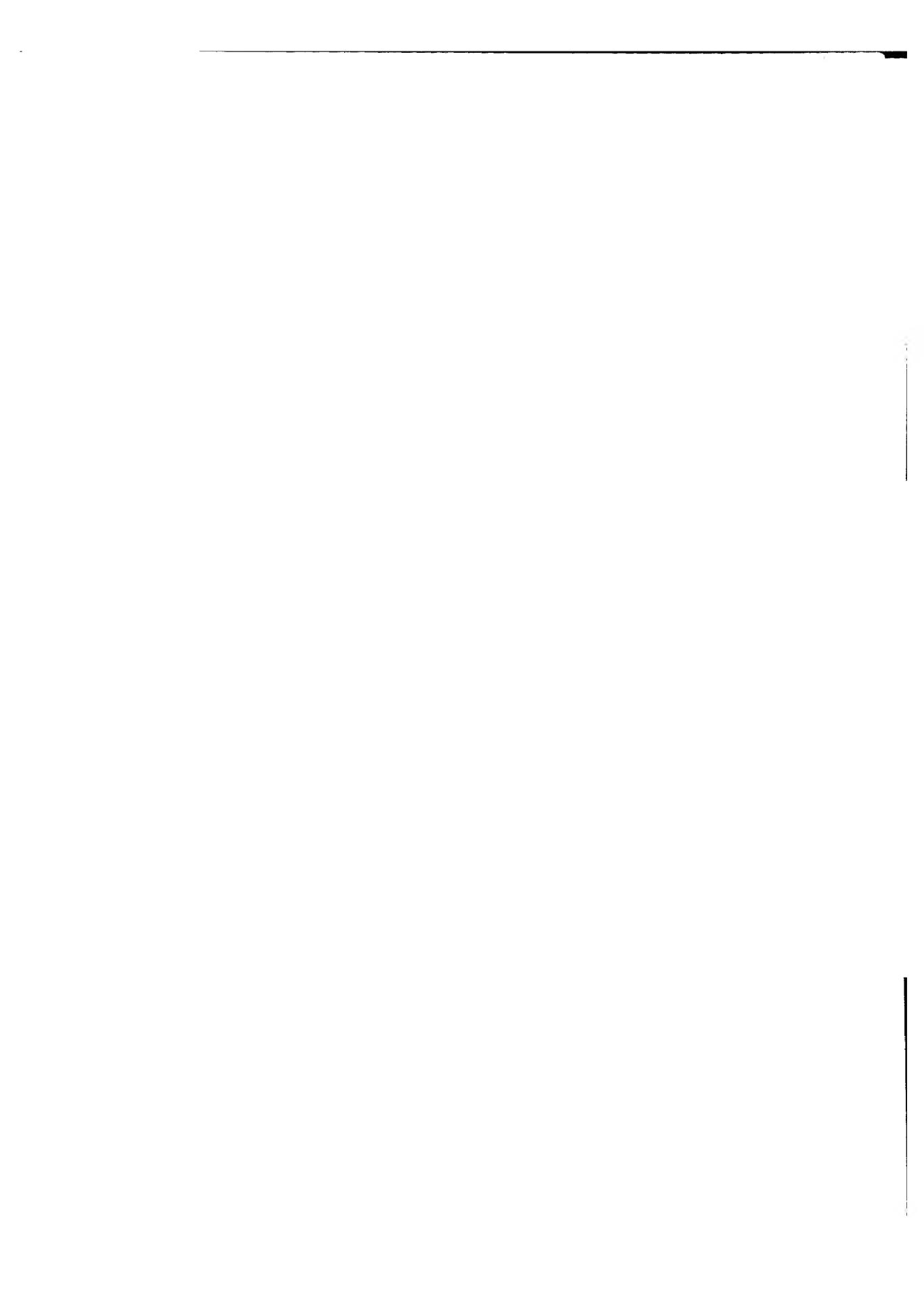
المرجع : R.W. Seton-Watson, The Rise of Nationality in the Balkans, London 1917, p 128.

ملحق رقم (١٩) : مناطق استيطان المسلمين في ألبانيا حوالي عام ١٩٠٠ .

المرجع : Peter Bartl, Die albanischen Muslime zur Zeit der nationalen Unabhängigkeitsbewegung (1878-1912), Wiesbaden 1968, p 87.

قائمة المختصرات

- BPP : British Parliamentary Papers
EI : Encyclopaedia of Islam, 1st. ed.
EI 2 : Encyclopaedia of Islam , 2nd. ed.
F.O. : Public Record Office (London), Foreign Office
IJMES : International Journal of Middle East Studies
MES : Middle Eastern Studies
PAAA : Politisches Archiv des Auswärtigen Amtes - Bonn
RDM : Revue des deux Mondes



مقدمة

يعالج هذا الكتاب مسألة «النزاعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية» انطلاقاً من الحرب الروسية - العثمانية عامي ١٨٧٧-١٨٧٨ التي وضعت مصير السلطنة على المحك لأول مرة في تاريخها. ففي حروب السلطنة وأزماتها السابقة، بدءاً بالحملة الفرنسية على مصر (١٨٠١-١٧٩٨) والثورة اليونانية (١٨٢١-١٨٢٩) والاحتلال المصري لبلاد الشام (١٨٣١-١٨٤٠)، مروراً بحرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)، لعب ارتباط «المسألة الشرقية»^(١) بالتوازن الأوروبي دوراً مهماً في ضمان سلامة الدولة العثمانية ومتلكاتها، والذي جرى التعبير عنه للمرة الأولى في شكل حقوقى صريح في معاهدة باريس وملحقها (١٨٥٦)^(٢). لكن الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة (١٨٧٧-١٨٧٨)، أثبتت بجلاء هشاشة تلك الضمادات، لا سيما بعد خروج فرنسا من الساحة الدولية كقوة مؤثرة نتيجة هزيمتها على يد بروسيا عام ١٨٧٠/١٨٧١، وتحول بريطانيا عن سياسة المحافظة على الدولة العثمانية مع وصول الليبراليين إلى الحكم عام ١٨٨٠. وفي تلك الحرب وقفت الدولة العثمانية وحيدة أمام المشروع السلافي الروسي لإقامة دولة بلغاريا الكبرى^(٣) وتهددت سلامتها بوصول الجيوش الروسية إلى مقربة من العاصمة إسطنبول. وقد تراقت هذه الكارثة العسكرية مع أزمة السلطنة المالية (الإفلاس والتوقف عن دفع الديون) وأزمتها السياسية (عزل سلطانين وارتفاع ثالث العرش في فترة لم تتجاوز الثلاثة شهور^(٤)).

وقد انعكست هزائم السلطنة العسكرية وانهيار ماليتها وتضعضع استقرارها السياسي، فضلاً عما سببته الهجرات الإسلامية إليها من البلقان والقوقاز، اضطرابات في الأطراف. فثار عثمان باشا وحسين باشا إينا الزعيم الكردي بدر خان في كردستان، وقطع البدو الطريق النهري بين بغداد والبصرة، وثار المسيحيون في جبل الزيتون، وامتنعت كربلاء والنرجف عن دفع الضرائب أو تقديم المجندين وأأسست إدارة محلية خاصة^(٥).

إضافة إلى ذلك ، ساد مسلمي السلطنة قلق عميق حول مصير دولتهم : هل

ستسقط إسطنبول حاضرة «الخلافة العثمانية» بيد روسيا وتعود مسيحية، وهل ستنتغل الدول الكبرى انهيار السلطنة عسكرياً ومالياً لتحول المسألة الشرقية نهائياً وتنتهي إلى السيطرة على ممتلكاتها؟^(٦)). وقد ترافق ذلك مع ظهور اتجاهات لدى «قوميات» السلطنة الإسلامية تسعى لاتخاذ خطوات احترازية لتقرير المصير في حال انهيار الدولة العثمانية وتطلع الدول الاستعمارية للاستحوذ على ممتلكاتها، أو لاستغلال المناسبة لتنفيذ مشروع استقلال ذاتي أو انفصالي عن السلطة.

وقد سببت تحركات «القوميات الإسلامية» صدمة للسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩)، إذ كان يعني نجاحها أن تقتصر دولته على العنصر التركي في الأنضوص. ولهذا السبب، دفعت هذه التحركات السلطان المذكور إلى سرعة العمل للقضاء عليها باستخدام «الجامعة الإسلامية» عامل كبح لتطبعات المسلمين الانفصالية من جهة، وعامل دمج لهم تحت مظلة الخلافة من جهة أخرى^(٧).

وكانت السلطنة قد عرفت في السابق أثناء فترة ضعف سلطتها المركزية اتجاهات انفصالية أو داعية للاستقلال الذاتي أو التام من منطلقات إسلامية، كحركة الموحدين (الوهابية) في الجزيرة العربية، وطرد إمام اليمن العثمانيين من مناطق بلاده الداخلية (١٦٣٥-١٨٧٢)، أو من منطلقات شخصية كحركة محمد علي لتوحيد مصر وبلاد الشام تحت زعامته، أو قيام أسر محلية حاكمة في بلاد ما بين النهرين وشمال إفريقيا ارتبطت بعلاقات واهية مع الآستانة. لكن ما حصل خلال الحرب الروسية- العثمانية الأخيرة من اتجاهات استقلالية لـ« القوميات » السلطنة الإسلامية، وفي أعقابها مباشرة - حتى عام ١٨٨١ ، وشمل بلاد الشام والحججاز وكردستان و«ألانيا»، تزامن مع مطلع حكم السلطان عبد الحميد تقريباً نتيجة للاعتقاد الذي ساد بقرب زوال السلطنة.

يعالج الكتاب نقطة أساسية وهي موقف «القوميات الإسلامية» في السلطنة العثمانية من الدولة في لحظات ضعفها أو احتلالات انهيارها ويعنى بدراسة جزئيات علاقاتها مع السلطنة وخلفيات ذلك راصداً إشكالية الولاء للسلطنة في ضوء التهديد والتدخل الخارجيين ونمو المشاعر الوطنية لدى المسلمين. وقد استبعدت مصر عمداً من هذه الدراسة بسبب وضعها الخاص داخل السلطنة (استقلال ذاتي)^(٨)، فيما جرى التركيز على الولايات التي كانت تُحكم مباشرة من قبل الدولة، وهي بلاد الشام والحججاز وكردستان و«ألانيا».

يدرس الكتاب موقف «القوميات الإسلامية» أثناء الحرب الروسية - العثمانية وفي أعقابها (١٨٧٧-١٨٨١) من خلال أربعة مداخل وعدد من التساؤلات:

- ١- ماهية العلاقات الروسية - العثمانية عبر القرون وأهداف الاستراتيجية الروسية تجاه الدولة العثمانية التي اتجهت أساساً للقضاء على السلطنة والاستيلاء على عاصمتها وممراتها. لماذا اعتبرت الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة وما نتج عنها نقطة حاسمة في مصير الدولة العثمانية؟ ولماذا دقت الحرب المذكورة ناقوس الخطر بالنسبة لمسلمي السلطنة؟ كيف تكون معاهدة برلين (١٨٧٨) عامل طمأنة وتهديه لمسلمي بلاد الشام على مصير بلدتهم، فيما كانت على عكس ذلك عاملاً مجرماً لتحركات الأكراد و«الألبانين»؟
- ٢- أدت الحرب الروسية - العثمانية المذكورة ونتائجها إلى طرح إشكالية الهوية الدينية والهوية الوطنية في السلطنة العثمانية. إذا كانت هناك بالفعل اتجاهات «وطنية»، فماذا بقي من الهوية الدينية (الرابطة العثمانية)؟ أين موقع المسلمين بين الهويتين المذكورتين؟ هل وفر التطور الفكري - الثقافي - الاجتماعي الظروف الموضوعية لقيام فكر سياسي إسلامي لمصلحة «وطن» إسلامي؟
- هل يمكن تعميم إشكالية الهوية الوطنية والهوية الدينية على تحركات مسلمي بلاد الشام على «القوميات» الإسلامية الأخرى في السلطنة؟ هل يمكن الحديث عن وعي «وطني» أو «قومي» أثناء تحركات العرب الحجازيين لإنشاء «خلافة عربية»، والأكراد لإقامة كيان مستقل؟ لماذا يمكننا أن نطلق على تحركات الألبانين أثناء الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة مصطلح «إنبعاث القومية الألبانية» ولا نستطيع ذلك بالنسبة لأية منطقة أخرى شهدت تحركات «للقوميات» الإسلامية؟
- ٣- لا يمكن أن نفهم ما حصل لـ «القوميات» الإسلامية خلال الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة دون العودة إلى عصر «التنظيمات». لقد أدت هذه الإصلاحات (١٨٣٩ - ١٨٧٦) بما تضمنته من مساواة بين أهل الذمة والمسلمين وعلمنة المجتمع والدولة إلى مزيد من الانشقاق الاجتماعي - الطوائفي في الدولة العثمانية. هل يمكن أن نعزّز تحركات المسلمين خلال الحرب المذكورة إلى تلك «التنظيمات»؟ ولماذا دفعت «التنظيمات» مسلمي بلاد الشام في اتجاه التأكيد على

«الرابطة العثمانية»، فيما جعلت مسلمي «ألبانيا» يسرون في اتجاه قومي؟ ألا يمكن اعتبار «التنظيمات» مسؤولة بكثير أو قليل عن مساعي أشراف مكة والزعamas الكردية للاستقلال، بعدما قضت على نفوذ الأولين باتباعها حكماً مركزياً في الحجاز بعد خروج المصريين منه عام ١٨٤٠، وبعدما أدت سياسة الدولة المركزية تلك إلى القضاء على «الاستقلال الذاتي» للإمارات الكردية عام ١٨٤٧؟

٤- أدت الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة إلى تزاحم المشاريع لفصل مسلمي السلطنة العثمانية عن «دولة الخلافة». هل كان جميع هذه المشاريع «محلي الصنع»؟ ألا نجد فيها أثراً لأصابع الأجانب وخصوصاً الإنكليز منهم؟ ماذا كانت مخططات هؤلاء في بلاد الشام أثناء الحرب المذكورة وفي أعقابها، ولماذا وجهت إليهم أصابع الاتهام في كل مرة بأنهم يُحيكون مشاريع انفصالية في المنطقة؟ لماذا يحارب الإنكليز خلافة إسلامية في إسطنبول ويشجعون خلافة أخرى عربية في الحجاز؟ لماذا، وكيف ثقت مصالح الإنكليز والعرب الحجازيين على إقامة دولة عربية مستقلة في الأماكن المقدسة؟

هذه المداخل و التساؤلات تقودنا إلى طرح الفرضيات التالية :

إن تحرك الأطراف الإسلامية في السلطنة العثمانية خلال الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٨-١٨٧٧) وفي أعقابها مباشرة إنما جاء نتيجة ضعف المركز واتسم بطابعه الاحترازي بسبب الاعتقاد باحتمال سقوط المنطقة تحت الاحتلال الأجنبي ، كما حدث في بلاد الشام ، وبطابعه الانفصالي نتيجة لدسائس بريطانيا، كما سنرى في حالة الحجاز. ونحن نفترض أيضاً، أن اتجاهات الاستقلال الذاتي في كردستان كان سببها تردي أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية وقضاء الدولة العثمانية على «الاستقلال» الداخلي لإماراتها من جهة، وتهديد قيام كيان أرمني مستقل لمصالح الأكراد الحيوية في شرق الأناضول من جهة أخرى. وأخيراً، إن تحرك «الألبانيين» بعد معاهدتي سان ستيفانو وبرلين (١٨٧٨) يتسم بطابعه القومي للتثبت بوحدة التراب الألبياني ، بعدما نزعت المعاهدتان المذكورتان عن «ألبانيا» أجزاء منها لمصلحة إعادة تشكيل الكيانات المسيحية في البلقان ، وإن إرهادات هذا الوعي القومي إنما تعود إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

ماذا عن المادة العلمية المستخدمة في هذا البحث؟

يرتكز الكتاب في الدرجة الأولى على وثائق الأرشيف البريطاني (Public Record) غير المنشورة. كما يستند جزئياً إلى أوراق مجلس العموم البريطاني (British Office) والوثائق الألمانية، والفرنسية التي قام بنشرها الدكتور عادل إسماعيل.

تحتوي الوثائق البريطانية على تقارير كتبها دبلوماسيون وقناصل بريطانيون عملوا في الدولة العثمانية وولاياتها عن الأحداث والتطورات التي عاصروها وراقبوها أو تدخلوا بها بطريقة ما وعملوا على صياغتها. وتشكل هذه الوثائق قيمة تاريخية كبيرة لاحتواها على معلومات مجهولة وأسرار عن أحداث مهمة. ولا تتوقف هذه الوثائق عند حد النظرة السياسية البحثة للأمور، فالملمثلون البريطانيون في السلطنة العثمانية، كان عليهم أن يراقبوا بعمق أوضاع ولاياتها وبناتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وينقلوها إلى حكوماتهم. وتحتل أوضاع الطوائف الدينية في الدولة العثمانية حيزاً كبيراً في هذه التقارير، لأن الدبلوماسية البريطانية إسوة بميشلاتها الأوروبية كانت تعاطى مع السلطنة على أنها فسيفساء طوائفية. ومن الطبيعي أن توظف تلك المراقبة «الرسمية» لمجتمعات الدولة العثمانية وطائفتها في عملية صياغة سياسة الدولة واستراتيجيتها. ولهذا، فعلى الرغم من عموميتها وافتقارها إلى الدقة في بعض الأحيان، تكتب هذه الوثائق أهمية كبرى في كشفها عن السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية في أصعب مراحل «المأساة الشرفية» والتحرك дипломاسي الذي كان يخدم هذه السياسة العليا.

وتعتبر المصادر العربية والأجنبية المنشورة والتي تتضمن سيراً ومذكرات، مصدراً مهماً يضاف إلى الوثائق الدبلوماسية. فكتاب عادل الصلاح «سطور من الرسالة» على سبيل المثال، يسجل شهادة شفوية مهمة لوالده منح ويعتبر مصدراً أساسياً لحقيقة مهمة من تاريخ بلاد الشام. فهو يلقي الضوء على الاتجاهات الفكرية - السياسية التي تنازعـت السوريين أثناء الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة وفي أعقابها مباشرة. كما تشكل مذكرات وسير المستشرقين والرحلة الأجنبية مصدرأً مهماً إلى جانب المصادر العربية. وتكمـن أهمية كل من الشاعر بلانت (Blunt) والمستشرق سنوك - هورغرونجه (Snouck - Hurgronje)، اللذين درسا المجتمع العربي - الإسلامي عن قرب، ليس في أنهما كانوا متمكنين من اللغة العربية وعلى معرفة واسعة بالعادات والتقاليد العربية - الإسلامية فحسب، بل بسبب اطلاعهما الدقيق على سياسة بلديهما الاستعمارية، بريطانيا وهولندا. كما لم يكن بإمكان زاكس (Sax) دون مراقبته اليومية لأحداث النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من أن يسجل هذه المتابعة الدقيقة للدبلوماسية الأوروبية

وخفاءً ما تجاه الدولة العثمانية.

أما الصحف والدوريات، فأراؤها وتعليقاتها تعكس وجهات النظر المحلية والاتجاهات الفكرية - الثقافية والسياسية وعلاقة القوى المحلية بمركز القرار السياسي وموقفها منه. فـ «ثمرات الفنون»، على سبيل المثال، تعتبر مصدراً مهماً، وقد عكست الاتجاهات الإسلامية المؤيدة للعثمانيين تارة، والمعاطفة مع الحركة العربية الناشئة تارة أخرى. إضافة إلى هذه الصحيفة، استفدت من بعض الدراسات المنشورة في جريدة التايمز (Times) البريطانية.

ومن الدوريات التي أغنت البحث، أذكر على سبيل المثال:

The Moslem World , The Contemporary Review , Die Welt des Islams, Middle Eastern Studies, International Journal of Middle East Studies.

وإذا كانت هذه المصادر قد شكلت مادة أساسية في هذا البحث، فلم يكن بالإمكان معرفة خلفيات الأحداث وتفسيرها أو ربط بعضها ببعض دون العودة إلى المراجع الثانوية. ومراجع الكتاب كثيرة، ويقدم بعضها قراءات جديدة لأحداث تناولتها المصادر أو درستها بصورة جزئية أو من وجهة نظر معينة. وتكون أهمية بعضها في اعتماده على الأرشيف، وهو أمر لم يتوفّر آنذاك لواضعي كتب المصادر. ومن المراجع المهمة التي أغنت الكتاب، دراسات أبو مني وايميريت والطيباوي والعمري وأنطونيوس وزين وكوثراني وبهرندت وجليل وجبريل وغروس وصلبيا وجويده وخوري ولانغر ودايفيسن وأوكسنولد وشكلا وبوبلو/بوتو وغيرهم .

في الختام، لا بد لي من توجيه كلمة شكر وامتنان إلى «مركز الدراسات الشرقية الحديثة» (Zentrum Moderner Orient) في برلين بشخص مديره الأستاذ الدكتور بيتر هاينه (Peter Heine) والمنسق العام الأستاذ الدكتور غرهايد هوب (Gerhard Höpp) على المنحة التي قدمت لي خلال العام ١٩٩٥ في سبيل جمع المادة العلمية لهذا البحث، وعلى تقديمها كل مساعدة لإنجاح هذا المشروع. وفي هذه المناسبة ، أقدم خالص شكري واحترامي إلى استاذي الدكتور فريتز شتبا (Fritz Steppat) على دعمه ، وقد ناقشت معه مسائل جوهرية تضمنها هذا الكتاب. ولا أنسى أن أوجه كلمة شكر وعرفان إلى الأستاذة الدكتورة أنجليكا نويفرت (Angelika Neuwirth) مديرية «المعهد الألماني للأبحاث الشرقية» في بيروت (Orient- Institut der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft) على دعمها لي لتأمين كل مستلزمات إنجاح مهمتي العلمية في ألمانيا. كما أشكر الصديق الدكتور منير مغربل ، الطبيب في مستشفى

بون، وزوجته كارينا على المساعدة بترجمة أحد النصوص عن اللغة الروسية. ولا أنسى في هذه المناسبة دعم صديقي الأستاذ رالف غضبان، المقيم في ألمانيا، والدكتور أكسل هافمان (Axel Havemann) على تكريمهما بتزويدي بعض المادة العلمية الضرورية لهذا البحث.

أما بالنسبة للذين آذروني في لبنان، فهم ثُمَر، وأخص منهم بالشكر السفير الدكتور عادل إسماعيل والأستاذين حسن الأمين ومحمد السمّاك والدكتورة سعاد سليم أبو الروس ومنتدر جابر وجيه كوثراني الذين ناقشت معهم قضيّاً أساسياً في هذا الكتاب. وبفضل الصديق المؤرخ الدكتور منير إسماعيل وجد هذا البحث طريقه إلى النشر. فله مني خالص الشكر والمحبة. كماأشكر في هذه المناسبة لدار بيسان اهتمامها بنشر كتابي هذا. وللصديقين الدكتورين إبراهيم بيضون وأحمد حطيط كلمة امتنان صادقة لجهثهما لي على الكتابة في هذا الموضوع ولتفضليهما بقراءة مخطوطة الكتاب وتوجيههما ملاحظات قيمة. أما الصديقة الدكتورة الهام حطيط، فلها مني خالص المودة والعرفان لضبطها ترجمات بعض الوثائق الفرنسية. أخيراً، كلمة شكر ومحبة لزوجتي هدى وشقيقتي هدى سنو علي حسن وولدي حسام وسمر على تشجيعهم لي وقيامهم بمراجعة مخطوطة الكتاب وتصنيف فهارسها وقوائم مصادرها ومراجعها.

إلى كل هؤلاء، وإلى من أكون قد سهوت عن شكره، أسمى آيات التقدير والاحترام.

عبد الرؤوف ستو
بيروت في ١٩ آذار ١٩٩٧.

حواشি المقدمة

- (١) منذ أن أخذ الإعياء يدب في كيان السلطنة العثمانية نهاية القرن السابع عشر ويظهر بوضوح في القرنين التاليين، بدأ مصطلح «المأساة الشرقية» (Eastern Question) يستعمل على نطاق واسع في التاريخ والأدب السياسيين. وقد شملت هذه «المأساة» باختصار جميع المشكلات التي ارتبطت بانهيار السلطنة داخلياً وثورات الشعوب المحكومة من قبلها، وأخيراً تضارب المصالح الأوروبية وتشابكها في الدولة العثمانية وتدخل الدول الكبرى في عملية الانهيار العثماني.
- حول هذا الموضوع انظر، عبد الرزوف سنو، «ألمانيا وسياسة الاندماج نحو الشرق، العلاقات الألمانية العثمانية من ١٨٧١ إلى ١٩١٨»، في: «دراسات إسلامية» (بيروت)، ١٩٨٩(٣) / ١٩٩٠ (٢٣٢ ص).
- (٢) جاء في المادة الأولى لـ «معاهدة الضمان» لاستقلال الدولة العثمانية وسلامتها (١٨٥٦/٤/١٥) الملحقة بمعاهدة باريس إن الأطراف السامية المتعاقدة (بريطانيا وفرنسا والنمسا) تضمن مجتمعة ومنفردة استقلال الدولة العثمانية المصرح عنه في المعاهدة المعقوفة في باريس بتاريخ ٣٠ آذار ١٨٥٦، انظر:
- J.C. Hurewitz, *The Middle East and North Africa in World Politics. A Documentary Record*, vol. I. European Expansion 1535-1914, New Haven/London 1975, p 322.
- (٣) حول هذا الموضوع راجع دراستي:
Abdul-Raouf Sinno, Pan-Slawismus und Pan-Orthodoxie als Instrumente der russischen Politik im Osmanischen Reich, in: *Die Welt des Islams*, XXVII (1988), pp 536-558.
- وأنظر ترجمة لها «الأرثوذكسية والسلافية وأثرهما في السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية»، في «حواليات» (بيروت)، ١٩٨٥(٣٠)، ص ١١ - ٣١.
- (٤) راجع الفصل التاسع من كتاب:
Roderic H. Davision, *Reform in the Ottoman Empire*, New York 1973, pp 311-357.
- (٥) Günter Behrendt, *Nationalisms in Kurdistan*, Hamburg 1993, p 203.
- (٦) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ٢ القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٠٨٦.
- (٧) راجع دراستي في مجلة «المنهاج» (بيروت)، ٤ (١٩٩٦) ص ١٤٩ - ١٠٨، ٥ (١٩٩٧) ص ٨٥ - ١٣١ بعنوان: تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية. «من التنظيمات حتى نهاية عصر السلطان عبد الحميد الثاني».
- (٨) كانت مصر تتمتع بالاستقلال الذاتي منذ عام ١٨٤١ تحت حكم أسرة محمد علي.

مدخل

السياسة الروسية تجاه الدولة العثمانية حتى حرب عامي ١٨٧٧ - ١٨٧٨

على مدى قرون عدة تضافرت عوامل دينية - سياسية واستراتيجية واقتصادية كانت تدفع روسيا على الدوام للاستحواذ على القسطنطينية (إسطنبول) وبالتالي على الممرات العثمانية (البوسفور والدردنيل)، تارة باسلوب التوسيع العسكري وتارة أخرى من خلال تفاهم مع فرنسا، والنمسا بخاصة. وقد أعلنت روسيا مراراً عن برنامجهما لتقسيم الدولة العثمانية وأن تكون العاصمة العثمانية والممرات من نصيتها^(١). فقد إدعت، منذ سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين، أنها وريثة الإمبراطورية البيزنطية والحامية العالمية والمدافعة عن العقيدة الأرثوذك司ية^(٢). وبناءً على ذلك، اعتبرت نفسها زعيمة العالم الأرثوذكسي دينياً وسياسياً وتحولت نفسها إعادة تحرير «القسطنطينية» وتقديم حمايتها للأماكن المقدسة في فلسطين والأرثوذكس الخاضعين للحكم العثماني (الإسلامي)، وليس آخرأ «نصب الصليب مجدداً على (كنيسة) آيا صوفيا» كرمز لانتصار العالم الأرثوذكسي بقيادتها^(٣).

ويغض النظر عن العامل الديني - السياسي، فقد كان موقع «القسطنطينية» الإستراتيجي وإشرافها على الممرات وكونها تحشكل حاجزاً أمام روسيا للوصول إلى البحر المتوسط، أو عبر هذا البحر إلى المياه الأوروبية حين يتجمد بحر البلطيق، يفقد تلك الدولة طابعها كدولة أوروبية. ولهذا، سعت باستمرار للاندفاع جنوباً في اتجاه البحر الأسود ومنه عبور الممرات إلى المتوسط، أو على الأقل ضمان حرية المرور لسفنهما التجارية في الممرات في كل الأوقات وإغلاق هذه الممرات أمام سفن أعدائها^(٤).

إضافة إلى ذلك، لعبت العوامل الاقتصادية دوراً أساسياً في صياغة روسيا سياستها التوسعية على حساب الدولة العثمانية. فازدياد السكان في جنوب البلاد، فضلاً عن

الازدهارين التجاري والزراعي اللذين عرفتهم المنطقة، حول الثقل الاقتصادي إلى منطقة البحر الأسود وجعل تصدير السلع إلى المتوسط عبر الممرات أمراً حيوياً لها^(٥).

وحتى نهاية القرن الثامن عشر، إستطاعت روسيا أن تحقق نصف برنامجها التوسيعى على حساب الدولة العثمانية والقاضي بالسيطرة على العاصمة العثمانية وممراتها. فبطرس الأكبر(٦) هو الذي وضع إستراتيجية بلاده للتوسيع نحو الساحل الشمالي للبحر الأسود^(٧)، فيما تمكنت كاترين الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦) من جعل هذا البحر «بحيرة روسية»، وأمنت بالتالي لسفنه التجارية عبور الممرات إلى المتوسط، فضلاً عن إدعاء حماية رعايا السلطان العثماني من الأرثوذكس، طبقاً لتفسيرها لمعاهدة «كوتشك قينارجة» الموقعة معه في عام ١٧٧٤^(٨).

وطوال القرن التالي(التاسع عشر)، واصلت روسيا قدمًا تنفيذ ما تبقى من برنامجها الإستراتيجي والديني - السياسي تجاه السلطنة العثمانية، وهو الوصول إلى الآستانة. فشهد القرن المذكور اندلاع أربع حروب كبيرة بينها وبين الدولة العثمانية ١٨٠٦-١٨١٢، ١٨٢٨-١٨٢٩، ١٨٥٣-١٨٥٦، ١٨٧٧-١٨٧٨) وتوقيعها مع السلطنة عام ١٨٣٣ معاهادة فريدة، هي معاهادة هنكار أسكله سي^(٩). فبعدما وجدت أن توسيع محمد علي باشا، والي مصر، على حساب السلطنة مطلع الثلاثينيات من القرن التاسع عشر وإقامته دولة قوية على البوسفور سوف يفقدها جاراً ضعيفاً (السلطنة العثمانية) تستطيع أن تفرض إرادتها بسهولة عليه، سارعت إلى إنقاذه بارسال جنودها إلى البوسفور عام ١٨٣٣، وفرضت عليه في الوقت نفسه المعاهادة المذكورة^(١٠). وفي الحربين الثانية والرابعة، وصلت جيوشها إلى عمق الأراضي العثمانية: إلى أدرنة في عام ١٨٢٩ وإلى سان ستيفانو (St. Stefano) عام ١٨٧٨ ، على بعد عشرة أميال من إسطنبول^(١١). وفيما كانت الحربين الأولى والثانية لدعم شعوب البلقان الأرثوذكسية - السلافية (الصرب) والأرثوذكسية اليونانية^(١٢)، شنت روسيا الحرب الثالثة للتاكيد على إدعائها حماية الأماكن المقدسة في فلسطين^(١٣). أما الحرب الرابعة والأخيرة (١٨٧٧-١٨٧٨)، فشكلت خروجاً واضحاً عن برنامجها في «الجامعة الأرثوذكسية».

حتى حرب القرم، كانت إيديولوجية «الجامعة الأرثوذكسية» كافية لتجمیع شعوب البلقان الأرثوذكسية تحت زعامة روسيا دون اعتبار للعرق وتوجيههم ضد السلطنة العثمانية. وبعد الحرب المذكورة، أولت تلك الدولة العوامل العرقية والقومية دوراً رئيسياً في برنامجها للقضاء على الدولة العثمانية، بعدما أدركت تطلعات شعوب البلقان نحو القومية. وقد أعطاها هذا مجالاً أوسع لتحركها السياسي والدبلوماسي والعسكري

ضد الدولة العثمانية، إذ كان الرأي العام الأوروبي يعطف على مطالب شعوب البلقان المسيحية في الاستقلال الذاتي أو التام. فتفوقت منذ ذلك الحين رسالة «الجامعة السلافية» على «الجامعة الأرثوذكسية» وأصبحت ذات بعد أيديولوجي هام في سياسة روسيا تجاه جنوب وجنوب شرق أوروبا^(١٣). وقد بلغت إيديولوجية «الجامعة السلافية» ذروتها في سياسة روسيا الخارجية بمشروع خلق دولة بلغاريا الكبرى عام ١٨٧٨^(١٤).

لقد مهدت الثورة في البوسنة والهرسك عام ١٨٧٥ وامتدادها في العام التالي إلى بلغاريا وتدخل الصرب والجبل الأسود عسكرياً في المسألة من جهة، والأوضاع الدولية عشية الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧ - ١٨٧٨)^(١٥) من جهة أخرى، لروسيا إمكانية تنفيذ سياستها في إعادة بعث العالم السلافي بزعامتها والسيطرة على العاصمة العثمانية. ومنذ اندلاع الثورة في البوسنة والهرسك، سارت الدبلوماسية الروسية في اتجاهين: الأول مثله ألكسندر جورشاكوف (Alexandre Gorchakov) مستشار روسيا ووزير خارجيتها، و يؤيد حلّاً سياسياً لـ«الأزمة الشرقية» بالاتفاق مع دول «عصبة الأباطرة الثلاثة» (Dreikaiserbund)^(١٦) وبخاصة مع النمسا/هنغاريا، يسمح لبلاده تحقيق أهدافها السياسية والاستراتيجية في البلقان دون التورط في حرب. أما الاتجاه الثاني، فكان تيار «الجامعة السلافية» بزعامة نيكولا إغناطييف (Nicholas Ignatiev)، سفير روسيا في الآستانة، والذي كان يرى ضرورة استغلال «الأزمة الشرقية» لإحداث انفاضة عامة في تركيا الأوروبيّة تؤدي إلى «إعادة بعث العالم السلافي» بزعامة بلاده والاستيلاء على الآستانة^(١٧).

وحتى هزيمة الصرب أمام الدولة العثمانية في تشرين الأول عام ١٨٧٦، استطاع جورشاكوف أن يطبع بدبليوماسيته سياسة بلاده. ولكن بعد ذلك التاريخ، غالب تيار «الجامعة السلافية». وقد تمكّن هذا التيار من أن يورط الصرب والجبل الأسود في حرب ضد السلطنة وجزء قيصر روسيا ألكسندر الثاني (١٨٥٥-١٨٨١) إلى مواقف راديكالية مؤيدة لسياسة «الجامعة السلافية» أدت إلى الإنزال في الحرب، في وقت وصلت فيه المساعي الدوليّة لحل المسألة سلماً إلى طريق مسدود^(١٨). كما ولم يُؤدِ صدور الدستور العثماني (٢٣ كانون الأول ١٨٧٦) إلى تهدئة الأوضاع في البلقان ولا إلى لجم روسيا عن التدخل في المسألة الشرقية.

وفي ٢٤ نيسان ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وعبرت جيوشها نهر بروث (Pruth)، فيما كانت قوات روسية أخرى تهاجم العثمانيين في القوقاز. وقد

اتسم تقدم الجيش الروسي في الأراضي العثمانية في أوروبا وأسيا بادئ الأمر بالبطء الشديد. ففي أوروبا، تأخر عبوره نهر الدانوب حتى أواخر حزيران ، ثم أوقفته المقاومة العثمانية عند بلقنا (Plevna) حتى أواخر تشرين الثاني . ولكن بعد ذلك التاريخ، أصبحت الطريق مفتوحة أمامه للوصول إلى الأستانة. فسقطت صوفيا وأدرنه في كانون الثاني عام ١٨٧٨ . وفي آسيا، تلقى الروس صدمة عند قلعة قارس ، لكنهم عادوا وحققوا انتصارات حاسمة وسريعة على الجيش العثماني^(١٩) .

وفي اليوم الذي أعلنت فيه روسيا الحرب على السلطنة، ذكر الباب العالي الدول الأوروبية الموقعة على معاهدتي باريس ، والضممان (Treaty of Guarantee 1856) بالتزاماتها في الدفاع عن استقلال السلطنة وسيادتها واعتبار ذلك مصلحة أوروبية عامة^(٢٠) . إلا أن الأوضاع الدولية عشية الحرب ما كانت في مصلحة السلطنة وتمنع وبالتالي قيام أي تكتل أوروبي ضد روسيا كما حدث أثناء حرب القرم . فبسمارك ، مستشار ألمانيا ، لم يكن مكترثاً بالمسألة الشرقية واعتبرها أفضل طعم يمكن أن تتلهى به دول الاستعمار الأوروبية على أطراف القارة ويشغلها عن المسائل في وسط أوروبا . أما الحكومة البريطانية التي كانت تدرك مخاطر الاندفاع الروسي في اتجاه الأستانة على مصالحها الاستراتيجية في المتوسط والهند ، فاكتفت بادئ الأمر ، وبسبب انقسامها على بعضها حول موقفها من تطورات المسألة الشرقية ، بتحذير روسيا من مغبة احتلال العاصمة العثمانية وتعطيل الملاحة في الممرات . وبالنسبة للنمسا / هنغاريا ، فلم تكن تمانع حرباً روسية - عثمانية شرط ألا تخل بالتوازن في البلقان ويمصالحها الاستراتيجية هناك ، وبخاصة إنشاء دولة سلافية كبيرة تدور في فلك روسيا^(٢١) . إضافة إلى ذلك ، عقدت روسيا سلسلة من الاتفاقيات مع كل من النمسا / هنغاريا ورومانيا لضمان حياد الأولى ومشاركة الثانية في الحرب^(٢٢) .

وبعد انهيار الجبهات العثمانية في أوروبا وأسيا مطلع عام ١٨٧٨ ، أمرت الحكومة البريطانية أسطولها بالتقدم نحو الممرات (٢١ شباط ١٨٧٨)، فيما تقدمت القوات الروسية بعد هدنة ٣١ كانون الثاني مع السلطنة إلى سان ستيفانو^(٢٣) . وفي ٣ آذار ١٨٧٨ ، توصلت روسيا والدولة العثمانية إلى عقد معاهدة سان ستيفانو ، التي أوجدت دولة بلغاريا الكبرى ، التي امتدت من البحر الأسود إلى بحر إيجه وضمت الروميلاي الشرقية ومقدونيا ومناطق «الألانية» (غوليتشا Gostiva ، كاشاميك Kaçamik ، تيتوفا Tetova ، ديبرا Dibra^(٢٤) . كما تخلت الدولة العثمانية لروسيا عن قارس وباطوم وأردهان وبايزيذ ، وضُمّت جنوب بسارابيا إلى روسيا مقابل إعطاء دبروجه (Dobrudja)

إلى رومانيا. أما الصرب والجبل الأسود، فحصلوا على مكاسب إقليمية في «ألبانيا»: الأولى على سنجق پرستينا (Pristina) والثانية على مناطق دولسينو (Dolcigno) وبلاڤا (Hotti) (٢٥) وغيسينيه (Guisinje) وخوتي (Plava).

لقد خيّبت معاهدة سان ستيفانو آمال الدول الأرثوذكسية السلافية (الصرب والجبل الأسود) والأرثوذكسية (اليونان ورومانيا) في البلقان، حيث مثلت ذروة المصالح القومية الروسية بتجاهلهما مصالح دول البلقان الأخرى، وذلك من خلال إنشاء روسيا دولة أرثوذكسية سلافية تسير في فلكها. وفي الوقت نفسه، خلقت المعاهدة المذكورة معارضة دولية واسعة بسبب تضرر مصالح الدول الكبرى وبخاصة بريطانيا والنمسا/ هنغاريا من جراء تغيير موازين القوى في البلقان (٢٦).

ولتجنب حرب أوروبية، عقد في برلين مؤتمر دولي ما بين ١٣ حزيران إلى ١٣ تموز ١٨٧٨ تميز بأنه ألغى الكثير من المشاريع التي نفذتها روسيا في البلقان تبعاً لمعاهدة سان ستيفانو. فبموجب معاهدة برلين (١٣ تموز ١٨٧٨)، تخلت روسيا عن مشروع بلغاريا الكبرى وأعلن بالمقابل الاستقلال الذاتي لبلغاريا والروملي الشرقي وأعيدت مقدونيا إلى السلطان العثماني. كما أُعلن الاستقلال التام لكل من رومانيا والصرب والجبل الأسود. وقد حصلت الصرب على أراضٍ «ألبانية» ذات أغلبية سلافية بدلاً من پرستينا وپلاڤا إلى الجبل الأسود ورفضت منحه دولسينو. أما اليونان، فمنحت إيرا (Epire) وتيساليا (Thessalie) على أن ترسم الحدود النهائية بينها وبين الدولة العثمانية من قبل لجنة مشتركة للدولتين. إضافة إلى ذلك، حصلت النمسا / هنغاريا على حق احتلال البوسنة والهرسك وسنجق نوفي بازار (Novibazar). وفي آسيا، تقرر أن تضم روسيا إليها مناطق باطوم وقارس وأردهان وأن تُعيد بايزيد إلى السلطنة العثمانية (٢٧).

باختصار، كانت نتائج الحرب الروسية - العثمانية بمثابة الكارثة على السلطنة العثمانية، إذ خسرت أراضٍ في البلقان وأسيا بمساحة ما بين ٢١٢ ألف كيلومتر مربع وسكناناً بلغ مجموعهم حوالي ستة ملايين نسمة (٢٨). إضافة إلى ذلك، تسبّبت العمليات الحربية والسياسة القمعية الروسية وتلك للدول البلقانية في تهجير مئات الآلاف من المسلمين في المناطق المحتلة إلى الولايات العثمانية في الشرق. فتحولت الأستانة ومناطق السلطنة الآسيوية إلى مستوعب لمهجرين من الروملي والبوسنة والهرسك وبلغاريا والقرم والقوقاز، الذين وصل عددهم إلى عدة ملايين في السنوات

القليلة التالية^(٢٩). وفي ضوء أعباء الحرب على الدولة العثمانية وتدور ماليتها واقتصادها، سبب الهجرات الإسلامية أزمات اجتماعية - اقتصادية حادة، هذا فضلاً عن المعاناة الإنسانية^(٣٠). تحت وطأة الانهيار العسكري أمام روسيا وتدور الوضع الاقتصادي وخروج مناطق عثمانية واسعة عن سيادة السلطنة، سرى الاعتقاد في السلطنة بأن الدول الكبرى على وشك أن تحل المسألة الشرقية (= تجزئة الدولة العثمانية). فبدأت «قومياتها» الإسلامية تقوم بخطوات وتحركات اتجهت نحو تقرير المصير.

حواشى المدخل

- (١) حول مشاريع روسيا لتجزئة الدولة العثمانية، راجع دراستي: «العلاقات الروسية - العثمانية ١٦٨٧-١٨٧٨»، روسيا ومشاريع تقسيم الدولة العثمانية في: «تاريخ العرب والعالم» (بيروت)، ٧٥/٧٦ (١٩٨٤)، ص ٣٤-٤٧.
- (٢) Sinno, Pan-Slavismus, op. cit. p 539
- (٣) Carl Ritter von Sax, Geschichte des Machtverfalls der Türkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die Phasen der 'orientalischen Frage' bis auf die Gegenwart, Wien 1908, p114.
- (٤) Heinz Gollwitzer, Europe in the Age of Imperialism 1880-1914, London 1969 pp 47-48.
- (٥) J.A.R. Marriott, The Eastern Question. A Historical Study in the European Diplomacy, Oxford 1917, p 17.
- (٦) عبد الرؤوف سنو، «العلاقات الروسية- العثمانية (١٦٨٧-١٨٧٨)»، سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة، في: «تاريخ العرب والعالم»، ٧٣/٧٤ (١٩٨٤) ص ٥٠-٥١.
- (٧) المرجع السابق ص ٥٠-٥٢.
- (٨) أنظر نص المعاهدة في إميل خوري/عادل إسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي ، ج ٢، بيروت ١٩٦٠ ص ٢٧٧-٢٧٩.
- (٩) سنو، «سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة»، مرجع سابق ص ٥٥-٥٦.
- (١٠) عبد الرؤوف سنو، «العلاقات الروسية - العثمانية (١٦٨٧-١٨٧٨)»، مسألة البحر الأسود والأزمة البلقانية ١٨٥٦-١٨٧٨، في : «تاريخ العرب والعالم»، ٨٠/٧٩ (١٩٨٥) ص ١٩ . تعتبر معاهديتي هنكار أسكله سعي وسان ستيفانو بين روسيا والدولة العثمانية ذرورة نفوذ الدولة الأولى في الشرق، قارن بملحق رقم (١).
- (١١) سنو، «سياسة الاندفاع نحو المياه الدافئة»، مرجع سابق ص ٥٣-٥٥.
- (١٢) عبد الرؤوف سنو، «العلاقات الروسية - العثمانية (١٦٨٧-١٨٧٨)»، حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦ في: «تاريخ العرب والعالم»، ٧٧/٧٨ (١٩٨٥) ص ٤٤-٤٥.
- (١٣) راجع دراستي: «الأرثوذكسية والسلافية»، مرجع سابق.

Charles Jelavich, Tsarist Russia and Balkan Nationalism. Russian Influence in the Internal Affairs of Bulgaria and Serbia, 1879-1886, Berkeley/Los Angeles 1962, p 10.

(١٥) سنو، «مسألة البحر الأسود»، مرجع سابق ص ١٨-١٩.

(١٦) تأسست «عصبة الأباطرة الثلاثة» عام ١٨٧٣ من ألمانيا وروسيا والنمسا/ هنغاريا بهدف عزل فرنسا عندها ألمانيا وتحقيق حلقة التناقضات الروسية-النمساوية/ الهنغارية في البلقان، وقد بقي التحالف الأول قائماً حتى عام ١٨٧٥، ثم تجدد سراً في عام ١٨٨١ لمدة ثلاثة سنوات، ومرة أخرى للمرة نفسها حتى عام ١٨٨٧، وكان أحد أسباب انهيار العصبة، التناقضات الروسية-النمساوية/ الهنغارية حول البلقان، وفي عام ١٨٨٧ عقد بسمارك معاهدة سرية مع روسيا، إلا أنها لم تُجدد بعد عزله عن المستشارية، انظر:

William L. Langer, European Alliances and Alignments 1871-1890, New York 1966, pp 23ff, 33f, 207, 210, 418f.

Gerog Webers, Lehr - und Handbuch der Weltgeschichte. Neu berab. von Alfred Baldamus, Bd. IV. Neueste Zeit , Leipzig 1911, p 671.

(١٧) من هذه المساعي «مذكرة أندراسي» وزير خارجية النمسا/ هنغاريا في ٣٠ كانون الأول ١٨٧٥، و«مذكرة برلين» في ٣ أيار ١٨٧٦ و«مؤتمر الأستانة» في ١١ كانون الأول ١٨٧٦ حتى ١٨ كانون الثاني ١٨٧٧ و«بروتوكول لندن» في ٣١ آذار ١٨٧٧. راجع دراستي: «مسألة البحر الأسود»، مرجع سابق ٩-١٤، ١٦-٢١.

(١٩) المراجع السابق ص ١٧.

Felix Bamberg, Geschichte der orientalischen Angelegenheit im Zeitraum des Pariser und des Berliner Friedens, Berlin 1892, p 489f.

وراجع أيضاً حاشية (٢) في «المقدمة».

(٢١) سنو، «مسألة البحر الأسود»، مرجع سابق ص ١٨-١٩.

Anderson, op. cit. p 193f; B.H. Sumner, Russia and the Balkans 1870-1880, Oxford 1937, p 299.

Sax, op. cit., p 435f.

(٢٢)

Georges Castellan, Historie des Balkans (XIV - XX siècle), Paris 1991, p 320; Stefanq Pollo/Arben Puto, Histoire de L'Albanie, Roanne (Paris) , s.d. p 137.

(٢٣) المراجع السابق.

(٢٤) وجدت بريطانيا في قيام دولة بلغارية كبيرة تحت النفوذ الروسي مع منفذ لها على بحر إيجه، وكذلك استيلاء روسيا على مناطق عثمانية في آسيا الصغرى، تهديداً للهند ولمصالحها في المجرات والأستانة، انظر:

G.D. Clayton, Britain and the Eastern Question. Missolonghi to Gallipoli, London 1971, p 143;

وبالنسبة للنمسا/ هنغاريا، فإن ما أفلتها ليس حصول دولة بلغارية على منفذ على البحر فحسب،

بل اتساع تلك الدولة نحو الغرب، وهو ما يعتبره انتهائاً صارخاً لاتفاقيتها مع روسيا بتاريخ ٨ تموز ١٨٧٦ و ١٨ آذار ١٨٧٧ ، راجع :
Barbara Jelavich, The Ottoman Empire, the Great Powers and the Straits Question 1870-1887, Bloomington/London 1973, p 108; Webers, op. cit., p 674.

(٢٧) أنظر بنود معاهدة برلين في كتاب :

W.N. Medicott, The Congress of Berlin and After, 2nd. ed. Edinburgh 1963, pp 409-419.

(٢٨) عصر السلطان عبد الحميد وأثره في الأقطار العربية ١٩٠٩-١٨٧٦ ج ٤ ، ص ٤١٢ .
Engin D. Akarli, Abdülhamid II's Attempt to Integrate Arabs in the Ottoman System, in: David Kushner ed., : Palestine in the Late Ottoman Period, Jerusalem 1986, pp 74-75.

F.O. 424/85, *Trotter to Salisbury*, no. 15, Erzerum 19.6.1879; Stanford J. Shaw/Ezel (٢٩)
Kural, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. II: Reform, Revolution, and Republic: The Rise of Modern Turkey, 1808-1975, Cambridge ect. 1977, pp 115ff., 195; C.H. Becker, Islampolitik, in: *Die Welt des Islams* , I, 3(1915), p 102.

F.O. 424/69, *Layard to Salisbury*, no. 496, Constantinople 16.4.1878. (٣٠)

حيث يذكر السفير أن المهجرين أسكنوا في المساجد والتكايا والأبنية العامة في إسطنبول، حتى أن مسجد آيا صوفيا ازدحم بأربعة آلاف منهم .



الفصل الأول

مسلمو بلاد الشام والدولة العثمانية: إشكالية العلاقة بين الهوية الدينية والهوية الوطنية

**أولاً: مسلمو بلاد الشام بين «الرابطة العثمانية» و «الوطن السوري»
(١٨٣٩-١٨٧٧)**

عندما بدأت فكرة القومية تزحف على ولايات السلطنة العثمانية المسيحية منذ مطلع القرن التاسع عشر، كانت بلاد الشام^(١) لا تزال ترزح لعدة قرون تحت الحكم العثماني. وكانت علاقة ولايات (إيالات) بلاد الشام بالحكومة المركزية في إسطنبول أوثق من أية منطقة أخرى في السلطنة. فدمشق كانت مركز إمارة الحجج وحلقة اتصال تجارية بين الداخل والساحل، فيما كانت حلب مركز التجارة الدولية^(٢). فضلاً عن ذلك، كانت بلاد الشام على رأس الولايات العثمانية في مستوى التعليم. وقد قامت الحكومة العثمانية برعاية المؤسسات التربوية والدينية تاركة العنصر المحلي يحتل المناصب في الإدارة والقضاء، دون أن تبخّل في الوقت نفسه في تقديم دعمها إلى العلماء ورجال الدين المسلمين^(٣).

وخلال تلك الحقبة الزمنية الطويلة من الحكم العثماني، استسلم مسلمو بلاد الشام، وهم في الأصل محافظون دينياً وثقافياً^(٤)، طواعية إلى هذا الحكم معترفين بشرعيته كخلافة إسلامية متوارثة، مما جعل نظرتهم إلى التاريخ تنحصر في إطار إسلامي عام كانت الدولة العثمانية آخر حلقاته^(٥). ولذلك، لم تُرسم في أذهانهم صورة ما قد يسمى بتاريخ وطنهم «سوريا» أو تاريخ «الأمة العربية»^(٦). وهذا الانقياد الذاتي لـ «الشرعية» العثمانية جعل مسلمي بلاد الشام يتقبلون الحكم العثماني بكل مساوئه، ولم يتعد تذمرهم منه حدود الاحتجاج على ظلم وإيل أو قهر العسكر وعبء التجنيد وارتفاع الضرائب والأسعار^(٧). وعدا ذلك، فإن الانتفاضات والاتجاهات الانفصالية التي

شهدتها بلاد الشام، أو تلك التي تأثرت بها (علي جانبoland، فخر الدين المعنی الثاني، ظاهر العمر، علي بك الكبير، محمد علي باشا) بقيت حركات واتجاهات فوقية ضمن التُّخُب والزعamas والأعيان والموظفين العثمانيين ولم تجد لها جذوراً عميقاً في القاعدة الإسلامية^(٨).

ولا شك أن تشديد العثمانيين على العامل الديني في حكمهم لبلاد الشام قد أكسبهم موقعاً معنوياً وشرعية في نشر سلطتهم على المنطقة وثبيت حكمهم^(٩) - حتى عندما بدأ الصعف يتسرّب إلى كيان دولتهم ويظهر بوضوح منذ القرن الثامن عشر، ذلك أنهم أعطوا مسلمي السلطنة عموماً وببلاد الشام خصوصاً شعوراً بالرضا بأنهم يعيشون تحت مظلة دولة (خلافة) إسلامية^(١٠).

بيد أن بلاد الشام شهدت حوادث خطيرة في الفترة الممتدة من الربع الأخير من القرن الثامن عشر وطوال القرن التالي نتيجة لعوامل خارجية وداخلية وكان لها تأثير على ثقة المسلمين بأنفسهم وبدولة «الخلافة» العثمانية. فقد ظهر بوضوح تفوق الغرب المسيحي على الشرق الإسلامي في ميادين النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلوم والتكنولوجيا، فضلاً عن العسكرية^(١١)، مقابل فشل عثماني (إسلامي) في إحداث تغيرات جذرية عقلانية تستجيب لهذا التحدي^(١٢)، مما أدى إلى صدمة نفسية وشعور بالمنذلة لدى المسلمين بتفوق المسيحية على الإسلام^(١٣).

وقد إنعكس ضعف السلطنة وتفوق الغرب المسيحي بادئ الأمر إختراقاً مضطرباً في الاقتصاد العثماني من قبل الدول الأوروبية وتدخلها لمصلحة الملل (أهل الذمة)، ثم تبلور عبر مشاريع لتجزئة الدولة العثمانية (= المسألة الشرقية) والاستيلاء على ولاياتها العربية، وأخيراً، تحركات استقلالية في الأطراف. فالحملتان الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١) والبريطانية (١٨٠٧) على مصر وإخضاع بريطانيا ساحل عمان لنفوذها (١٨٢٠) ثم احتلالها لعدن (١٨٣٩) وسقوط الجزائر بيد الاستعمار الفرنسي (١٨٣٠)، لم يكشف عن ضعف السلطنة نظاماً ومجتمعاً ومؤسسات فحسب، بل أدى إلى هزة فكرية - اجتماعية في أن «الخلافة العثمانية» أصبحت عاجزة عن حماية «دار الإسلام»، التي لم تعد في منأى عن يد الاستعمار^(١٤).

وقبيل الحملة الفرنسية على مصر، إندرفت قوات مصر المملوكية مدعومة من الزعيم الفلسطيني المحلي ظاهر العمر نحو بلاد الشام واحتلت مدينة دمشق (١٧٧٠)^(١٥). كما اهتزت شرعية السلطان العثماني بظهور حركة الموحدين (الوهابية)

كحركة دينية سلفية إنطلقت من نجد (الجزيرة العربية) نحو الخارج (العراق، بلاد الشام، الحجاز، ساحل الخليج العربي)^(١٦). وقد دعت تلك الحركة للعودة إلى الإسلام الأول (القرآن والسنّة) متحدية السلطان العثماني بأن الإسلام الذي يدعى حمايته ليس بالإسلام الصحيح، بمعنى أنه ليس الإمام الحقيقي للأمة الإسلامية^(١٧). وأنباء فرض الموحدين سلطتهم على الحجاز، توقف ذكر إسم السلطان في خطبة الجمعة^(١٨). ولم يتقدّم على هذه الحركة (مرحلياً) إلا من خلال جيوش والي مصر محمد علي باشا، عندما احتل الدرعية (١٨١٨) مقر الدعاة وأنقذ بذلك سمعة السلطان العثماني دينياً وسياسياً^(١٩).

وقد وفر بناءً مصر الحديثة على يد محمد علي شعوراً بالقوة لديه، مما انعكس - إسوة بمعظم فترات التاريخ - إندفاعاً نحو الخارج (توحيد مصر وببلاد الشام). وإذا كانت حركة الموحدين قد شكلت تحدياً دينياً - سياسياً للسلطنة، فإن توحيد مصر وببلاد الشام في دولة عصرية (١٨٣١-١٨٤٠) وتمدد النفوذ المصري إلى الجزيرة العربية^(٢٠)، شكل تهديداً مزدوجاً: للسلطنة العثمانية في الداخل (شرعية الحكم)، وللمصالح الاقتصادية - السياسية والاستراتيجية الأجنبية، التي اتجهت نحو إبقاء السلطنة ضعيفة وسقراً مفتوحة وعدم استبدالها بدولة جديدة قوية (دولة محمد علي)^(٢١). ولهذا السبب توافقت المصلحتان العثمانية والأوروبية على تحجيم دولة محمد علي وحصرها في مصر.

وعلى صعيد بلاد الشام، أدى الحكم المصري واتجاهات المركزية والعلمنة والمساواة بين أهل الذمة والمسلمين^(٢٢) وفتح البلاد أمام المصالح الغربية (تجارة، تدخل دبلوماسي - سياسي - ثقافي الخ...) إلى إضعاف النفوذ الإسلامي (العلماء والأعيان)^(٢٣) والاقتصاد الإسلامي^(٢٤)، وانعكس تدريجاً في القاعدة الإسلامية ومفتاحاً لهذا الحكم على أنه خروج على الحكومة الشرعية الإسلامية في الأستانة^(٢٥). وعلى الرغم من عودة الحكم العثماني مجدداً إلى بلاد الشام واستعادة العلماء نفوذهم الديني - الاقتصادي السابق، إلا أن الضربات التي كالها محمد علي إلى جيوش السلطان من جهة، ومحاولات البيروقراطية العثمانية علمنة الدولة والمجتمع، أدت إلى «ضياع هيبة تركيا» في نفوس مسلمي بلاد الشام^(٢٦)، وجعلهم يتطلعون لتقسيم مسار الدولة (العثمانية) على أسس الشريعة وسيادة الأمة الإسلامية، لا الانقلاب عليها.

وخلال الفترة الممتدة من استعادة العثمانيين للمنطقة واندلاع الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨)، شهدت بلاد الشام تغيرات أساسية أهمها التوتر الطائفـي بين الجماعات الدينية وتدخل الدول الكبرى في شؤونها واحتراق أوروبا لاقتصاد

المنطقة وتكثيف الإرساليات التبشيرية الأجنبية من نشاطاتها التربوية - الثقافية - بين السكان، وأخيراً، ما أفرزته «التنظيمات العثمانية» من انشقاق اجتماعي بين طوائف البلاد. وقد أدت هذه التطورات إلى نتيجتين هامتين: أ - ظهور تيار فكري مسيحي مدني سعى إلى إبراز الشخصية العربية (الوطن السوري) مستفيداً من تأثيره بالغرب. ب - اتجاه مضاد يقوم على الإسلام (الرابطة العثمانية) وعلى التجربة السلبية مع الغرب^(٢٧).

أ - ثُمو اتجاهات «الوطن السوري»

أثناء الاحتلال المصري لبلاد الشام وفي أعقابه، شهدت المنطقة تكثيفاً لنشاطات الإرساليات التبشيرية الأجنبية في مجالات التعليم، مما انعكس انتعاشاً للغة العربية وأدى وبالتالي إلى قيام حركة أدبية - فكرية انحصرت أساساً بين مسيحيي بيروت وجبل لبنان. وخلال فترة قصيرة، تحولت هذه الحركة من الأدب إلى السياسة وكان لها فيما بعد دوراً بارزاً في «اليقظة» القومية^(٢٨). وما لبث «قانون الولايات» لعامي ١٨٦٤ و١٨٦٧، الذي أعطى الولايات نوعاً من الاستقلالية الإدارية في إطار المناخ الذي أشاعتة «التنظيمات» وبخاصة المساواة بين أهل الذمة والمسلمين، أن أسهم في صنع شخصية عربية (سورية) لدى النخب المدنية المسيحية ذات الثقافة الغربية (أرثوذكس وأفلاطية بروتستانتية)^(٢٩). وبدأ الحديث عن «هوية سورية» واحدة تقوم على الأرض واللغة والثقافة بشكل لم يكن مألوفاً من قبل^(٣٠). وقد تزامن هذا التحول نحو «الوطن السوري» مع معالم القومية التي بدأت تظهر في البلقان وأخذت يتبلور منذ الستينيات من القرن التاسع عشر في مشروع سياسي لدى النخب المسيحية المدنية بهدف التخلص من وضع «الأقلية» وتحقيق تطلعات «وطنية»، وذلك بعدما فشلت «التنظيمات» في تحقيق طموحاتها^(٣١).

بناءً على تلك الاعتبارات، أخذ بعض المسيحيين يضع تصوراً لـ «سوريا» كوحدة ووطن يسكنه شعب واحد^(٣٢)، ففي مجلته «نفير سورية» دون الدعوة إلى التخلص من الحكم العثماني، قال بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣)، مستلهماً العبر من الحرب الطائفية (١٨٦٠)، إن السوريين سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين هم أبناء وطن واحد^(٣٣). وقد تزامنت طروحات البستاني حول «الوطن السوري» مع فكرة «العروبة» عندما حقق السوريين على تجاوز «العصبية الدينية» إلى «العصبية الوطنية» وإلى «العصبية العربية»، اللتين رآهما توحدان وتقويان^(٣٤). وقال إن العناية باللغة العربية قواعد ومضامين كفيل بتعزيز «فكرة العروبة»، حيث اعتبر أن «الأمة السورية» هي أمة عربية^(٣٥). وبالمقابل دعا إبراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦) إلى التخلص من العثمانيين

واستعادة العرب لأمجادهم ورأى أن هذا لا يتحقق إلا بإحياء «قومي» عربي يقوم على نبذ التعصب والانغلاق^(٣٦).

وقد وصلت ذروة اتجاهات «الوطن السوري» بتأسيس «جمعية بيروت السرية» عام ١٨٧٦ من قبل تُخبِّط مسيحية مدينية من خريجي الكلية السورية الانجليزية. وقد دعت هذه الجمعية إلى توحيد جبل لبنان مع «سوريا» في دولة مستقلة ذاتياً عن الدولة العثمانية^(٣٧).

ب - مسلمو بلاد الشام و«الرابطة العثمانية»

رغم تذمّرهم من فساد الإدارة العثمانية ومطالبتهم بإصلاحات^(٣٨)، لم يرض مسلمو بلاد الشام بنظرية المسيحيين حول فكرتي «الوطن السوري» و«العروبة»، وقد اعتبروهما موجهتين ضد دولة الخلافة وتهدمان شخصية المجتمع الإسلامي ، وأن أيدَّ أجنبية تحرك مسيحيي الداخل^(٣٩). وقد انبرى بعض المسلمين إلى مهاجمة رواد النهضة من المسيحيين رافضاً «نصرة» اللغة العربية^(٤٠) وأن تكون أدأة لفكرة سياسي إنفصالي يؤدي إلى مزيد من التفوق المسيحي على المسلمين في بلاد الشام وخسارة الآخرين لدورهم الرائد كامة صاحبة السيادة في «دار الإسلام»^(٤١). ففي ضوء التراكم الكمي والنوعي الاقتصادي والثقافي لل المسيحيين بفعل «الامتيازات الأجنبية»، ثم الاجتماعي – السياسي من خلال «التنظيمات»، لم يكن بإمكان مسلمي بلاد الشام أن يحققوا ذاتهم في كيان مستقل غير إسلامي (وطن سوري) يتحولون فيه ثقافياً واقتصادياً إلى «أقلية» داخل هذا التراكم، مما ينعكس سلباً على وضعهم السيادي في البلاد^(٤٢). ولهذا السبب، لم يتحمسوا كثيراً إلى مشاركة المسيحيين في جمعياتهم «الوطنية» السرية أو العلنية^(٤٣). وعندما عطل السلطان عبد الحميد الثاني الدستور عام ١٨٧٧ وصرف أعضاء «مجلس المبعوثان»، ازداد اهتمام المثقفين المسيحيين بفكرة «الوطن السوري»^(٤٤)، مقابل تجاوب إسلامي مع سياسة الجامعة الإسلامية التي انتهجهها السلطان المذكور^(٤٥).

إن تأكيد مسلمي بلاد الشام على تقدم الدين على اعتبارات الوطنية أو القومية جعلهم في مواجهة مع اتجاهات العلمنة والتغريب التي أتت بها «التنظيمات»^(٤٦) - ١٨٣٩ - ١٨٧٦ والتي اعتبرها الواقعون منهم تقليصاً لدور الشريعة الإسلامية وانتقاداً لمكانتهم في المجتمع الإسلامي^(٤٧) وتأمراً أجنبياً مع «أقليات» الداخل على حساب «الدولة الإسلامية» ومصالح المسلمين، وذلك في سبيل تحقيق المزيد من التفوق. ففيما خرقت «الامتيازات» نظام الملة العثماني وأمنت لغير المسلمين وضع «أقلية» تحت الحماية

الأجنبية^(٤٧)، أعلنت «التنظيمات العثمانية»، التي أكدت على بقاء سريان مفعول «الامتيازات»، على مساواة غير المسلمين بالمسلمين مع احتفاظ الأولين بوضعهم المميز (إدراة ذاتية، ثقافة وتعليم، إعفاء من التجنيد لقاء «بدل») تحت الحماية الأجنبية^(٤٨).

وقد سبق «التنظيمات» ورافقها اختراق أوروبا للاقتصاد الإسلامي في بلاد الشام، وقيام المسيحيين المحليين بدور بارز في هذا المجال تجارةً ووسطاءً^(٤٩)، وهو الذي نقل التباعد الإسلامي - المسيحي من إطاره الأيديولوجي إلى الاجتماعي - الاقتصادي وزاد من التوتر بين الطرفين^(٥٠). وقد اعتبر المسلمون أن «التنظيمات» كانت الثمن الذي دفعه السلطان العثماني لاستعادة منطقتهم (١٨٤٠) بواسطة المدفع الأوروبي المسيحي (بريطانيا وفرنسا)^(٥١) ولمنع «الدب الروسي» من افتراض مناطق جديدة له في حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦)^(٥٢). ولهذا، ساد استياء عام بين مسلمي بلاد الشام بعد عام ١٨٣٩، حيث إنّ اعتبار المثقفون منهم أن الإصلاحات قد أخلت بالتوازن الاجتماعي القائم لمصلحتهم، فيما رأت عامتهم أن كل ما يصيّبه المسيحيون من تقدم أو امتياز إنما يأتي إليهم عن طريق أوروبا^(٥٣). ولهذا السبب أيضاً، اعتبر المسلمون «التنظيمات» خيانة للإسلام وأن السلطان عبد المجيد الأول، الذي أصدرها، ليس سوى «خائن» خسر بفعلته هذه ولاءهم وأن بلادهم لم تعد تحت نفوذه الفعلي بسبب تنازله غير الشرعي أمام المسيحيين^(٥٤).

أدى هذا الاحتقار إلى ردات فعل إسلامية في مدن بلاد الشام طوال الأربعينات مروراً بـ«خطي هيمایون» (١٨٥٦)، بدءاً بحادثة دمشق عام ١٨٤٠^(٥٥) وحادثتي حلب ونابلس على التوالي عامي ١٨٥٠^(٥٦) و١٨٥٦. وبعد أقل من شهرين على صدور «خطي هيمایون»، قام مسلمو نابلس بتمزيق أعلام الدول الأجنبية وعلم الدولة العثمانية معها^(٥٧). وفي الناصرة، وصف أحد علمائها «التنظيمات» التي أصدرها السلطان بأنها «كلام تخريف»^(٥٨). وبعد قليل على ذلك (١٨٦٠)، اندلعت الحرب الأهلية في «سوريا» والذي كان هذا الاحتقار الطوائفي - الاجتماعي - الاقتصادي أحد مسبباتها غير المباشرة^(٥٩). وإثر ذلك، قامت السلطات العثمانية باعتقال عدد من العلماء المسلمين بتهمة التحرير ضد المذابح في دمشق. كما عملت على إضعاف نفوذ الهيئة الدينية في مجالات التعليم والقضاء والأوقاف^(٦٠)، وعينت قضاة من أصل تركي^(٦١). ولهذا، كان من الطبيعي أن يُردد مسلمو بلاد الشام صيحات الفرج بـ«أن الإسلام قد أنقذ»، عندما توفي السلطان عبد المجيد عام ١٨٦١^(٦٢).

وهكذا أدت «التنظيمات» والتنازل العثماني أمام الغرب إلى مواقف إسلامية في بلاد

الشام مسيرة من الحكم العثماني ومتمسكة به في الوقت نفسه. وعندما أخذ السلاطين العثمانيون يطرحون أنفسهم خلفاء منذ عصر السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦)^(٦٣)، برزت مسألة جديدة حول إشكالية قرشية الخلافة وأحقية السلاطين العثمانيين فيها، والتي سوف تتبlier فيما بعد بشكل خاص على يد عبد الرحمن الكواكبي من خلال طرحة مسألة «إعادة تعريب» الخلافة الإسلامية^(٦٤).

إن التشديد على أحقيبة العرب في الخلافة كان يحمل معه مسألة الفوارق الجنسية بينهم وبين العثمانيين. وبعد رحلة طويلة لها في بلاد الشام أواخر الستينات من القرن التاسع عشر، أكدت السيدة إيزابيل بورتون أن المسلمين السوريين «... يكرهون الحكم العثماني ويرغبون في التحرر من طغيانه». وأضافت تقول : «إن المسلمين الأتراك يحتقرن المسلمين العرب وإن الآخرين يبغضون الأولين»^(٦٥). وفي نهاية عام ١٨٧٦ شنت صحف عربية في لندن حملة على العثمانيين متهمة إياهم باغتصاب الخلافة من العرب وطالبت بأن تعود هذه من جديد إلى أصحاب الحق فيها^(٦٦). وبعد أعوام قليلة (١٨٨٠-١٨٨١)، ظهرت في بيروت ومدن سوريا أخرى مناشير ثورية اعتبرت إدعاء السلطان العثماني بالخلافة اغتصاباً للحق العربي فيها^(٦٧)، فيما ذكرت مقالة صحافية في لندن أن العرب يرفضون الخلافة العثمانية، إذ يعتبرون أن الدين الإسلامي هو دين عربي وأن الرسول (صلعم) هو عربي أيضاً. واتهمت تلك الصحيفة العثمانيين باغتصاب الخلافة من العرب بالقوة ودعت إلى إعادة تعريب هذا المنصب وحثت العرب على الشورة ضد العثمانيين عند أول مناسبة^(٦٨). وسبق ذلك (١٨٥٨)، تقرير لـ «سكين»، قنصل بريطانيا في حلب، ذكر فيه أن المسلمين في شمال سوريا يرغبون في التحرر من الحكم العثماني وإنشاء دولة عربية برئاسة أشراف مكة^(٦٩).

إن السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هل كان مسلمو بلاد الشام يبتعدون بالفعل عن الرابطة العثمانية ويسيرون في اتجاه «عربي» أو في اتجاه «الوطن السوري»؟ وهل يمكن الحديث في تلك المرحلة المبكرة عن «وعي قومي» وبخاصة لدى المسلمين في بلاد الشام؟

نحن لا نشارك بعض المؤرخين في آرائهم بأن تحرك مسلمي شمال سوريا عام ١٨٥٨ كان «أقدم دعوة للتحرر من حكم الأتراك الغاشم ...»^(٧٠)، و «أن أول فكرة للاستقلال العربي عن السلطنة العثمانية ظهرت في شمال سوريا حوالي سنة ١٨٥٨»^(٧١). فلا نرى في التقرير البريطاني المذكور سوى مبالغة غير مبررة في وصف انفعالات السوريين، وهو ما سنقع عليه في التقارير البريطانية والفرنسية أواخر السبعينيات

ومطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر. فليس في التقرير أية إشارة إلى دعوة لثورة عامة بهدف التحرر من الحكم العثماني، وهو يتحدث عن «كره» المسلمين للقوات العثمانية والموظفين العثمانيين ويستند إلى افتراضات وقوع انتفاضة إسلامية وإمكانية استفادتها من فلول ما تبقى من انكشارية حلب بعد مذبحة عام ١٨٢٦^(٧٢)، دون أن يحدد حجم الانتفاضة المزعومة وفكراها وإمكاناتها. وفي تقاريره اللاحقة إلى رؤسائه لا يعود القنصل «سكنين» إلى الحديث مجدداً عن تلك الانتفاضة، مما يدل على احتمال استناد تقريره الأول إلى شائعات أو إلى معلومات غير دقيقة^(٧٣). إضافة إلى ذلك، فنحن لا نعتقد بتوفير محركات ثقافية - فكرية وقوى اجتماعية في المرحلة موضوع البحث يمكنها أن تقدم نظرياً وعملياً إطاراً لمفهوم «دولة» منفصلة عن السلطنة. وعلى العموم، فباعتقادنا أن المسألة كلها لا تعود مجرد تذمر من ظلم أو قهر أو استياء نتيجة لما سببته «التنظيمات» وأحداث كريت^(٧٤) وحادثة جدة^(٧٥) من نكمة إسلامية على الحكم العثماني، وهو ما يؤكد عليه تقرير سكين السالف الذكر.

أما لماذا اختير أشراف مكة ليكونوا على رأس الدولة العربية المزعومة، إذا افترضينا جدلاً صحة المعلومات حول مشروع الدولة العربية، فهذا يعود إلى سمعة أشراف مكة في العالمين العربي والإسلامي لأنحدارهم من نسل الرسول (صلعم) وإشرافهم على الأماكن المقدسة في الحجاز^(٧٦). كذلك، كان لثورة الشريف عبدالمطلب ضد السلطنة بين عامي ١٨٥٣ و١٨٥٦ وإعلانه الجهاد ضدها بحججة تبنيها إصلاحات لا تنسمج مع الشريعة ولغايتها الرق^(٧٧) صدى واسعاً في بلاد الشام، حيث أجرى الشريف المذكور اتصالات بأعيان البلاد ومنهم الأميرين عبد القادر الجزائري ومحمد أرسلان ومع الحاج حسين بيهم^(٧٨).

إن الحديث عن انفصال العرب المسلمين أو السوريين عن السلطنة العثمانية في هذه المرحلة المبكرة يطرح معه تساؤلات حول إمكانية صمود «كيان» عربي أو «سوري إسلامي» تجاه الخارج، هذا إذا سلمنا بتوافر مقومات صموده من الداخل. فمنذ أربعينيات القرن التاسع عشر، وفي ضوء اندفاع حركة الاستعمار في البلدان الآسيوية والإفريقية، أخذ المسلمون يسعون إلى تعزيز مكانة الإسلام لمقاومة نفوذ الغرب المسيحي. ولهذا، لم يكن في مصلحة مسلمي بلاد الشام الانفصال عن السلطنة أو المساهمة في تدميرها وهي القوة الإسلامية الوحيدة المتبقية^(٧٩). لقد كانت «يقطنهم» في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عبارة عن محاولة إصلاح السلطنة أجهزة وعلاقات^(٨٠) والتعايش في الوقت نفسه مع مساوى الحكم العثماني والإبقاء على الولاء

له كدرع يقيهم - رغم ضعفه - من تعديات الاستعمار.

وينقل المؤرخ ألبرت حوراني عن فن (Finn)، قنصل بريطانيا في القدس، طرحة أواخر الستينيات من القرن الماضي تلك الإشكالية التي جمعت بين تأكيد العرب على قرشية الخلافة وبين تمسكهم بالحكم العثماني كخلافة إسلامية رغم كراهيتهم له، فيقول: «إن هؤلاء العرب لا يمكنهم أن يفهموا كيف يكون سلطان الأتراك الأغرب القادمين من بلاد التتر خليفة للنبي العربي القرشي محمد، وكيف يكون له سلطته لتنصيب شريف مكة وإقالته. وهم»، يضيف فن، «يُعبرون بأساليب شتى عن استنكارهم لمطلب العثمانيين في الخلافة، منها طريقة لفظهم للقب «خان» الذي يحمله السلطان بحيث يبدو كأنه من مشتقات فعل «خان...». ثم يستدرك هذا المراقب، فيقول: «... إنهم (العرب) يمقتون الأتراك ويكرهونهم منذ الفتح العثماني لبلاد العرب. ويعود هذا العداء»، يضيف فن، «إلى الفرق في الجنس وإلى ذكريات الفتح المتواترة. إلا أن ولاءهم للإسلام (العرب) هو من القوة بحيث يقضي في قلوبهم على أي شعور آخر. فالسلطان في نظر العرب المثقفين خليفة بواقع الحال، لا بل خليفة شرعي. لذلك، يعترفون به ويطيعونه قياماً منهم بواجب ديني»^(٨١).

وبالفعل، فقد حاول بعض المثقفين المسلمين آنذاك تبرير الأسباب التي توجب القبول بالخلافة العثمانية ومنها عدم وجود قرشي مؤهل لمنصب الخليفة، ومعنى ذلك أنه يجب أن تُمنح إلى الأكثر صلاحية لها، أي إلى السلطان العثماني، وأن السلطان سليم الأول قد انتقلت إليه الخلافة الإسلامية شرعاً أثناء وجوده في مصر عام ١٥١٧ عبر آخر الخلفاء العباسين^(٨٢).

وحول اتجاهات الرابطة العثمانية، كتب الشيخ محمد الأسir في حينه ما يلي : «إن طاعة السلطان مقرونة بطاعة الرحمن، فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر وإذا جار كان عليه الأجر وعلى الرعية الصبر وإن الدعاة للسلطان من أعظم العبادات لأنه من النفع العام، لأنه بعده تنتعش البلاد وتعتاش العباد وتصلح الأمور وينتفي الظلم والفحور...»^(٨٣). وبعد اعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني العرش كتبت «ثمرات الفنون» تصف السلطان الجديد بأنه «... ظل الله الظليل في العالم. وخليفته في أرضه على جميعبني آدم . ومورد مشارع أحكماته المشروعة. ومصدر ما يحمل على الأمم من الشرائع الموضوعة. ولسان كلمته في تنفيذ كل أمر. ورسول شريعته في كل عصر... فلا جرم كانت طاعته فرض عين . وعدم مخالفته مجمع على وجوبه بلا مين... كما أن الخروج عن السنن محظوظ»^(٨٤).

وأثناء الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨)، وفي ضوء انهيار السلطنة عسكرياً، ساد بلاد الشام قلق عميق على مصير السلطنة ومنطقتهم. فخططت أعيان مسلمون (حركة الأعيان) للمرة الأولى لمشروع استقلال ذاتي أو تأم عن الدولة العثمانية تدعى أي تحرك إسلامي سابق. وفي الوقت نفسه، بدأت طروحات المسيحيين تتبلور في إطار مشروعين: كونفيدرالية سورية على النسق الألماني (مشروع يوسف كرم) واستقلال ذاتي لسوريا مع متصرفية جبل لبنان (مشروع جمعية بيروت السورية)، متراوفة مع ما أشيع عن مشروع «خديوية سورية» مدعومة من بريطانيا برئاسة والي سوريا مدحت باشا. أين كان يقف المسلمون من هذه المشاريع؟ وإلى أي مدى انسجمت طروحات حركة الأعيان المسلمين أو تناقضت مع اتجاهات «الوطن السوري» و«الكونفيدرالية السورية» و«الخديوية السورية»؟ وأي دور لعبه الإسلام في تحديد توجهات العرب المسلمين في بلاد الشام وخياراتهم؟ وماذا كانت نتيجة السباق بين «الوطن السوري» و«الرابطة العثمانية» (الإسلام) عند مسلمي بلاد الشام أثناء الحرب الروسية - العثمانية المذكورة وفي أعقابها؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في الصفحات الآتية.

ثانياً: حركة الأعيان المسلمين (١٨٧٧-١٨٧٨):

مشروع استقلالي أم تحرك احترازي؟

باندلاع الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨)، دخلت بلاد الشام في دوامتها، حيث طرحت هزائم السلطنة على يد روسيا احتمالات انهيارها واستيلاء الدول الكبرى على ممتلكاتها (= حل المسألة الشرقية). وتشير التقارير الدبلوماسية البريطانية أن لندن كانت تفكّر أثناء الحرب المذكورة بالاستحواذ على «سوريا» واستخدامها قاعدة لها في المنطقة، وذلك حفاظاً على مصالحها في الشرق الأدنى، وأن روسيا، بعدما حققت انتصارات حاسمة على السلطنة أواخر عام ١٨٧٧ ومطلع العام التالي، كانت تخطط بدورها للاستيلاء على آسيا الصغرى والاندفاع منها برأ نحو خليج الإسكندرية^(٨٥).

ومن جهة أخرى، تتحدث التقارير الفرنسية عن أن الحرب الروسية - العثمانية المذكورة قد أحبت لدى السوريين الآمال في نوع من الاستقلال الذاتي^(٨٦). ويؤكد عادل الصلح^(٨٧)، الذي أرخ عن والده منح، أن هزائم السلطنة العسكرية أمام روسيا سببت قلقاً عميقاً لدى المسلمين في بلاد الشام «... على مصير بلدتهم» وجعلت أعيانهم من الطائفتين السنوية والشيعية (منح الصلح، الشيخ أحمد عباس الأزهري، الحاج

إبراهيم الجوهرى، الحاج حسين بيهى، السيد محمد الأمين، الشيخ علي الحر، الحاج علي عسيران، شبيب باشا الأسعد وغيرهم) يتداولون بزعمامة أحمد باشا الصلح مسألة إعلان استقلال ذاتي أو تام في «سوريا» لتجنب وطنهم المصير السيء ومن أذيع صوره وقوع احتلال أجنبي». ويضيف الصلح، إن حركة الأعيان تزامنت مع نمو مضطرب للوعي «القومي» في «سوريا» وصل ذروته بعدد هؤلاء الأعيان مؤتمراً لهم بدمشق في منزل مفتتها المتوفى حسن تقى الدين الحصني وقوع اختيارهم على الأمير عبد القادر الجزائري نزيل دمشق آنذاك ليكون ملكاً على «سوريا».

□ حركة الأعيان بين الحقيقة والنفي

باستثناء رواية عادل الصلح الشفهية عن والده منح، فإن المعلومات حول حركة الأعيان المسلمين لا ترد مباشرة سوى في مؤلفين إثنين، وهما كتاب «أعيان الشيعة» للسيد محسن الأمين^(٨٨)، وفي «تاريخ جبل عامل» لمحمد جابر آل صفا^(٨٩). وهناك إشارات في الوثائق الفرنسية إلى ظهور مشاعر استقلال ذاتي في «سوريا» أثناء الحرب الروسية- العثمانية الأخيرة^(٩٠) يفترض أن حركة الأعيان كانت تقف وراءها، ذلك أن أحداً، أو جمعية ما لم تعلن عن نفسها حينذاك (١٨٧٧-١٨٧٨) صاحبة لمشروع كهذا.

وبالمقابل، ينفي علي الزين حدوث ما يسمى بـ«مؤتمر دمشق»، مما ينسف أساساً وجود حركة الأعيان، وقد استند الزين في معرض نفيه وجود الحركة إلى أسباب عدة وهي^(٩١):

- عدم تطرق المؤلفات المعاصرة إلى مؤتمر دمشق،
- عدم وجود اتجاهات «وطنية» أو نزعات «قومية» لدى مسلمي بلاد الشام يجعلهم يفكرون في الاستقلال وتكون إمارات صغيرة لا تستطيع الصمود في وجه الاستعمار الأجنبي، في وقت كان فيه تيار الجامعة الإسلامية يشد المسلمين إلى دار الخلافة،
- إن الزعماء المسلمين الذين وردت إسماؤهم كأعضاء في حركة الأعيان كانوا من «أضعف الأعيان شعبيّة»، وذلك في معرض الإشارة إلى الشيعة الذين شاركوا في حركة الأعيان،
- عدم حدوث ما يسمى بـ«مؤتمر دمشق» الذي جمع الأعيان، لأن مؤتمراً على هذا القدر من الأهمية كان يجب أن يعقد في دارة الأمير عبد القادر بدمشق، أو أن يحضره بنفسه على الأقل أو يرسل من ينوب عنه فيه،

- سياسة اللين التي مارستها السلطة العثمانية بعد اكتشافها الحركة والإكتفاء بنفي السيد محمد الأمين وعدم إعدام المتأمرين.

وفي معرض نفي الزين تداول المصادر والمذكرات المعاصرة لمؤتمر دمشق، يرى المؤرخ وجيه كوثرياني أن «... تصاعد موجة الاستبداد الحميدي عبر جهاز الاستخبارات والجاسوسية» جعل استحالة نقل المذكرات والتراجم المعاصرة هذه الاتجاهات الفكرية - السياسية التي يصفها بـ «الجيشان الفكري - السياسي» نتيجة للحرب الروسية - العثمانية^(٩٢). أما المؤرخ محمد سعيد بسام ، فيقول حول تلك المسألة : «إن إخضاع الروايات عن هذا الحدث (حركة الأعيان) للمضوابط المنهجية العلمية في التاريخ يجعلنا نأخذ بصحبة حدوث هذه الحركة ١٠٠ إن تطور الأحداث في الدولة العثمانية من الفساد الإداري إلى التهديد للوجود الكياني كان ممكناً أن يتحول العمل الإصلاحي من دعوات نوعية على أيدي مصلحين إسلاميين إلى 'حركات' إصلاحية سياسية وحتى استقلالية كالحركة التي نحن بصددها». «فهذه الحركة»، يضيف بسام ، «لم تكن في غير مناخها»^(٩٣). وعن هذا «المناخ» دون ذكر الحركة مباشرة ، يؤكد قنصل فرنسا العام في بيروت «أن طموح السوريين إلى نوع من الاستقلال الذاتي يعود بشكل مباشر إلى فترة السيطرة الموقته لولي مصر (محمد علي). ولكي تأخذ هذه الطموحات طابعاً جدياً»، يضيف القنصل العام ، «كان لا بد من حصول أحداث ذات أهمية خاصة. إن الحرب الروسية - التركية والتفككالجزئي للإمبراطورية العثمانية الذي تلاها كان لهاما أثر كبير في تحول هذه الطموحات الغامضة إلى آمال أكثر وضوحاً وقوة»^(٩٤). إن سبب عدم تسمية القنصل الفرنسي العام حركة الأعيان بالإسم كمسؤولة عن هذه «الطموحات» يعود إلى خلط القنصل المذكور بين حركة الأعيان المسلمين وبين «جمعية بيروت السرية»، وهو ما أكد عليه كوثرياني من خلال إطلاعه على الأرشيف الفرنسي^(٩٥).

إضافة إلى ذلك ، فإن تحركات «القوميات» الإسلامية الأخرى في السلطنة أثناء الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة وفي أعقابها (الحجاز ، كردستان ، «ألبانيا») تحملنا على الاعتقاد بصحبة حدوث حركة الأعيان المسلمين. فلماذا تؤثر الحرب المذكورة ونتائجها على بقية مسلمي السلطنة (ومصر أيضاً) ، فيما يبقى مسلمو بلاد الشام يمنى عنها ، خصوصاً وأن المستوى الثقافي - الفكري والنضج السياسي في تلك المنطقة وجود فئة إسلامية مدينية كان يجعل مسلمي بلاد الشام أكثر استجابة لنتائج تلك الحرب من الحجاز وكردستان؟

نحن نتفق مع الزين في قوله : « . . . إن قادة العرب المسلمين - في تلك الأيام العصبية - لم يكن فيهم من يفكّر باستقلال سوريا أو في فصل(ها) عن جسم الدولة العثمانية وتجزئه البلاد إلى إمارات ودوليات صغيرة يسهل على الدول الأجنبية الطامعة في بلادهم أن يستولوا عليها قطرأً بعد قطر»^(٩٦). لكن فترة «الجيشان الفكري - السياسي» في بلاد الشام خصوصاً أثناء ولاية باشا (شباط ١٨٧٧ - حزيران ١٨٧٧)^(٩٧) والمشير عمر فوزي باشا (بالوكالة من حزيران ١٨٧٧ إلى آذار ١٨٧٨)^(٩٨) مروراً بولاية جودت باشا (آذار ١٨٧٨ إلى تشرين الثاني ١٨٧٨)^(٩٩)، أبرزت الكثير من التناقضات بين العرب السوريين وبين العثمانيين نتيجة لاستبداد الحكم وفساد إدارته والمطالبة بإصلاحات وإعطاء البلاد قدرأً من الحرية المدنية والسياسية^(١٠٠). وقد بلغ «الجيشان الفكري - السياسي» ذروته باحتمالاته انهيار السلطنة نتيجة لخسارتها العسكرية أمام روسيا .

وعلى الرغم مما تقدم، يجب النظر إلى حركة الأعيان في إطار الجو السياسي الإسلامي العام في «سوريا» المتمسك بالكيان العثماني ضماناً لسلامته من أطماع الغرب والمطالب في الوقت نفسه بإصلاحات^(١٠١). يقول عادل الصلح : «فلما داهم الدولة العثمانية خطر التفكك والانحلال، عقب إنكسارها في الحرب الروسية، لم ير هؤلاء (الأعيان) بدأ من العمل لهذا الغرض» (الاستقلال الذاتي). ويضيف قائلاً: «ويجدر التنويه بأن الروحية العامة المسيطرة على ذلك المؤتمر (مؤتمر دمشق) لم تكن النقطة على إستانبول دار الخلافة، والرغبة في الانتقاد منها بقدر ما كان الخوف من وقوع البلدان العربية في يد القوى الأجنبية الغربية. فالذين اجتمعوا (في دمشق) كانوا بأكثرتهم على الأقل، من المشفقين على الرابطة العثمانية من أن تزول»^(١٠٢). ويخلص الصلح إلى القول : «ولم تكن حركة (الأعيان) يشيرها الحقد على الخلافة (العثمانية)، ولا دعوة تسوقها يد غريبة ذات أغراض وأطماع، بل كانت محاولة أهلية أصيلة صافية . . .»^(١٠٣). وللدليل على ذلك، تلاشى الحركة^(١٠٤) في أعقاب صدور مقررات معاهدة برلين (١٨٧٨) التي ضمنت استمرار الدولة العثمانية على قيد الحياة^(١٠٥).

أما قول الزين بأن أي قطر عربي لم يكن يفكر في الاستقلال عن السلطنة، فسوف يظهر الفصل الثالث من الكتاب أن حسين، أمير مكة، كان يخطط خلال عامي ١٨٧٩ و ١٨٨٠ للإنفصال عن السلطنة وتأسيس خلافة عربية في الحجاز بدعم بريطاني . وقد قام الشريف المذكور بالاتصال بزعamas سوريا وكردية على الأقل في سبيل تنفيذ مشروعه^(١٠٦).

ويشأن المشاركين في حركة الأعيان المسلمين، فلا نجدهم «أضعف الأعيان شعبية» كما يصفهم الزين. ويعلق المستشرق الألماني «فريتز شتبت»، الذي كان أول من أرخ لحركة الأعيان^(١٠٧) بعد عام على صدور كتاب عادل الصلح وتناول نفوذ الأعيان وجذورهم العائلية، على هذه المسألة بالقول: «... إن معظم المشاركين في الحركة (الأعيان) كانوا من عائلات رفيعة المستوى اعتمد نفوذها على المكانة الإقطاعية القديمة والانتماء التقليدي إلى طبقة العلماء والثروة نتيجة للأعمال التجارية، أو من خلال العلاقة مع الدولة العثمانية»^(١٠٨). ولعل الإشارة إلى تراجم الأعيان المشاركين في الحركة، والتي سنعرج عليها بعد قليل، تلقي بعض الضوء على مكانة هؤلاء ونفوذهم^(١٠٩).

إن نفي الزين انعقاد مؤتمر الأعيان في دمشق بسبب أنه لم يعقد في دارة الأمير عبد القادر وإن الأخير لم يشارك في جلساته بمترزل المفتى الحصني ولم يُرسل إليه من يمثله فيه الخ... لا يعني بالضرورة أن المؤتمر المذكور لم ينعقد أساساً، أو أنه يمكن استخدام هذه الحجج لنفي انعقاده. فمن الطبيعي ألا يُعقد المؤتمر في دارة الأمير ولا بحضوره أو إرسال من يمثله فيه، لأن المؤتمرين كانوا سيناقشون معاً مسألة ترشيحه للمنصب (عرش سوريا)، وقد يتداولون أسماء أخرى غير إسمه مما قد يسبب إحراجاً لهم ولمكانة الأمير، خصوصاً أن إسمه كان متداولاً منذ الستينيات في مشاريع فرنسية لفصل بلاد الشام عن السلطنة وإقامة دولة عربية - إسلامية برئاسته^(١١٠). يقول عادل الصلح، إنه خلال مؤتمر دمشق قدم جده أحمد باشا الصلح «اقتراحًا بترشح الأمير عبد القادر الجزائري ليتولى الملك على هذه البلاد. فوافق المجتمعون على هذا الاقتراح ويتكلف من المؤتمر حمل جدي القرار إلى الأمير»^(١١١). ويصف جابر آل صفا تلك الحادثة على الشكل التالي: «وقد أقرّ المؤتمرون اختيار الأمير عبد القادر الجزائري (نزيل دمشق) أميراً على سوريا. ونقل القرار للأمير المغفور له أحمد باشا الصلح...»^(١١٢). ويُستنتج من ذلك، أن المشاركين في مؤتمر دمشق قد تداولوا معاً اقتراح أحمد الصلح بترشح الجزائري لهذا المنصب وأن امتناع الأخير عن حضور جلسات النقاش في المؤتمر قد يكون لتجنب إحراج نفسه والمؤتمرين معه وإعطاء الانطباع بأنه يفرض نفسه عليهم. وقد يكون الأمير حرص على عدم انعقاد المؤتمر في دارته والذي حضرته نحو ثلاثة شخصية كي لا يشير شكوك السلطات العثمانية أو الاصطدام بها، كما حصل خلال ولاية أحمد حمدي باشا الثانية على سوريا (١٨٨٠ - ١٨٨٥)^(١١٣). ومن المحتمل أيضاً، أن الأمير أراد ألا يُحرج نفسه أمام يوسف كرم،

الذي كان يجري بدوره إتصالات معه عبر وسيط بشأن إنشاء كونفيدرالية سورية^(١١٤).

ثم يتسائل الزين، كيف أن «مؤتمر دمشق» وتحرك الأعيان ظل خفيًا عن أعين السلطان العثماني وأجهزته. ويضيف متسائلاً هل من المعقول أن تغض الحكومة نظرها عن الأعيان وتكتفي بتنفي واحد منهم إلى طرابلس^(١١٥)، وهو السيد محمد الأمين^(١١٦). ويقصد الزين بهذا القول إن حجم «المؤامرة» لم يكن بمستوى الرد العثماني وبخاصة في عصر السلطان عبد الحميد الثاني. والواقع، إن الوالي العثماني جودت باشا قام بعد مؤتمر دمشق بوضع كل من أحمد باشا الصلح وولده منح وآخرين من الأعيان في الإقامة الجبرية^(١١٧) ومنع أي اتصال بين الأمير عبد القادر وأحمد الصلح^(١١٨). وبعد عزل الوالي جودت باشا ومجيء مدحت باشا خلفاً له، أراد هذا الأخير أن يبدأ عهده بإشاعة جو من الحرية والهدوء في البلاد، فعمل على مصالحة الأعيان مع الباب العالي. وقد قام مدحت باشا بزيارة أحمد الصلح في منزله (الإقامة الجبرية) وعمل على إعادة التقارب بين الأعيان والسلطة العثمانية. كذلك، لئن مدحت باشا دعوة الحاج حسين بهم بزيارته في منزله^(١١٩). ومن جهته، زار منح الصلح مدحت باشا في دمشق وعقد معه محادثات سياسية برر خلالها أسباب قيام حركة الأعيان لظروف الحرب الروسية - العثمانية، وفوق كل شيء خشية الأعيان من قيام الدول الاستعمارية باحتلال بلاد الشام^(١٢٠). وفي ضوء زوال هذه المخاوف نتيجة لبنود معاهدة برلين، أبلغ منح الصلح الوالي الجديد بثقة الناس بنوايا السلطان الحسنة، وبخاصة إرساله لرجل دولة ليبرالي مشهور (مدحت باشا) ليكون ولياً على سوريا، وأنه نتيجة لذلك، لم يعد هناك ما يُبرر استمرار حركة الأعيان. وهكذا، مكنت وساطة مدحت باشا بين الأعيان والباب العالي من إيقاف الملاحقات ضدهم مما أشعّ جواً من الطمأنينة والهدوء في البلاد^(١٢١).

وعلى كل حال، فإن إيقاف الملاحقات بحق الأعيان المسلمين كان ينسجم مع سياسة السلطان عبد الحميد الإسلامية (الجامعة الإسلامية) التي سار فيها في أعقاب الحرب ضد روسيا. وقد قامت هذه السياسة على تسخير قوى الإسلام من علماء ورجال دين ومتصوفين وأعيان وجمahir في سبيل تثبيت نظام حكمه في الداخل وتجاه الخارج (أوروبا). وقد تقرب السلطان إلى الأعيان المسلمين في بلاد الشام من مدنيين ورجال دين ومنحهم المناصب والامتيازات^(١٢٢). ومن المؤكد أن العفو عن الأعيان كان يندرج ضمن هذه السياسة .

□ المشاركون في حركة الأعيان

١- أحمد باشا الصلح (حوالي ١٨١٠ - ١٨٩٣)^(١٢٣). أبرز أفراد عائلة الصلح السنية المغربية الأصل وزعيم حركة الأعيان المسلمين. إستوطنت أسرته صيدا ومارست التجارة وعملت في الزراعة. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، أخذت أسرة الصلح توطن نفوذها في بيروت. وقد عمل أحمد الصلح مستشاراً في الجيوش العثمانية التي أتت إلى بلاد الشام لمحاربة محمد علي باشا، ثم تولى وظيفة الترجمة ومديرية سياسة العشائر في بيروت (١٨٤٠)، مركز إبالة صيدا. ويسبب اتهامه من قبل القناعات الأجنبية وجهات محلية بأنه أعد للمذايحة ضد المسيحيين عام ١٨٦٠، ثُمّي إلى جزيرة رودس. وبعد ذلك عُين متصرفاً وسنقاً لمرات عدة على اللاذقية وعكا، وكان أحد خمسة من كبار رجالات الدولة العثمانية الذين اجتمعوا في دمشق لبحث النفوذ الأجنبي في البلاد من خلال تدخل القناعات في الشؤون الداخلية لبلاد الشام. وقد ارتبط الصلح بصداقات مع الأسر الدينية في دمشق ومنها عائلة حسن تقى الدين الحصني، مفتى دمشق ونقيب أشرافها، والتي تزوج منها، وكذلك مع عائلات دينية من أشراف جبل عامل وسادته. ويصف جابر آل صفا أحمد الصلح بأنه كان «أول من قرب بين الطائفتين الشقيقتين السنة والشيعة وعمل على محو التعصب الذميم ونبذ التفرقة والمذهبية ...»^(١٢٤). وقد أنجب الصلح ثلاثة أبناء، الأكبر كامل، الذي عمل قاضياً في البلقان وطرابلس(ليبيا) وعُين فيما بعد في «لجنة بيروت الإصلاحية». وكان محمود منح الابن الثاني وسيأتي ذكره بعد قليل. أما رضا ، فدرس في «المدرسة الوطنية» للبساطاني، ثم تخرج من الكلية السورية الانجليزية. عمل في سلك العدالة وعُين عام ١٩٠٩ نائباً عن بيروت في البرلمان العثماني. وكان آخر عمل له في سلك العدالة، حيث رأس محكمة الاستئناف في بيروت^(١٢٥).

٢- محمود منح الصلح (١٨٥٦- ١٩٢٠)^(١٢٦). ابن أحمد الصلح. تلقى علومه في «المدرسة الوطنية». عُين قاضياً في بيروت وكان مقرباً من الأمير عبد القادر الجزائري وكاد أن يتزوج ابنته لولا وفاتها المفاجئة. صاهر أسرة رمضان البشري البارزة، مما ساعده على توطيد مركزه السياسي، فأصبح عضواً في مجلس ولاية بيروت. وقد وصفه جابر آل صفا بـ «العقل المدبر لكثير من شؤون التحرّك السياسي المنهض والمتحرك للفكرة العربية والنزاعات الاستقلالية». وفي مخطوطته غير المنشورة يقول عنه جابر آل صفا، إنه «كان نسيج وحده في سمو الفكر ورجاحة العقل وقد أجمع عارفوه أن سوريا لم تنجب رجلاً أوفى ذكاء وفطنة وأرق حداً وأرحب صدراً وأبرع

سياسة . . . وكان ملجأً للمنكوبين من أبناء جبل عامل ومحامياً عن حقوقهم وإنجاز مطالبيهم من خلال وظائفه في مجالس الإدارة ومحاكم العدلية في بيروت^(١٢٧). إنسب إلى المحفل الماسوني في بيروت .

٣- الشیخ احمد عباس الأزهري (١٨٥٣ - ١٩٢٧)^(١٢٨). عالم سني من بيروت مصری الأصل. درس في جامعة الأزهر بالقاهرة حتى عام ١٨٧٤ ، حيث التقى هناك كلاً من الشیخ محمد عبد السيد جمال الدين الأفغاني. وقد قام الأزهري بالتدريس في «المدرسة الوطنية» في بيروت، وبعد ذلك في مدارس جمعية المقاصد. وفي عام ١٨٩٥ أسس الأزهري «الكلية العثمانية» التي اشتهرت بتسامحها تجاه طلابها غير المسلمين ويادخالها تعليم اللغات الأجنبية والعلوم التجارية في مناهجها. وقد ضمت مدرسته قسماً داخلياً حوى طلاباً من البلدان العربية والإسلامية. وكان لكلية الشیخ عباس علاقات مميزة مع كل من فرنسا وألمانيا، حيث أُعترف بشهاداتها في معاهد فرنسا العليا وحصل طلابها على منح دراسية من الحكومة الفرنسية، فيما زارت ألمانيا الكلية المذكورة بمدرس اللغة الألمانية. وقد تحولت مدرسة الشیخ عباس فيما بعد إلى «مدرسة وطنية» ذات نزعة استقلالية ضمت نخبة من رواد الإصلاح الذين واجهوا سياسة التتریک، كعبد الغنی العریسی وعمر حمد وغيرهما^(١٢٩). إنضم إلى المحفل الماسوني في بيروت .

٤- السيد محمد الأمین بن علي الحسيني (الثاني) (١٨١٢ - ١٨٨٠)^(١٣٠). عالم شیعي من شقراء ومن أسرة تنتمي إلى الأشراف. عین في البداية مفتیاً عن أبيه لبلاد بشارة (جبل عامل). وقد اشتهر بعدم سکوتھ عن الظلم وكان في نزاع مع بعض الولاة العثمانيين وأمراء البلاد. تُوفي إلى طرابلس لمدة ثلاثة سنوات بسبب مشاركته في حركة الأعيان واتصالاته بالأمير عبد القادر الجزائري، التي أثارت الشبهات حوله لدى السلطات المحلية العثمانية^(١٣١). وصفه جابر آل صفا بـ «العالم الجليل من الأشراف الحسينيين سكان شقراء - جبل عامل»^(١٣٢)، في حين يذكر عادل الصلبح بأنه كان «... من أكبر زعماء البلاد الشامية وذوي الرأي النافذ فيها»^(١٣٣) .

٥- الشیخ علي بن احمد المحر الجباعي (... - ١٩٠٣)^(١٣٤) عالم شیعي من أسرة عملت في مجال القضاء بجبل عامل.قرأ في جماعة على يد الفقيه الشیخ عبد الله نعمة. ذاع صيته عام ١٨٦٠ لحماية مسيحيين في منزله بجماع .

٦- الحاج علي عسیران (ت حوالي ١٩٠٤)^(١٣٥). ابن الوجیه حسین عسیران، الذي عمل قنصلاً لإیران في صیدا و «شهبندراً» على الإیرانیین في المدينة نفسها زمان

السلطان عبد العجيد الأول. وبسبب ذلك، أصبحت لوالده مكانة لدى الحكماء لاستفادته من نظام «الامتيازات». إمتلك عقارات كثيرة في صيدا، لكن السلطات العثمانية صادرتها. وبعد وفاته، توجه ابنه علي إلى الأستانة وتمكن من إسترجاع أملاك أبيه وحصل في الوقت نفسه من ناصر الدين (شاه إيران) على وظيفتي والده السابقتين في صيدا. يصفه جابر آل صفا بأنه كان «رأس الأسرة العسيرةانية»^(١٣٦).

٧- شبيب باشا الأسعد الوائلي (١٨٥٢ - ١٩١٧)^(١٣٧). من عائلة شيعية إقطاعية بارزة في جبل عامل، وهو الابن الأكبر لعلي بك الأسعد. كان أدبياً شاعراً وعلى خلاف سياسي مع أخيه ناصيف ونجيب ومع كل من قريبيه خليل الأسعد وكامل الأسعد.

وإلى جانب هذه الشخصيات الإسلامية، كان هناك الحاج إبراهيم آغا الجوهرى، رئيس بلدية صيدا لسنوات عدة^(١٣٨). كما يظهر إسم الحاج حسين بيهم ضمن تحركات الأعيان المسلمين في بيروت. ولا ندرى إذا كان بيهم قد انتسب إلى حركة الأعيان أو أنه كان صديقاً لها. ويذكر أسد رستم أن بيهم كان ماسونياً والمسلم الوحيد في «جمعية بيروت السرية»^(١٣٩). إضافة إلى ذلك، كان حسين بيهم ينتمي إلى أسرة من كبار تجار بيروت. وقد انتخب عام ١٨٧٧ عضواً في «مجلس المبعوثان» ونشط في الحركة الوطنية وكان عضواً في «الجمعية العلمية السورية»^(١٤٠).

ثالثاً: مشروع الأعيان المسلمين ويوسف كرم وعلاقة الأمير عبد القادر الجزائري بهما

مع تطور الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٨-١٨٧٧) لغير مصلحة الدولة العثمانية واضطراب أوضاعها الداخلية بتأثير الحركات القومية في البلقان وأطماع الدول الأوروبية في ممتلكاتها، ساد شعور لدى سكان بلاد الشام بأن السلطنة على وشك الانحلال. وكان هذا حافزاً لبعض أعيانهم للتحرك السري واتخاذ خطوات احترازية لمواجهة ما قد يهدد منطقتهم من أخطار، أهمها وقوعها تحت السيطرة الأجنبية. وعليه، يمكننا أن نحصر التحركات السياسية لمواجهة هذه المستجدات في اتجاهين: حركة الأعيان الساعية إلى استقلال ذاتي أو تام (مشروع إسلامي)، ومشروع يوسف كرم (١٨٢٣ - ١٨٩٣)^(١٤١) الهدف إلى كونفدرالية سورية (مشروع عربي - إسلامي). وكلاهما كان محوره الأمير عبد القادر الجزائري^(١٤٢).

بعد وصول المعلومات حول هزائم السلطنة أمام روسيا أواخر عام ١٨٧٧ ، سعى أعيان وعلماء وإقطاعيون وتجار من الطائفتين السنوية والشيعية في بيروت وجبل عامل

بزعامة أحمد باشا الصلح، مدفوعون بمشاعر الاستقلال الذاتي^(١٤٣)، وكذلك الماروني يوسف كرم، كل من ناحيته، إلى وضع تصور لمستقبل البلاد في حال انهيار الدولة نتيجة لتلك الحرب^(١٤٤). وبعد أن قضى الصلح قرابة ثلاثة شهور في وضع خطط التحرك لمشروع استقلال ذاتي أو تام لسوريا، انتقل إلى صيدا، حيث عقد محادثات مع شخصيات إسلامية هناك أبرزها الحاج إبراهيم الجوهري. ثم زار الصلح جبل عامل والتقي السيد محمد الأمين والشيخ علي الحمر. وقد أسفرت هذه الاتصالات عن لقاءات للأعيان المذكورين مع «بعض أصحاب الرأي والمكانة من رجال دمشق»، حيث لاقت فكرة الاستقلال «التحبيب والتأييد». وما لبثت هذه الفكرة أن نقلها الأعيان إلى الأمير عبد القادر الجزائري في مصيفه بدمر، حيث نقشت على مدى ثلاثة أيام متزالية مسألة ما آلت إليه الأوضاع في البلاد والوسائل الكفيلة بإنقاذهما. ويفهم من هذه المحادثات أن مشروعًا استقلاليًا لسوريا قد طُرح على بساط البحث، دون التطرق إلى الشخصية التي سوف تتولى حكم هذا الكيان^(١٤٥).

وفي أعقاب زيارته بدمر، أجرى الصلح يرفقه الشيخ الأزهري إتصالات مع زعامات إسلامية في شمال سوريا وجنبها لاستقطابها إلى المشروع المذكور ودعوتها إلى اجتماع في بيروت. فزار مع رفيقه الأزهري حلب وحمص وحماء والعشائر العلوية في اللاذقية، ثم انتقل إلى حوران وجبل الدروز للغرض نفسه وعاد إلى بيروت^(١٤٦).

وحول اجتماعات بيروت، حدثنا عادل الصلح، فقال^(١٤٧): «وفي الموعد لاجتماع بيروت^(١٤٨) حضر جدي (أحمد الصلح) إليها (بيروت)، وراح مع والدي (منح) وسائر الوافدين يعقدون الاجتماعات، وكانت كلها سرية، ويضعون الخطط الازمة، ومنها ما قد تستوجبه طوارئ عسكرية (انهيار السلطنة عسكرياً أمام روسيا)، ويتخذون القرارات التي تقتضيها الأحوال. ومكثوا على ذلك عشرين يوماً رأوا في نهايتها الانتقال إلى دمشق ثانية، وإكمال البحث والمداولة، فسافروا إليها فرادى، وتابعوا هناك اجتماعاتهم السرية في دار السيد حسن تقى الدين الحصني^(١٤٩)، الذي كان قد توفي في عام ١٨٣٠ / ١٨٣١^(١٥٠).

ضم «مؤتمر دمشق» حوالي ثلاثين شخصية إسلامية سورية^(١٥١). وقد قدم أحمد الصلح اقتراحاً بترشيح الأمير عبد القادر الجزائري ليتولى الملك على البلاد. ويحدثنا عادل الصلح عن الأسباب التي دفعت جده لترشيح الجزائري، إضافة إلى نسبة الشريف، «لأن الصفات التي تميز بها الأمير والمؤهلات التي توافرت له، تنسجم انسجاماً كاماً مع مؤهلات الرائد... ولأنه بطل قومي مجاهد، وسياسي قدير فذ، ورجل علم وأخلاق

ومكارم، ولأنه سبق وأنشأ دولة عربية قوية في بلاد المغرب الأوسط وناضل في الدفاع عنها ضد الاستعمار... واحتل بذلك في الأمة العربية مرتبة عَزَّ نظيرها^(١٥٢). وقد يكون هناك سبب آخر لوقوع الاختيار على الجزائري، وهو وجود قوة عسكرية من حاشية الأمير يمكنها أن تقدم دعماً لمشروع الأعيان، إذ يذكر «إميريت» أن الأمير كانت لديه قوة من حاشيته تقدر ما بين ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ رجل عملت فرنسا على تسليحها عشية الحرب الأهلية عام ١٨٦٠ تمهيداً لمخططاتها في «سوريا»^(١٥٣).

وعندما حمل أحمد الصلح إلى الأمير قرار المؤتمر^(١٥٤)، وافق الأخير عليه شرط الإبقاء على العلاقات الروحية مع «الخلافة العثمانية»^(١٥٥) وحصوله على البيعة من سكان بلاد الشام. ثم تم الاتفاق بين الأعيان والأمير على عدم تحديد نوع الاستقلال المنشود، ذاتي أو تام، وانتظار ما سيسفر عنه مؤتمر برلين. فـ«... إذا تبين أن إحدى الدول الأجنبية تهدف إلى الاستيلاء على بلادهم»... فلا بد من طلب الاستقلال التام. أما إذا تبين أنه ليس ثمة من عزم على احتلال البلاد، فتكون الغاية تحقيق الاستقلال الذاتي كما هي الحال في مصر وفي بعض بلاد البلقان^(١٥٦). كما تقرر في الاجتماع إرسال وفد إلى الدول الأوروبية لكتابتها لقضية الاستقلال وأن يضطلع سوريون في الخارج سراً بهذه المهمة ويقوموا بالدعابة الإعلامية لهذه القضية^(١٥٧).

وفي أعقاب مؤتمر دمشق، قام الجزائري برفاقه منح الصلح وأعيان آخرون بزيارة لمناطق بلاد الشام، صيدا وجبل عامل وعكا وبيافا والقدس ونابلس وبعلبك وغيرها^(١٥٨). وفي بنت جبيل زار الأمير الشيخ موسى شارة من كبار علماء جبل عامل. كما التقى الشيخ محمد حسين مروة، وحل ضيفاً على الحاج سليمان بزي من أعيان بنت جبيل^(١٥٩). وقد كانت هذه الزيارة لاستطلاع موقف السوريين من ترشيحه لعرش سوريا .

أما يوسف كرم، المعروف بضمومه السياسي ، والذي كان يدرك استحالة ذلك الارتباط بين جبل لبنان ومحيطه الإسلامي(سوريا) أو أن يكون الجبل مستقلاً داخل هذا المحيط، فعرض على الجزائري مشروعًا استقلاليًا على النموذج الكونفدرالي الألماني بإقامة إمارات مستقلة في بلاد الشام تخضع لحكم إسلامي برئاسة الأمير، على أن يضمن هذا الأخير مصالح المسيحيين في جبل لبنان وحربيهم الدينية^(١٦٠). فكتب إلى الأمير ما يلي^(١٦١): «ثم إذا رأتم فخامتكم أن تعين على الأقاليم العربية أمراء مستقلين يدفعون إليكم أموالاً مقررة، ويوحدون صفوفهم تحت رايتك ضد كل تهدي، قبل أن تتدخل بأمورنا الدول الأجنبية... . وهذه السياسة قد استصوتها حكومة بروسية وتمشت عليها

في نظمها جرمانيا من أقاليم مستقلة اتحدت بطريقة «الكونفедерاسيون». «نهذه الأقاليم المستقلة»، أضاف كرم، «يسهر كل إقليم منها على صيانة إمارته وترتبط مصالحه مع مصالح الحكومة الرئيسية». وطالب كرم الجزائري بوضع «... قانون يضمن للجميع الحقوق الأدبية والحرية المذهبية والاصطلاحات الطائفية وفقاً لواجبات الدين والدنيا، بل دفعاً لحريتنا الجنسية بأعمالنا الداخلية الحرة التي لم ينكرها قط أحد على شعب من الشعوب البشرية»^(١٦٢).

لكن الجزائري تريث في إعطاء كرم موافقة صريحة على مشروعه وبعث إليه عبر وسيط يقول^(١٦٣) : «... من الضرورة انتظار دخول اليونان (الحرب)^(١٦٤)، الذين بالاشتراك مع السفن الروسية التي أمرت بالدخول لبحرنا، لا بد أن يشغلوا قوة الأتراك البحرية ويعطلوا وصولهم إلينا بحراً. فبعد دخولهم»، أضاف كرم، «مع ما لا بد من ظهوره بذلك الوقت من سياسة أوروبا، نستثير نوعاً عن كيفية نهوضنا».

من الواضح إذا، أن الأمير عبد القادر الجزائري، الذي كان محور مشروع الأعيان وكرم^(١٦٥)، عمل على مواصلة الحوار مع الفريقين دون أن يعطي أيهما موافقة نهائية على مخططه. فبالنسبة للأعيان المسلمين، قرر انتظار ما سيسفر عنه مؤتمر برلين. وبالنسبة لكرم، ترقب دخول اليونان الحرب ضد الدولة العثمانية لإشغال أسطولها في البحر المتوسط ومنعه من التدخل ضد الحركة الاستقلالية في بلاد الشام. ونحن نرجح أن الأمير عبد القادر كان يفضل إجلاء الأمور بالنسبة لمصير السلطنة قبل أن يتورط مع أحد من الفريقين، بمعنى أنه لم يكن يريد أن يشتراك في «مؤامرة» ضد السلطنة طالما هي لم تلفظ أنفاسها الأخيرة، وذلك كي لا يُخرج مركزه مع الدولة العثمانية ويظهر كمتآمر عليها في ظرفها العصيب. ومع ذلك، فنحن نرجح أيضاً ميل الأمير إلى مشروع الأعيان لأنه يبقى على العلاقة مع «دولة الخلافة» ولأنه أيضاً مشروع إسلامي تقوده التخب الإسلامية ذات التأثير على القاعدة، وأخيراً، لأن الجزائري قام في أعقاب مؤتمر دمشق بجولة دعائية في أنحاء بلاد الشام برفقة أعضاء من حركة الأعيان لاستطلاع موقف السكان تجاه شخصه، وذلك تحت ستار تفقد أحوال مواطنيه الجزائريين في المنطقة .

وعلى الرغم من تمحور مشروع الأعيان وكرم حول شخصية واحدة (الجزائري)، إلا أنه من الثابت عدم وجود تنسيق بين الفريقين، وذلك لأسباب عدة : إن اتصالات كرم مع الجزائري قد سبقت اتصالات الأعيان بالأمير^(١٦٦)، إضافة إلى ذلك، كان هناك اختلاف في الأهداف والأيديولوجيات بين المشروعين. فمشروع كرم كان موجهاً نحو

استقلال جبل لبنان ليكون هو نفسه حاكماً عليه، وليس نحو استقلال «سوريا»^(١٦٧). أما الأعيان المسلمين، فلم تكن لديهم تطلعات انفصالية حقيقة عن السلطنة إلا في ضوء مستجدات الحرب (انهيار الدولة)^(١٦٨). فقد كانوا يسعون إلى الاستقلال الذاتي مع البقاء تحت مظلة الخلافة لأسباب عده، وهي : الضائقة الاقتصادية وسوء المحصول عام ١٨٧٧ وارتفاع أسعار السلع الغذائية ومساهمة السوريين في المجهود الحربي بشكل كبير^(١٦٩) وفساد الإدارة في عهود ضبا باشا والمشير عمر فوزي وجودت باشا، وتوطين الجركس في بلاد الشام^(١٧٠)، وأخيراً، وقبل أي شيء، الانهيار العسكري العثماني أمام روسيا والخشية من وقوع البلاد تحت الاحتلال الأجنبي^(١٧١). وكانت أولى مؤشرات هذا الخطر الأجنبي تحركات لأساطيل الدول الأجنبية أمام الساحل السوري طوال عامي ١٨٧٧/١٨٧٨^(١٧٢)، مما جعل المسلمين يستعيدون ذكريات التدخل العسكري الأجنبي الفرنسي) في بلادهم عام ١٨٦٠^(١٧٣).

وفي صيف عام ١٨٧٨، عندما وزع مجهولون في دمشق مناشير باللغتين العربية والعثمانية تندد بحكم الوالي جودت باشا وتدعى السوريين إلى التخلص من العثمانيين وتسلم مقدرات بلادهم بأيديهم، لم يكن هناك ما يشير إلى أن الآراء الواردة فيها تعكس الموقف الإسلامي العام في بلاد الشام من الحكم العثماني. ففي رسالة له إلى لا يارد (Layard) سفير بريطانيا في الأستانة، أكد قفصل بريطانيا العام في بيروت على «... عدم وجود إشارات سخط ضد الحكم العثماني وسط السكان»^(١٧٤) المسلمين. وهذا يدل على أن المسلمين ظلوا على ولائهم للسلطان رغم شكوكهم من فساد الإدارة العثمانية ومطالبتهم المتكررة بإصلاحات، وعلى أن الإسلام ظل يتقدم عندهم على «عروبتهم» وأنه شكل رابطة حميمة بينهم وبين العثمانيين للوقوف في وجه المخططات الاستعمارية تجاه منطقتهم^(١٧٥). وكما يقول الدوري «... كان الخوف من الخطر الغربي مع النظرة الإسلامية من عوامل الدعوة للإصلاح ومن الدوافع للتمسك بالكيان العثماني»^(١٧٦).

وعندما انتهت الحرب وتأكد للأعيان المسلمين من أن معاهدة برلين قد ضمنت سلامه السلطنة ووعد السلطان بإجراء إصلاحات في بلاد الشام منهياً بذلك ولاية جودت باشا وعين مدحت باشا محله ودشن سياسة الجامعة الإسلامية بدعاوة شعوب السلطنة الإسلامية إلى الإنضواء تحت مظلة الخلافة^(١٧٧)، لم يعد هناك ما يبرر استمرار حركة أعيان المسلمين .

حواشي الفصل الأول

(١) «بلاد الشام» هي تلك المنطقة الجغرافية التي ضمت سوريا ولبنان وفلسطين وامتدت من سلسلة جبال طوروس في الشمال إلى شبه جزيرة سيناء في الجنوب، ومن الحدود العراقية - السورية في الشرق إلى ساحل البحر المتوسط في الغرب. وقد ظل هذا المصطلح يطلق على المنطقة المذكورة حتى أواخر القرن التاسع عشر. وبعد إعادة تنظيم الولايات العثمانية (١٨٦٤، ١٨٦٧)، بدأ مصطلح «سوريا» (ولاية سوريا) يطلق على منطقة سوريا الجغرافية. وحتى الاحتلال المصري، إنقسمت بلاد الشام إدارياً إلى أربع إدارات، وهي حلب وطرابلس ودمشق وصيدا. وبعد خروج المصريين منها، حلّت إدالة طرابلس وضُممت إلى إدالة صيدا، التي أصبحت بيروت مركزها. وبعد ذلك بثلاث سنوات، حلّت إدالة صيدا بدورها وضُممت إلى ولاية دمشق التي أطلق عليها منذ ذلك الحين تسمية «ولاية سوريا». وفي عام ١٨٨٨، تم توحيد المنطقة الساحلية الممتدة من طرابلس حتى عكا في ولاية جديدة سميت بـ «ولاية بيروت». وعند نهاية القرن التاسع عشر، كانت هناك ثلاثة ولايات، هي حلب وسوريا وبيروت ومتصرفيتا جبل لبنان والقدس. حول تطور التقسيمات الإدارية لبلاد الشام، انظر عبد الكرييم غرابة، سوريا في القرن التاسع عشر ١٨٤٠-١٨٧٦، ١٩٦١/٦٢ ص ٦٢-٧١؛ ١٠٨-٧١؛ عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤-١٩١٤، القاهرة ١٩٧٩ ص ٦١-٧٩؛ ٣٤٢-٣٤٠.

A.L. Tibawi, A Modern History of Syria, London 1969, pp 23ff, 180ff. ; Itamar Rabinovich, Syria and the Syrian Land: The 19th, Century Roots of 20th Century Developments in: Thomas Philipp ed. *The Syrian Land in the 18th and 19th Century*, Stuttgart 1992, p 43.

(٢) عبد الكرييم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦، دمشق ١٩٧٤ ص ٢٤٣-٢٤٤؛ ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، بيروت ١٩٦٨ ص ٤٩ و Tibawi, History of Syria, op. cit. pp 25-26.

Mosche Ma'oz, Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861, Oxford 1968, (٣) p 247.

C. Ernest Dawn, From Ottomanism to Arabism, Urbana ect. 1973, p 126. (٤)

سيار الجميل، العثمانيون وتكون العرب الحديث، بيروت ١٩٨٩، ص ٧٣. (٥)

ساطع الحصري، نشوء فكرة القومية، القاهرة ١٩٥١، ص ١٦٢. (٦)

. نماذج عن ذلك، في: رافق، مرجع سابق ص ١٤٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٧ و ٢٣٨. (٧)

مسعود ضاهر، مشكلات بناء الدولة الحديثة في الوطن العربي، دمشق ١٩٩٤ ص ٥٤-١١٥. (٨)

ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط ٢ بيروت ١٩٦٠، ص ٢٠ - ٢٨. (٩)

Suleiman Mousa, The Rise of Arab Nationalism and the Emergence of Transjordan, (١٠) in: William W. Haddad/ William Ochsenwald eds. *Nationalism in a Non-National State. The Dissolution of the Ottoman Empire*, Columbus 1977, pp 241-242.

Dawn, op. cit. pp 128-129.

(11)

Hassan Saab, The Arab Federalists of the Ottoman Empire, Amsterdam 1958, (12) pp 132-133;

- وعبد الرؤوف سنو، أثر الغرب الأوروبي في حركة الإصلاحات في الدولة العثمانية ١٧٨٩
١٨٣٩ ، رسالة دبلوم / جامعة بيروت العربية ١٩٧٥ ، ص ٧٣ .

Roderic H. Davison, Turkish Attitudes Concerning Christian-Muslim Equality in the (13) Nineteenth Century, in: *American Historical Review* 59, 4(1954) p 856.

(14) حوراني، الفكر العربي ص ٧٦ ومحمد عدنان مراد، بريطانيا والعرب ، دمشق ١٩٨٩ ، الفصلان ٣ و ٤ ص ٨٩-٥٠ ؛ كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث ط ٣ بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٥٩-١٦٠ .

(15) رافق، مرجع سابق، ص ٢٩٧ - ٣٠٢ .

(16) جبران شامية، آل سعود ماضيهما ومستقبلهم، لندن ١٩٨٦ ، ص ٦٢-٦٦ .

(17) حوراني ص ٥٦-٥٥ .

Muhammad Al-'Amar, The Hijaz under Ottoman Rule 1860-1914: The Ottoman (18) Vali, the Sharif of Mecca, and the Growth of British Influence, Ph.D. University of Leeds 1974, p 47.

(19) شامية ص ٦٧-٦٩ .

(20) المرجع السابق ص ٤٣-٤٥ ، ٧٠-٧٢ .

(21) أثناء التوسيع المصري في بلاد الشام، عبر نسلرود (Nesselrode) وزير خارجية روسيا، بأن رؤية محمد علي يتسع على حساب الدولة العثمانية يهدد مصالح بلاده، التي سترى «جاراً قوياً ومنتصراً يأخذ مكان جار ضعيف مهزوم »، نقاً عن: ببير رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر) ١٨١٥-١٩١٤ ، تعریف جلال يحيى، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٣٢ . وقارن بخوري/ إسماعيل، السياسة الدولية ٢، ص ٩٤ . وبعد إنقاذ الدولة العثمانية من الخطر المصري بواسطة التدخل الأوروبي المشترك، عبر بالمرستون (Palmerston)، وزير الخارجية البريطانية، عن الأسباب التي تدفع بلاده للوقوف إلى جانب السلطنة بالقول : «فإذا كان استقلال تركيا من الناحية السياسية ذات أهمية كبيرة لنا، فإنه (استقلال تركيا) لا يقل أهمية لبريطانيا من الناحية التجارية»، نقاً عن: Clayton p 90 .

(22) في رسالة له إلى متسلم اللاذقية، كتب إبراهيم باشا، نجل محمد علي في ربيع الثاني ١٢٤٨ ما يلي: «الإسلام والنصارى جميعهم رعايانا، وأمر المذهب ما له دخل بحكم السياسة، فيلزم أن يكون كل بحاله، المؤمن بجري إسلامه والعيسوي، كذلك، ولا أحد يتسلط على أحد» ، نقاً عن عبد اللطيف الطباوي، نصوص وحقائق لم تنشر عن أصل النهضة العربية في سوريا، في: «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» ٤ (١٩٦٧)، ص ٧٧٧ .

Moshe Ma'oz, Changes in the Position and Role of the Syrian 'Ulama' in the 18th (23)

and 19th Centuries, in: Thomas Philipp ed. op. cit., pp 144-155.

(٢٤) Tibawi, op cit. pp 84-86؛ وعبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، ط٣، بيروت ١٩٨٦، ص ١٢٥ - ١٢٦ . وبالإضافة إلى مساوىء التغلغل التجاري الأجنبي على الاقتصاد السوري وتدمير الإنتاج الصناعي الأوروبي الصناعة الحرفة المحلية، فإن التجنيد وضربي «الفرد»، التي دفعها المسلمين واعتبروها مساوية للجزية التي دفعتها أهل الذمة، كانا عاملين رئيسيين أديا إلى إضعاف الاقتصاد الإسلامي وبالتالي إزدياد النقمة على الحكم المصري Ma'oz, Reform, pp 14-17. وسط المسلمين، أنظر.

Tibawi, op. cit., p 73. (٢٥)

(٢٦) محمد جميل بיהם، العرب والترك، لام ١٩٥٧، ص ١٤٦ .

Mahmud D. Samra, Pan-Islamism and Arab Nationalism. (A Study of the Ideas of Syrian Muslim Writers 1860-1918), in: *Faculty of Arts Journal* (Amman) 3/2(1972), p 26. (٢٧)

Geroge Antonius, The Arab Awakening, Beirut 1969, p 37. (٢٨)

(٢٩) بطرس أبو منه، السلطان عبد الحميد الثاني والشيخ أبو الهدى الصيداوى، في «الاجتهد» ، ٨٢-٨١ (١٩٨٩) ص

(٣٠) منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر، أخذ اسم «سورية» يُستعمل على نطاق واسع وخصوصاً من قبل خريجي المدارس الإرسالية الأميركية والجمعيات وفي الأعمال العلمية. ففي عام ١٨٤٧ ، تأسست «جمعية سورية لاكتساب العلوم والفنون» (= الجمعية السورية). وفي عام ١٨٥٢ أصدرت الجمعية المذكورة مجلتها «أعمال الجمعية السورية» وفي عام ١٨٥٧ أنشئت «الجمعية العلمية السورية» من قبل مسيحيين وأقلية إسلامية مدينة. وفي عام ١٨٦٠ ، أصدر بطرس البستاني مجلته «نفير سوريا» وفي العام التالي، نشر خليل خوري، وهو أحد الصحفيين الأولين كتابه «خرائب سوريا» . وقبل انغلاق القرن التاسع عشر، أصدر المطران يوسف دبس مؤلفه الضخم «تاريخ سوريا»، حول هذه الموضوعات راجع حوراني ، مرجع سابق ص ٣٢٩ - ٣٣٠ . وعلى محمد حويلي، التطور الثقافي لمدينة بيروت من الفتح المصري لبلاد الشام وحتى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٨٣١)، أطروحة دكتوراه / الجامعة اللبنانية ١٩٩٠ ، ص ٢٧٩ - ٢٨١ ، ٢٨٥ - ٢٩٠ ، ٤١٤-٤١٠ ، ٤٢٨ .

(٣١) وجيه كوثراني، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام ، بيروت ١٩٨٨ ص ١٣٢ .

B. Abu-Manneh, The Christians Between Ottomanism and Syrian Nationalism: The Ideas of Butrus Al-Bustani, in: *IJMES*, 11(1980), 288. (٣٢)

(٣٣) المرجع السابق ص ٢٩٣ .

(٣٤) أبو منه ، السلطان عبد الحميد والشيخ أبو الهدى، مرجع سابق ص ٨٣ .

(٣٥) جان داية ، المعلم بطرس البستاني ، بيروت ١٩٨١ ص ٣٢ و ٣٥ .

Dawn, p 132.

(٣٦)

(٣٧) انظر تحت ص ٥٢ و ٨٠-٧٢ و حاشية (٦٢) من الفصل الثاني.

Zeine N. Zeine, Arab -Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism, (٣٨)
Beirut 1958, p 54.

(٣٩) محمد جميل بيهم، العرب والترك، مرجع سابق ص ١٤٦ و
Ma'oz, Ottoman Reform p 243.

Dawn p 132f. (٤٠)

Ma'oz, Ottoman Reform p 243. (٤١)

(٤٢) أنظر دراستي: «تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية، «من التنظيمات حتى نهاية عصر السلطان عبد الحميد الثاني»، في : «المنهج» ٤(١٩٩٦) ص ١٠٨ - ١٤٩ و ٥(١٩٩٧) ص ١٣١-٨٥.

(٤٣) لم يكن هناك أي عضو مسلم في «جمعية سورية لاكتساب العلوم والفنون» أما «الجمعية العلمية السورية»، فكانت مشاركة التُّخب المدنية الإسلامية فيها واضحة. وهذا يعود إلى غياب التأثير التبشيري فيها، ولأنها نشأت بمبادرة إسلامية ومبادرة عثمانية، انظر حويلي، مرجع سابق ص ٢٨٦. أما «جمعية بيروت السورية»، فلم تتمكن من أن تجذب إليها سوى الناجر البيرورتي الحاج حسين بيهم، راجع أسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٤٨ و

Fritz Steppat, Eine Bewegung unter den Notabeln Syriens, 1877-1878. Neues Licht auf die Entstehung des arabischen Nationalismus, in: *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*. Supp; I. = 17. Deutscher Orientalistentag vom 21-27 Juli 1968 in Würzburg, ed. Wolfgang Voigt, Wiesbaden 1969, p 648.

(٤٤) الطيباوي، نصوص وحقائق ص ٧٨٠.

(٤٥) أنظر دراستي: «تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية»، «المنهج» مرجع سابق.

(٤٦) Osman Okyar, A New Look at the Recent Political, Social and Economic Historiography of the Tanzimat, in: Jean- Louis-Bacque- Grammont/ Paul Dumont eds. *Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman (Fin du XVIII- début du XX siècle)*, Paris 1983, p 35.

(٤٧) وجيه كوثاني، المسيحيون، من نظام الملل إلى الدولة المحدثة، في : «المسيحيون العرب»، ط ٢ بيروت ١٩٨٦ ص ٦٥ و ٧٠ - ٧١

(٤٨) شدد «خطي هميمايون» لعام ١٨٥٦ على الترابط بين «الامتيازات» و «التنظيمات» وجاء فيه *"All the privileges and spiritual immunities granted ... to all Christian communities or other non-Mussulman ... shall be confirmed"*.

نقاء عن: ٣١٦ Hurewitz, op. cit. vol. I, p 316 وقارن بـ الطيباوي، نصوص وحقائق ص ٧٧٨.

Gad G. Gilber, Changing Pattern of Economic Ties: The Syrian and Iraqi Provinces (٤٩)
in the 18th and 19th Centuries, in: Thomas Philipp ed., op. cit., pp 55-67.

- . ٧٧٩-٧٧٨ Abu - Manneh, Christians, op. cit. 288; (٥٠) والطباوي، نصوص وحقائق ص
- Ma'oz, Ottoman Reform p 244f. (٥١)
- (٥٢) علقت صحيفة "The Missionary Herald" عام ١٨٥٥ على دفاع بريطانيا وفرنسا عن السلطنة العثمانية في حرب القرم بالقول : « إن بريطانيا ومنافسيها القدماء (فرنسا) تناسوا عداءهم السابق رغبة في إنقاذ الدولة المحمدية (الدولة العثمانية) من غزانتها المسيحيين (روسيا)... فيما كان الصليب في السابق ضد الهلال ، فإن الصليب يحمي اليوم الهلال من الصليب » ، نقلًا عن Tibawi, A Modern History of Syria, pp 116-117.
- الطباوي، نصوص وحقائق ص ٧٧٨ . (٥٣)
- Tibawi, Modern History of Syria p 121; Ma'oz, Ottoman Reform p 244f. (٥٤)
- Moshe Ma'oz, Muslim Ethnic Communities in Nineteenth Century Syria and Palestine: Trends of Conflict and Integration, in: *Asian and African Studies*, 19(1985), p 283. (٥٥)
- Ma'oz, Ottoman Reform p 191. (٥٦)
- Tibawi , Modern Syria p 119; Ma'oz, Ottoman Reform p 244f. (٥٧)
- "*The Cadi answered, disdainfully 'the Sultan eats melons ' which is a vulgar expression, meaning that the Sultan talks impotently or talks nonsense'* , quoted from BPP 1860/ 69, *Despatches from Her Majesty's Consuls in the Levant, respecting 'Past or Apprehended Disturbances in Syria 1858 to 1860.'* Finn to Malmesbury, no. 29, Jerusalem, 22.6.1858, inclosure no. 2, Vice-Consul Rogers to Consul Finn, Caiffa, 18.6.1858 وقارن بملحق رقم (٢). (٥٨)
- Ma'oz, Ethnic, op. cit. p 283; Fritz Steppat, Some Arabic Manuscript Sources on the Syrian Crisis of 1860 in: *Les Arabes par leurs archives (XVI-XX siècles)*, Jacques Berque et Dominique Chevallier eds, Paris 183-191 (Colloques internationaux du Centre National de la Recherche Scientifique) No. 555, Paris 9-11 avril 1974, Paris 1976, pp 187-188. (٥٩)
- Ma'oz, Ethnic, op. cit., pp 117-118. (٦٠)
- Butrus Abu Manneh, The Genesis of Midhat Pascha's Governorship in Syria 1878- 1880 (Draft) Paper presented at the International Conference "The Syrian Land (Bilad al-Sham) in the 18th and 19th Century" July 18-22, 1995, Friedrich-Alexander-Universität, Erlangen pp 1-2. (٦١)
- Ma'oz, Ottoman Reform p 247. (٦٢)
- (٦٣) قبل عبد الحميد الثاني، لم يولي السلاطين العثمانيين أهمية لمصطلح « خليفة ». والجدير بالذكر أن محمد الثاني (الفاتح) يعتبر نفسه في مركز أعلى من الخليفة، في حين أن السلطان سليم الأول حصل على اللقب دون أن يسعى إلى استخدامه. وفي النصف الثاني من القرن الثامن

عشر، عاد المصطلح إلى الظهور بخاصة بعد هزيمة العثمانيين أمام روسيا وتوقيعهم معاهدة «كوتشك قينارجة» عام ١٧٧٤، والتي جاء في مادتها الثالثة «إن السلطان العثماني هو الخليفة الأكبر للمُسلمين». وخلال فترة حكمه (١٨٦١-١٨٧٦)، حاول السلطان عبد العزيز أن يركز على مسألة الخلافة في سبيل مركزة السلطة حول شخصه والافتتاح على العالم الإسلامي في وسط آسيا، حول هذا الموضوع، انظر F.O. 881/2621, *Green to Granville, no. 12 Bludau*, 17.9.1873; (sic) وسياج الجميل، مرجع سابق ص ١٤٠.

(٦٤) انظر، الأعمال الكاملة للكواكب، إعداد وتحقيق محمد جمال طحان، بيروت ١٩٩٥ ص ٨٠-٨١.

(٦٥) نقلًا عن:

Isabel Burton, *The Inner Life of Syria, Palestine, and the Holy Land*, vol.I, London 1875, p 112.

François Georgeon, *Le dernier sursaut (1878-1908)*, in: Robert Mantran ed., *Historie de l'Empire Ottoman, Paris 1989*, p 534.

(٦٧) حول المناشير، انظر تحت ص ٧٠، ٧٣-٧٧، ٧٩.

Panislamism and the Caliphate, in: *The Contemporary Review 43 (1883)*, p 60. (٦٨)

BPP 1860/69, op. cit. *Skene to Malmesbury, no. 43, Aleppo 7.8.1858, inclosure 31.7.1858*.

. وقارن بملحق رقم ٣.

(٦٩) زين نور الدين زين، *نشوء القومية العربية*، ط ٢ بيروت ١٩٧٢، ص ١٩٨ حاشية ٢٧.

(٧١) الطيباوي، نصوص وحقائق ص ٧٩٣.

“... were a serious insurrection to take place... The insurgents ...might not be without the advantage of military organization ...the surviros of the Janissaries...”, BPP 1860/69, op. cit. *Skene to Malmesbury, no. 43, Aleppo 7.8.1858, incl.no 43, Skene to Alison, Aleppo 31.7.1858*. وقارن بملحق رقم ٣.

(٧٣) انظر بقية التقرير في المرجع السابق.

BPP 1860/69, op. cit. Doc. no. 43. (٧٤)

(٧٥) حول حادثة جدة الشهيرة عام ١٨٥٨، انظر أحمد ابن السيد زيني دحلان، أمراء البلد الحرام، بيروت لات، ص ٣٦٦-٣٧٠؛ وقارن بحاشية رقم ١٢٥ من الفصل الثالث.

Thomas E. Marston, *Britains Imperial Role in the Red Sea Area 1800-1878*, Connecticut 1961, pp 264-268.

(٧٦) انظر الفصل الثالث من الكتاب ص ٨٧-٨٩.

F.O. 424/97, *Layard to Salisbury*, incl. no. 113 Palace Reports respecting death of "Sheriff of Mecca", Constantinople 26.3.1880. (٧٧)

- (٧٨) محمد جميل بיהם، قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، ج ٢ ، بيروت ١٩٥٠ ، ص ١٥ .
- (٧٩) Zeine, The Emergence of Arab Nationalism, op. cit. , p 58.
- (٨٠) محمد سعيد بسام، الحركة العربية في جيل عامل، في : «الفكر العربي» (بيروت)، ٣٩ /٦٧ ص ٤٠ (١٩٨٥).
- (٨١) نقلًا عن حوراني، مرجع سابق ص ٣١٨-٣١٩ .
- (٨٢) Samra, Pan-Islamism, op. cit., p. 7. ويشير المؤرخ المذكور إلى أحد هؤلاء المدافعين عن خلافة آل عثمان وهو إسماعيل الصفايحي، صاحب كتاب «إيقاظ الإخوان لدسانس الأعداء»، الآستانة ١٢٣١/١٩١٢ ». وعلى كل حال، فإن المصادر التاريخية الأمينة لا تؤكد مسألة انتقال الخلافة إلى السلطان سليم الأول، راجع في هذا الخصوص، سيار الجميل، العثمانيون وتكونين العرب الحديث، ص ١٣٥-١٤٢ .
- (٨٣) نقلًا عن: «ثمرات الفنون» عدد ٨ تاريخ ٢٧/٥ و ٢٨/٦ ، كان الشيخ محمد الأسير أحد محرري جريدة «ثمرات الفنون» التي تأسست عام ١٨٧٥ من قبل الشيخ عبد القادر قباني. حول الجريدة ومؤسساتها الفكرية والسياسية راجع هشام نشابة، الشيخ عبد القادر قباني وجريدة «ثمرات الفنون» في : الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠-١٩٣٩ ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٩٩-١٠٦ . وحول إشكالية علاقة المسلم بالسلطة ووجوب إطاعتتها في كل الأحوال وفقاً للتفسير الفقهي السنوي، انظر :
- Fritz Steppat, Der Muslim und die Obrigkeit, in: *Zeitschrift für Politik*. N.S., 12(1965), pp 319-322.
- (٨٤) «ثمرات الفنون» عدد ٦٠ تاريخ ٢٨/٦ ، ١٨٧٦.
- (٨٥) أنظر الفصل الثاني من الكتاب ص ٦٧-٧٢ .
- (٨٦) Adel Ismail, Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'Histoire du Liban, T. 14, Beyrouth 1978: *Sienkiewicz à Freycinet*, no. 48, Beyrouth 2.6.1880, pp 191-192.
- (٨٧) عادل الصالح، سطور من الرسالة: تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة ١٨٧٧ ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٩١-١٠٢ .
- (٨٨) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه ولده السيد حسن الأمين، ج ٤٣ ، بيروت ١٩٥٨ .
- (٨٩) محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، بيروت ١٩٨١ .
- (٩٠) Ismail, Documents, op. cit. T. 14, *Sienkiewicz à Freycinet*, no. 48, Beyrouth 2.6.1880, pp. 191-192.
- (٩١) علي الزين، للبحث عن تاريخنا في لبنان ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٥-٣٠ .
- (٩٢) كوثراني، مرجع سابق ص ١٣٧ .
- (٩٣) بسام، الحركة العربية ص ٦٤ .

« ...Ce n'est cependant qu'à l'époque de la domination éphémère du premier vice-roi d'Égypte que l'on peut faire remonter , d'une manière directe, les aspirations des Syriens vers une sorte d'autonomie». (٤٤)

«Mais pour que ces aspirations prissent une certaine consistance, Il fallait que des événements d'une importance capitale vinssent à se produire. La guerre russo turque et le démembrement partiel de l'Empire ottoman qui l'a suivie ont eu cet effet de transformer en espérances d'une nature très vive les aspirations vagues jusque-là des peuples de la Syrie», Ismail, Documents T. 14, Sienkiewicz à Freycinet, no. 48, Beyrouth 2.6.1880, pp 191-192.

(٤٥) كوثاني ص ١٣٧-١٣٨ .

(٤٦) الزين ص ٢٨ .

M.L. Gross, Ottoman Rule in the Province of Damascus 1860-1909, Ph.D. (٤٧)
Georgetown University 1979, vol. II, p 559.

(٤٨) المرجع السابق ص ٥٥٩ .

(٤٩) المرجع السابق ص ٥٥٩ .

Zeine, The Emergence of Arab Nationalism, op. cit., p 58. (٥٠)

(٥١) عبد العزيز الدوري ، التكوين التاريخي للأمة العربية ص ١٥٢ .

(٥٢) الصلح ، مرجع سابق ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٥٣) المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٥٤) أنظر ص ٥١ - ٥٢ .

(٥٥) أنظر فوق ص ٢٥ .

(٥٦) أنظر تحت ص ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ .

(٥٧) فريتز شتبت ، بدايات العصر الحديث في الشرق الأدنى ، في : «الأبحاث» (بيروت) ٢٠ ، ١٩٦٧ ص ٣٠-٣٢ .

Steppat, Eine Bewegung, op. cit., p 637. (٥٨)

(٥٩) أنظر تحت ص ٤٦ - ٤٨ .

(٦٠) مارسيل إميريت ، الأزمة السورية والتوجه الاقتصادي الفرنسي في سنة ١٨٦٠ ، ترجمة خليل أبو رجيلي ، في : «دراسات عربية» (بيروت) ١٩٧٢(٥) ، ٨ ، ٢٦-٢ ، الذي يرى أن الحاجة إلى تطوير إنتاج الحرير في «لبنان» لمصلحة مصانع لиона الفرنسية ، وكذلك خلق دولة حاجزة بين الأناضول ومصر (بلاد الشام) لمنع الدولة العثمانية من التدخل المباشر في خليج السويس بعد انتهاء حفرها ، كانا وراء مشاريع فرنسا الانفصالية في سوريا. وقارن بـ خوري / إسماعيل ، مرجع سابق، ج ٢ ص ٢٦٧-٢٧١ .

(١١١) الصلح ص ٩٨.

(١١٢) آل صفا، تاريخ جبل عامل ص ٢٠٨.

(١١٣) Akarli, Abdülhamid II's Attempt, op. cit., pp 81-82. كما يذكر الصلح أن الجفاء بين السلطات العثمانية في دمشق وبين الأمير يستمر حتى وفاة الأخير، حيث لم تشارك السلطات المحلية المدنية والعسكرية بمراسيم تشيعه، ص ١٣٠-١٣٤ (حاشية) . كما يذكر ايميريت ص ٦، أن «... الوالي التركي في الشام كان يتتجنب بحذر محاولة التدخل في شؤون الأمير».

(١١٤) انظر ص ٤٨، ٥٠ - ٥٢.

(١١٥) الزين ص ٢٧-٢٦.

(١١٦) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٤٣، ص ٣٠٠-٢٩٩.

(١١٧) الصلح ص ١٢٦.

Eliezer Tauber, The Emergence of the Arab Movements, London, ١٢٦ 1993, p 12.

(١١٩) الصلح ص ١٣١-١٣٢.

(١٢٠) المرجع السابق ص ١٣٢.

Steppat, Eine Bewegung, pp 640-641.

(١٢١)

(١٢٢) حول انتخاب السلطان عبد الحميد على الأعيان في سوريا، انظر:

Philip S. Khoury, Urban Notables and Arab Nationalism. The Politics of Damascus 1860-1920, Cambridge 1983;

و حول أعيان فلسطين:

Haim Gerber, Ottoman Rule in Jerusalem 1890-1914, Berlin 1985.

وقارن رشيد خالدي، القومية العربية في سوريا: سنوات التكروين ١٩٠٨-١٩١٤ في: «الفكر العربي» (بيروت)، ٢(١٩٧٨)، ص ٣٧ و دراستي «الاتجاهات الإسلامية...» في «المنهاج» ٤(١٩٩٦)، ص ١٤٩-١٠٨ و ٥(١٩٩٧) ص ٨٥-١٣١.

(١٢٣) محمد جابر آل صفا، مخطوطة «مذكريات أدبية سياسية والمنتخب من كلمات لنا أدبية واجتماعية وعلمية نشر بعضها في المجلات والصحف العربية، النبطية، النبطية، ١٩٣٣/١٣٥٢، ج ٥، ص ٥٢، ٥٤-٥٥. أدين بالشكر للصديق الدكتور متذر جابر (الجامعة اللبنانية - كلية التربية) لوضعه هذه المخطوطة بتصرفي؛ سلاف الأفكار في مدح عترة المختار»، ١٨٩١، إعداد وتقديم محمد علي فرحات، بيروت ١٩٨٩، ص ١٣-١٩؛ أسد رستم، لبنان في عهد المتصرفية ص ٢٥٣؛ Steppat, Eine Bewegung, pp 634-635

(١٢٤) محمد جابر آل صفا، مخطوطة «مذكريات ...»، مرجع سابق ج ٥، ص ٥٥.

(١٢٥) المرجع السابق ص ٥٤-٥٥.

(١٢٦) محمد جابر آل صفا، آل الصلح ص ١٩؛ Michael Steppat, Eine Bewegung, pp 634-635;

Johnson, Class and Client in Beirut. The Sunni Muslim Community and the Lebanese State 1840-1985, London 1986, pp 57-58.

(١٢٧) محمد جابر آل صفا، مذكريات ، ج^٥ ، ص ٥٥ .

(١٢٨) عبد الرؤوف ستو، المصالح الألمانية في «لبنان» ١٨٣١-١٩١٨ ، في: «أوراق جامعية» (بيروت)، ٢(١٩٩٣)، ٢٠٥-٢٠٦؛ حويلي ، مرجع سابق ص ١٨١-١٨٦ .

Steppat, Eine Bewegung, pp 636, 643.

(١٢٩) حويلي ص ١٨٦ ، ووجيه كوثاني ، بلاد الشام ، السكان ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، بيروت ص ٣٣٢ .

(١٣٠) محسن الأمين ، ج ٤٣ ص ٢٩٩-٣٠٠ .

Steppat, Eine Bewegung, p 635.

(١٣١) الأمين ، أعيان الشيعة ج ٤٣ ص ٣٠٠ .

(١٣٢) جابر آل صفا ، تاريخ جبل عامل ص ٢٠٨ .

(١٣٣) الصلح ، سطور من الرسالة ، حاشية ص ١٢٤ .

(١٣٤) Steppat, Eine Bewegung, pp 635-636؛ السيد محسن الأمين ، أعيان الشيعة ، تحقيق وإخراج حسن الأمين ، مجلد ٨ ، بيروت ١٩٨٦ .

(١٣٥) أدین بهذه المعلومات إلى الأستاذ حسن الأمين نجل السيد محسن الأمين .

(١٣٦) جابر آل صفا ، تاريخ جبل عامل ص ٢٠٨ .

(١٣٧) المرجع السابق ص ٦٥ ، ١٦٩ .

Steppat, Eine Bewegung, p 646.

(١٣٨)

(١٣٩) أسد رستم ص ٢٤٨ .

(١٤٠) دومينيك شفالليه ، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا ، ترجمة من عبد الله عاقوري ، بيروت ١٩٩٤ ، ص ٣٦٩ و:

Steppat, Eine Bewegung, p 648; Johnson, Class and Client, op. cit., pp 63-64.

(١٤١) زعيم إقطاعي «لبناني» من منطقة إهدن لفت الأنظار إليه عام ١٨٥٥ بتصريحه ضد شقيقه على مشيخة إهden. عُين قائمقاماً على مسيحيي جبل لبنان في أعقاب الحرب الأهلية عام ١٨٦٠ وما لبث أن اختلف مع المتصرف داود باشا وثار عليه بين عامي ١٨٦١ و ١٨٦٦ . نفي إلى الجزائر عام ١٨٦٧ ثم إلى أوروبا ، حيث أجرى من هناك إتصالات مع الجزائري نزيل دمشق عبر وسيط. انظر الصلح ، حاشية ص ١٠٤-١٠٥ ، الصلبي ، مرجع سابق ص ١٥١-١٥٠؛ أحمد طربين ، لبنان منذ عهد المتصرفية إلى بداية الإنتداب ١٨٦١-١٩٢٠ ، دمشق ١٩٦٨ ، ص ٦-٢ .

(١٤٢) بعد الحرب الأهلية في «سوريا» عام ١٨٦٠ ، كانت بلاد الشام مسرحاً لمشروع استعماري فرنسي خطط له الإمبراطور نابوليون الثالث تحت شعار حماية المسيحيين الشرقيين . وقام المشروع على نزع بلاد الشام والعراق عن السلطنة العثمانية وتعيين الأمير عبد القادر الجزائري ملكاً عليهم

(بصفته صديقاً لفرنسا ١٠٠ وشخصية عربية مرموقه) ولذلك هذا الكيان دولة فاصلة بين مصر والأنضول يؤمن سلامة قناة السويس دون أي تدخل فرنسي مباشر ويتوسع تجارة فرنسا في المنطقة. لكن هزيمة فرنسا أمام بروسيا والدوليات الألمانية عام ١٨٧١/١٨٧٠ وقيام الجمهورية الفرنسية الثالثة، عطل تحقيق المشروع، حول هذه الموضوعات راجع، خوري/ إسماعيل، السياسة الدولية، ج ٣، ص ٢٦٧-٢٧١؛ شوفاليه ص ٤٩٣-٤٩٤؛ إيميريت ص ٩.

Ismail, Documents, T. 14, *Sienkiewicz à Freycinet*, no. 48, Beyrouth 2.6.1880, pp 191-192 (١٤٣).
والصلح ص ٩٧-٩٨.

(١٤٤) الصلح ص ٩١-٩٢.

(١٤٥) المرجع السابق ص ٩٢-٩٣.

(١٤٦) المرجع السابق ص ٩٣-٩٤.

(١٤٧) لا يحدد الصلح تاريخاً لاجتماع بيروت، ويفترض أنه نهاية عام ١٨٧٧.

(١٤٨) الصلح ص ٩٤.

(١٤٩) الصلح ص ٩٤.

(١٥٠) قبل وفاته في عام ١٨٣١/١٨٣٠، كان الحصني مفتياً لدمشق ونقيباً لأشرافها:

Steppat, Eine Bewegung, p 636, no 17.

وبسبب مصاهرة أحمد الصلح لآل الحصني، أمكن عقد الاجتماع الموسع في منزل الفقيد.

(١٥١) الصلح ص ١٠٤.

(١٥٢) الصلح ص ٩٨-٩٩.

(١٥٣) إيميريت ص ٨-٦ و خوري/ إسماعيل، السياسة الدولية ج ٣ ص ٢٦٨.

(١٥٤) لا يحدد الصلح تاريخ تبلغ الجزائري قرار الأعيان بترشيحه لعرش سوريا. ويفهم من الاقتباس في حاشية ١٥٦ من هذا الفصل «... إننتظار ما سيسفر عنه مؤتمر برلين» أن تاريخ التبلغ لا بد أنه حصل في الأسبوع الثاني من شهر حزيران عام ١٨٧٨ وقبل صدور مقررات معاهدة برلين في ١٣ تموز من العام نفسه، وذلك لأن دعوة بسمارك إلى المؤتمر لم تحصل إلا في الأسبوع الثاني من حزيران، أي بعد استكمال المفاوضات التحضيرية الدولية وعقد اتفاقيات بين بريطانيا مع كل من روسيا في ٣٠ أيار، والسلطنة العثمانية بشأن قبرص (مبدئي) في ٤ حزيران ، والنمسا/ هنغاريا في ٦ منه، أنظر:

Richard Millman, Britain and the Eastern Question 1875-1878, Oxford 1979, pp 445-449; Bamberg, Geschichte der Orientalischen Angelegenheit, op. cit., pp 601-605.

(١٥٥) لم يوافق على ذلك جميع المؤتمرين، الصلح ص ١٠٠.

(١٥٦) المرجع السابق ص ١٠١.

(١٥٧) المرجع السابق ص ١٠١-١٠٢.

(١٥٨) المرجع السابق ص ١٠٣-١٠٤.

- (١٥٩) مقابلة مع الأستاذ حسن الأمين، نجل السيد محسن الأمين.
- (١٦٠) سمعان الخازن، يوسف بك كرم في المنفى، طرابلس ١٩٥٠، ص ٣٠٣ وما يليها.
- (١٦١) نقلًا عن المرجع السابق ص ٣٤٦.
- (١٦٢) نقلًا عن المرجع السابق ص ٣٥٢.
- (١٦٣) استفان البشعلاني، لبنان ويوسف كرم، بيروت ١٩٢٥، ص ٥٧٢.
- (١٦٤) دخلت اليونان الحرب ضد السلطنة في ٢ شباط عام ١٨٧٨، إلا أن الضغوطات البريطانية والفرنسية عليها جعلها توقف القتال، أظر:
- William Miller, *The Ottoman Empire and Its Successors 1801-1927*, New Impression, London 1966, pp 380-381; Millman, op. cit., p 375.
- (١٦٥) كذلك يرد إسم الجزائري عام ١٨٧٩ في مشروع استقلالي ثالث يضم ولايات حلب وسوريا وبغداد واليمن وغيرها، أظر:
- Ismail, Documents, T 14, *Delaporte à Waddington, Beyrouth 9.10.1879*, pp 113-115.
- Steppat, Eine Bewegung, pp 639-640. (١٦٦)
- (١٦٧) كوثاني، السلطة والمجتمع من ١٤٣-١٤٢؛ وجيه كوثاني، الاتجاهات الاجتماعية - السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦١-١٩٢٠، ط ٣، بيروت ١٩٨٢، ص ١٤٣-١٤٤.
- (١٦٨) انظر تأثير الحرب المذكورة على «القوميات الإسلامية الأخرى في السلطنة» في الفصول ٣ و٤ و٥ من الكتاب.
- (١٦٩) يذكر غروس، أن تجنيد الدولة العثمانية للسوريين قد أساء إلى الوضع الاقتصادي في البلاد، حيث تعطل العمل في الزراعة وحرمت الأسر الإسلامية من معيشتها وتوقفت التجارة وشلت المحاكم، Gross, *Ottoman Rule*, vol. I, pp 222, 223, 238-239, 241-254.
- ويرى: Najib Elias Salibā, Wilāyat Sūriyyā 1876-1909, Ph.D. University of Michigan 1971, pp 74-75 أن الدولة العثمانية فرضت ضرائب إضافية على السكان وجمعت من ولاية سوريا ٣٦ مليون ليرة عثمانية. كما قدمت الولاية المذكورة ٣٦ ألف قطعة ثياب و٢٠ ألف قطعة جراب و٦٥٠٠ قطعة صوف.
- (١٧٠) على إثر الهجرات الإسلامية من المناطق الآسيوية التي احتلتها روسيا، قامت الدولة العثمانية بتوطين ٣٠٥٠٠ جركسي في مناطق حماه وحمص وطرابلس (لبنان) وحوران والقنيطرة ومنحهم التسهيلات والأراضي وجندهم، وذلك لاستخدامهم ضد البدو والدروز إذا ما ثاروا،
- F.O. 78/68, *Jago to Derby, no. 2, Damascus 4.3.1878*; 424/210, *O'Conor to Grey, no. 256, Pera 16.4.1906, inclosure. «Memorandum on Immigration of Russian Refugees»*; Tibawi, pp 173-174; Salibā pp 86-92.
- F.O. 78/2848, vol. 2, *Eldridge to Layard, no. 113, Beirut 10.11.1878*; *Eldridge to Salisbury, no. 92, Beirut 10.11.1878*. (١٧١)

(١٧٢) عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ١٨٤١-١٩١٠، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٦٠-٢٧٠؛ «ثمرات الفنون» عدد ١٠٤ تاريخ ٢٠/٣/١٨٧٧ وعدد ١١٤ تاريخ ٢٨/٦/١٨٧٧.

(١٧٣) Gross, vol. I, p 220 (١٧٣) وقارن بـ خوري/إسماعيل، السياسة الدولية ج ٣، ص ٢٦٥-٢٦٦.

(١٧٤) جاء في المنشور ما يلي :

«Do not fancy, Syrians, that you are left alone to reform these abuses. You have friends who are willing and ready to assist you. Awake then from your lethargy... Personal interest must be set aside when the prosperity and progress of your country are in question ...The reins of government will soon pass into your hands. All this is mysterious but it is for you who are intelligent to understand that the duty of a friend is to commence - it is for you to achieve! In any case I will shortly return to you»

وختم القنصل تقريره بوصف مشاعر السوريين تجاه الحكم العثماني كما يلي :

«... though there are no signs of dissatisfaction against the Ottoman rule», F.O. 78/2848, vol. 2, no. 74, Eldridge to Layard, Aliyah 2.8.1878.

F.O. 424/83, Layard to Salisbury, secret, no. 418, Therapia 21.5.1879. (١٧٥)

وكثيراً، الاتجاهات من ١٣٣ و

Fritz Steppat, Kalifat, Där al-Islām und die Loyalität der Araber zum Osmanischen Reich bei hanafitischen Juristen des 19. Jahrhunderts, *Actes du Vème Congrès International d'Arabisants et d'Islamisants*, Bruxelles, 31 aout - 6 septembre 1970, p 461.

(١٧٦) الدوري، التكربين التاريخي، ص ١٥٢.

(١٧٧) عبد الرؤوف سنو، فكرة الجامعة الإسلامية بين السلطنة العثمانية والمغرب الأقصى، في : «الاجتهاد» ٢٦/٢٧، ١٩٩٥، ص ٣٢٠-٣٢١.



الفصل الثاني

تراث المشاريع لفصل «سوريا» عن الدولة العثمانية وردود الفعل الإسلامية

أولاً: «سوريا» في الاستراتيجية البريطانية المتوسطية الجديدة والمواقف الإسلامية منها

مع وصول حركة الأعيان المسلمين إلى نهايتها في خريف عام 1878، لم تتوقف مشاريع الاستقلال الذاتي لبلاد الشام أو فصلها عن السلطنة. فأثار الحرب الروسية - العثمانية، عسكرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً وتوقف حركة «التنظيمات»، ألغت جميعها بظلها على بلاد الشام مبลورة مواقف دولية (تعديل بريطانيا إستراتيجيتها المتوسطية وتطلعها للاستحواذ على «سوريا») وداخلية (مشروع الاستقلال الذاتي لجمعية بيروت السرية ومشروع مدحت باشا لإنشاء خديورية سوريا). لماذا عذلت بريطانيا إستراتيجيتها المتوسطية، وما هي أهدافها وما علاقتها «سوريا» بها؟ ما هي العوامل التي أدت إلى تزاحم المشاريع حول «سوريا» وتدخلها؟ ما هو موقف مسلمي بلاد الشام من مشروع أجنبي (بريطاني) لاحتلال بلادهم؟ هل انغمسوا بالفعل في المشاريع التي حيكت لفصل بلادهم عن السلطنة، أم ظل موقفهم منها ينبع كالسابق من قناعات دينية - إستراتيجية؟

قبيل تحرك الأعيان المسلمين وأثناءه، قامت بريطانيا بتحركات مشبوهة في البحر المتوسط^(١) وتركيا الآسيوية وببلاد الشام. ففي ضوء ما لحق بالدولة العثمانية من هزائم عسكرية على يد روسيا في البلقان نهاية عام 1877 ومطلع العام التالي^(٢) واحتلال روسيا للزاوية الشمالية الشرقية للأناضول وحصولها على باطوم وأردهان وقارس وبايزيذ بموجب معاهدة سان ستيفانو^(٣)، خشيت بريطانيا من أن تندفع روسيا من آسيا الصغرى باتجاه خليج الاسكندرونة أو أن تقيم دولة أرمنية^(٤) تضعها تحت نفوذها، وتضمها إليها

فيما بعد، مما يقلب المعادلات في المنطقة لغير مصلحتها^(٥). وقد دفعت هذه المخاوف لا يارد، سفيرها في العاصمة العثمانية، أن يكتب إلى «شركة الهند الشرقية» (البريطانية) محذراً بالقول: «...إنني على افتتاح بأن أمبراطوريتنا في الهند سوف ت تعرض إلى خطر مهلك في حال ضمها (روسيا) لأرمينيا. وسوف يتبع ذلك شمال فارس. وإذا تمكنت روسيا من أن تفتح البوسفور والدردنيل أمام أسطولها، فسوف تكون طريقنا إلى الهند تحت رحمتها، سواء عبر السويس أو بلاد ما بين النهرين أو هرات»^(٦).

دفعت هذه الأسباب ببريطانيا إلى التحرك في اتجاهين : تحذيرها روسيا من أية محاولة لعرقلة الملاحة في قناة السويس، أو القيام باحتلال موقف لمصر وإجراء أي تعديل في نظام الممرات^(٧). وفي الوقت نفسه، اتجهت نحو امتلاك قاعدة لها في الحوض الشرقي من البحر المتوسط تكون «سوريا» أو قبرص، وذلك في سبيل الدفاع عن مصالحها في الشرق الأدنى والهند - هذه المصالح التي اتخذت بعداً اقتصادياً وسياسياً واستراتيجياً منذ استحواذها على أسهم الخديوي إسماعيل في قناة السويس عام ١٨٧٥^(٨). وقد عبرت «شركة الهند الشرقية» عن إشكالية المصالح البريطانية هذه بالقول^(٩) : «إن المسألة الشرقية بالنسبة لإنكلترا هي مسألة روسية - هندية: تأمين حياد الآستانة ويرزخ السويس بأي ثمن، حيث أنها يؤثران على الطريق إلى الهند وعلى علاقانا مع روسيا في موقعها بآسيا الصغرى وعلى جبهتنا الهندية، حيث أصبحت روسيا جارتنا».

وأنباء دراستها تلك الخيارات (سوريا أم قبرص)، كانت الحكومة البريطانية تعمل على تدعيم نفوذها في تركيا الآسيوية، وذلك من خلال مراقبة الإصلاحات التي أقرتها معاهدة برلين لمصلحة مسيحيي السلطنة (الأرمن أساساً)^(١٠)، وتستحصل من دبلوماسيتها على تقارير حول إمكانية احتلال «سوريا». ومما يلفت النظر في موضوع اختيار سوريا لتكون قاعدة بريطانية مستقبلية، وضع تقريرين دبلوماسيين (آذار ونisan ١٨٧٨) بتصرف الحكومة البريطانية. ويتحدث تقريراً آذار ونisan عن استياء السوريين وخصوصاً المسلمين من الحكم العثماني وأنهم يتوقعون سقوط مصر تحت الاحتلال البريطاني، بعدما امتلكت بريطانيا معظم أسهم قناة السويس، وأنهم يرغبون بالاتحاد مع مصر لكي يستفيدوا بدورهم من حسنان الحكم البريطاني إسوة ب المسلمين الهند. وأخيراً، إنهم لن يقاوموا القوات البريطانية «الغازية» لبلادهم، بل سيستقبلونها بـ «أذرع مفتوحة»^(١١). كما أن هناك تقريراً ثالثاً (١٨ تموز ١٨٧٨) بعث به إيلدرidge، قنصل بريطانيا العام في بيروت، إلى ساليزبوري (Salisbury)، وزير

خارجية بريطانيا، وجاء بعد ثلاثة أيام على إقرار معاهدة برلين وتوقيع السلطان عبد الحميد الثاني عليها، تحدث فيه عن موجة استياء عامة من الحكم العثماني بين السوريين، مسيحيين ومسلمين، وذكر «أن شعوراً عاماً بالرضا (يسود بين مسيحيي بيروت ودمشق ومناطق سورية أخرى)، بسبب التقارير عن قرب احتلال بريطانيا لقبرص)، إلا أنهم (المسيحيون) يأسفون لعدم توسيع (بريطانيا) احتلالها ليشمل سوريا، وأن الكثير من المسلمين المحليين يشاركون (المسيحيين) مشاعرهم هذه... وأن خيبة أمل كبيرة ستسود سوريا إذا ما سحب (بريطانيا) قوانها من الجزيرة (قبرص)، مما يقضي على الآمال التي راودت (السوريين) بأن يستفيدوا من حسنات الحكم البريطاني في يوم من الأيام...»^(١٢).

نحن نعتقد أن هذه التقارير غير دقيقة وبالمبالغ فيها. صحيح أن الحرب الروسية - العثمانية وفساد الحكم العثماني (ولاية جودت باشا) سبباً استياء إسلامياً من الحكم العثماني في بلاد الشام، وصحيح أيضاً أن بعض القوى المسيحية في بلاد الشام كانت تأمل أن تؤدي التطورات في المنطقة إلى «تصحيح» أوضاعها، إلا أنها نعتقد مع ذلك بعدم صحة هذه المعلومات. فـ«جمعية بيروت السرية» التي كثفت من نشاطاتها أثناء تلك الفترة في سبيل مشروع «وطن سوري» لم تعلن عن موقف بهذا، كما أن المصادر المتوفرة لا تشير إلى أنها كانت تؤيد سراً احتلالاً بريطانياً لبلاد الشام. ومع ذلك، يذكر الطيباوي أن «الطاقة البروتستانتية المحلية الصغيرة» كانت واثقة من «أن حماية (بريطانيا) على سوريا) وشيكة الواقع»^(١٣). بالإضافة إلى ذلك، فنحن نعتقد بعدم صحة الخبر عن موقف إسلامي مرحب باحتلال أجنبي (بريطاني) لبلاد الشام، وذلك استناداً إلى الأسباب الآتية :

أ - العمومية التي تغلب على التقارير باستعمالها مصطلحات مطاطة «المسيحيون» و«المسلمون المحليون» و«الكثير من المسلمين» وبالمغالتها في وصف الأوضاع والتوقعات في «سوريا»، وهو نمط درج عليه العديد من التقارير البريطانية في تلك الآونة^(١٤). كذلك فهي تتحدث في المطلق، ولا تحدد هذه القوى لناحية الطائفة أو الشريحة الاجتماعية. ولربما كانت هذه التقارير تعكس رغبات الدبلوماسيين البريطانيين ومن يدور في فلكهم من القوى المحلية، دروز وبروتستان، في أن توسع الحكومة البريطانية من سيطرتها في البحر المتوسط لتشمل اليابسة أيضاً (سوريا). إضافة إلى ذلك، لا تحدد هذه التقارير القوى الإسلامية المرحمة بوحلة سوريا - مصرية تحت الاحتلال البريطاني، وإن ربط استياء السوريين من الحكم العثماني وبخاصة المسلمين

منهم برغبتهم في الخضوع لحكم أجنبي (بريطاني) هو مغالطة تاريخية كبيرة، لأن المواقف الإسلامية «المستاءة» من الحكم العثماني لم تكن تصل أبداً في المرحلة الدقيقة التي تتناولها هذه الدراسة إلى درجة الانقلاب على السلطنة واستبدال دولة أجنبية مسيحية بـ «دولة الخلافة». وكما نعلم، فمنذ «التنظيمات» تفاعلت عوامل عدة اقتصادية وسياسية واجتماعية بلورت كراهية إسلامية متامية تجاه الغرب ومسيحيي الداخل^(١٥). وكانت هذه المشاعر تصل إلى ذروتها أثناء حروب السلطنة ضد القوى الأوروبية. فأثناء حرب القرم بين عامي ١٨٥٣ و١٨٥٦^(١٦) عمت مشاعر «الجهاد الإسلامي» بين المسلمين السوريين. وعند اندلاع الحرب الروسية- العثمانية الأخيرة (١٨٧٨-١٨٧٧)، طالب أعيان مسلمون في دمشق بإعلان «الجهاد» ضد روسيا، لكن خشية السلطات العثمانية من أن يؤدي هذا إلى اضطرابات طائفية حال دون ذلك^(١٧). فليس من المنطقي دينياً واستراتيجياً إذن أن تكون مشاعر مسلمي بلاد الشام مع احتلال أجنبي لبلادهم، في وقت كانت فيه دولة الخلافة (الدولة العثمانية) تتلقى الضربات على أيدي القوى المسيحية .

ب - عدم إمكانية أن يتزامن اتجاه الأعيان المسلمين للداء الخطر الأجنبي عن بلادهم في الفترة ما بين نهاية عام ١٨٧٧ وخريف ١٨٧٨ مع حركة نخبوية أو جماهيرية إسلامية أخرى تؤيد الخارج ضد الداخل وترحب باحتلال أجنبي لبلاد الشام . فالមصادر المعاصرة لا تتحدث سوى عن «حركة الأعيان» ما بين عامي ١٨٧٧ و١٨٧٨ ، وعدا ذلك، فإنها لا تشير إطلاقاً إلى مشروع إسلامي انفصالي في تلك المرحلة، وجلّ ما ذكرته - كما سنرى بعد قليل - أن دروز المختارة وحوران كانوا على اتصال مستمر مع القناصل البريطانيين في المنطقة ويعتقدون بقرب فرض بريطانيا حمايتها على «سوريا».

ج - إن الحديث عن ترحيب إسلامي باحتلال بريطانيا لسوريا يتناقض مع تقرير آخر لا يلدريدج بعث به إلى لايارد، سفير بريطانيا في الآستانة، في الثاني من آب ١٨٧٨ ، حيث تحدث من جهة عن توزيع منشورات في دمشق معادية للعثمانيين، وعن «عدم وجود إشارات سخط ضد الحكم العثماني وسط السكان» من جهة أخرى^(١٨) وهذه الملاحظة الأخيرة للقنصل العام لا تنسجم بتاتاً مع رغبة إسلامية سورية في استبدال الحكم البريطاني بالحكم العثماني .

وعلى الرغم من استبعاد بريطانيا «سوريا» من مشروعها الإمبريالي المباشر والاكتفاء بفرض خشية إستفزاز فرنسا وروسيا^(١٩)، فإن هذا الاختيار لم يكن يعني بالضرورة تخليها عن مخططاتها تجاه المنطقة، لا بل كان ينسجم مع إستراتيجيتها في استخدام

قبرص كقاعدة لوجستية للتدخل العسكري السريع في «سوريا» وتركيا الآسيوية، وذلك حفاظاً على مصالحها في المنطقة والمتعارضة مع سياسة روسيا بشكل خاص. ففي ١٦ أيار ١٨٧٨، أبلغ ساليزبوري لا يارد عن الأسباب الكامنة وراء اختيار الحكومة البريطانية قبرص كقاعدة لها وأهمية سوريا وأسيا الصغرى في استراتيجية بلاده الشرق أدنوية (= تجاه روسيا)، فقال^(٢٠): «إن لقبرص... ميزة مزدوجة بأنها تجاور آسيا الصغرى وسوريا وهي ستمكننا عند الحاجة من تجميع المعدات العربية والقوات الضرورية لأجل عمليات في آسيا الصغرى وسوريا دون أي عمل عدائى مكشوف ودون الإخلال بالسلم في أوروبا. وهي»، (قبرص) أضاف ساليزبوري، «سوف لن تثير غيره القوى الأخرى التي قد تشعر بها تجاه أي استحواذ (لنا) على اليابسة».

وبعد اتفاقها مع الدولة العثمانية على احتلال قبرص، أخذت بريطانيا تكشف من نشاطاتها المشبوهة في بلاد الشام والمتوسط وسط شكوك السلطان العثماني بنواليها. فيین تشرين الثاني وكانون الأول من عام ١٨٧٨ ، جال إدوارد مالت (Edward Malet)، سكرتير السفارة البريطانية في إسطنبول، في أرجاء «سوريا». وبين أيلول وتشرين الثاني من العام التالي، قام لا يارد بالرحلة نفسها والتي وصفتها الدبلوماسية الفرنسية آنذاك بأنها كانت لإعطاء الانطباع حول نفوذ بلاده في «سوريا» وإنشاء «خديوية سورية» على نسق مصر تتضمن ولايات سوريا وحلب وبغداد^(٢١). وقد زار لا يارد المدن السورية مستكشفاً حال الإدارة العثمانية وأجرى لقاءات مع رؤساء الطوائف الدينية مستطلاعاً أراءهم في الإصلاحات وشكواهم من فساد الحكم العثماني. وأنباء الرحلة، زار لا يارد دروز المختارة وحوران، الذين كانوا يعتقدون بقرب فرض بريطانيا حمايتها على «سوريا»^(٢٢). وبعد ثلاثة أيام على تلك الزيارة، إندلعت ثورة درزية في حوران، ووجهت أصابع الاتهام إلى الإنكليز بأنهم كانوا يقفون وراءها^(٢٣) وإن قنصلهم في دمشق أقام علاقات متواصلة مع شيخ الدروز في حوران بناءً على طلب حكومته^(٢٤).

إنبقاء «سوريا» ضمن مخططات بريطانيا الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية يتضح من التقارير الدبلوماسية البريطانية التي تحدثت في أيار ١٨٧٩ عن حركة انفصال كبرى عن السلطنة وشيكة الواقع في «سوريا» والعراق وكردستان تؤدي إلى قيام دولة دستورية برئاسة شخصية فرنسية. وقد تحدثت التقارير الدبلوماسية البريطانية عن ضرورة انتهاز الفرصة لأجل الاستحواذ على ميناء في الاسكندرية يرتبط مع دجلة بخط حديدي، وإلى جعل حلب مدينة حرّة^(٢٥). وعلى الرغم من خيالية هذا المشروع لانعدام الشروط الموضوعية لقيام مثل هذا الكيان ذي الخليط البشري (١٢ مليون) والعرقي والطائفي

والمنذهب والاختلافات الثقافية والاجتماعية والمصالح المشتركة والنُّضج السياسي، وفوق كل شيء أن يكون أجنبياً على رأس تلك الدولة المزعومة، بقيت «سوريا» ضمن اهتمامات بريطانيا، هنا في الوقت الذي تمكنت فيه دبلوماسيتها من إيصال رجلها مدحت باشا إلى منصب والي سوريا^(٢٦).

ثانياً: تقاطع مشروع «الخديوية السورية» (مدحت باشا) و «الوطن السوري» (جمعية بيروت السرية) وردود الفعل الإسلامية

بعد انتهاء الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة و استجابة لتذمر السوريين من فساد الإدارة المحلية ومطالبهم بإصلاحات ، عزل السلطان عبد الحميد الثاني واليه على سوريا جودت باشا وعين محله مدحت باشا (١٨٢٢-١٨٨٣) تحت ضغط بريطاني ، وذلك في تشرين الثاني عام ١٨٧٨ ، أي بعد أقل من عامين على عزل هذا الأخير من منصبه في الصدارة العظمى . وقد حضر مدحت باشا إلى «سوريا» واضعاً نصب عينيه هدفاً رئيسياً وهو استعادة اعتباره السياسي في الأستانة . وفي سبيل ذلك ، سار في خطوة مزدوجة: خلق إدارة محلية موالية له متحررة من سلطة الأستانة ، والحصول على صلاحيات مطلقة في حكم ولاية سوريا كالتي تتمتع بها أثناء ولايته على الدانوب وبغداد^(٢٧) .

وبعد قليل على تسلمه باشوية سوريا ، وصلت إلى الباب العالي تقارير سرية تتحدث عن مساعي مدحت باشا لاستقطاب معارضين سوريين للحكم العثماني حوله وعن انتقادات علنية يوجهها إلى الحكومة العثمانية وإنه يوزع المناصب على أعيونه وحاشيته ويجري مقابلات مستمرة مع القنصل البريطاني في بيروت^(٢٨) . وبلغت ذروة هذه الاتهامات بالحديث عن مشروع مؤامرة لمدحت باشا بالتنسيق مع الإنكليز لفصل «سوريا» عن السلطنة وجعلها خديوية على نسق مصر بزعامته^(٢٩) . هل كان مدحت باشا يخطط بالفعل للاستقلال بـ «سوريا» ، وهل كان الإنكليز حلفاء في هذا المشروع وماذا كانت فرص نجاحه ؟

بالرجوع إلى بعض المصادر ، نرى إشارات واضحة عن نوايا مدحت باشا الاستقلالية . فالصحافي سليم سركيس ، الذي أقام في دمشق عام ١٨٨٧ يؤكّد «أن مدحت باشا أراد اختبار استعداد السوريين للثورة توطئة للاستقلال بشؤون سوريا على نحو استقلال مصر ، فاستخدم من أخصائه أحمد مهدي الأيوبي وحسن فائز الجابي ، لاجتذاب بعض الشبان الأذكياء وتأليف جمعية سورية لنشر إعلانات يختبر مدحت باشا

بواسطتها ميول السوريين . . . »^(٣٠). كذلك يؤكد جابر آل صفا أن مدحت باشا « . . . حدثه نفسه الطموحة أن يستأثر بسوريا ويكون فيها إمارة عربية يكون هو على رأسها حاذياً حذو محمد علي في مصر . فأخذ يبحث بين مفكري العرب وذوي الرأي فيها فكرة الاستقلال والانفصال عن السلطنة العثمانية، وقرب إلىه من زعماء جبل عامل خليل بك الأسعد ونجيب بك الأسعد وغيرهما من الأعيان، فأولاً لهم الوظائف والرتب . وعمل على بث فكرة الانفصال بين العاملين وإعداد معدات الانقلاب»^(٣١). وفيما يذكر عادل الصليح أن مدحت باشا « . . . أخذ يقترب الرعماء الشاميين الواحد تلو الآخر ويقربهم منه» و منهم والده منح الصلاح، أحد زعماء حركة الأعيان^(٣٢)، وأن مدحت باشا « . . . مضى يشاعي الميول التحريرية الناقمة يومئذ في البلاد»^(٣٣)، ينقل المؤلف في الوقت نفسه عن والده قوله، إن مدحت باشا كان مخلصاً للدولة العثمانية ولم تكن لديه ميول انفصالية ولم يكن يريد أن يخلق انقساماً جديداً في السلطنة وتأسيس ولاية مستقلة على غرار محمد علي في مصر^(٣٤). إضافة إلى ذلك، أكد أسد رستم أن مدحت باشا كانت له نوايا للاستقلال بـ « سوريا»^(٣٥)، فيما يذكر شوكلا أن الأرشيف البريطاني (P.R.O.) يحتوي على وثائق باللغتين العربية والعثمانية تؤكّد ضلوع مدحت باشا وبريطانيا في مشروع فصل « سوريا» عن السلطنة العثمانية^(٣٦).

وبالمقابل، تبرز آراء أخرى معاصرة ترفض تلك النظريات وترى أن مدحت باشا لم يكن يخطط للاستقلال بـ « سوريا»^(٣٧) وأن تحركاته المريرية، كإشعاعه جو من الاضطراب في الولاية، تارة بتخويف الباب العالي من تنامي التفوذ الأجنبي فيها^(٣٨)، وتارة أخرى بإثارة الصحافة المحلية ضد الحكومة العثمانية، كانت كلها تكتيكاً للضغط على الباب العالي في سبيل الحصول على صلاحيات مطلقة لحكم ولايته . وقد وصل ذروة « تكتيكه» بتقاديمه استقالته إلى الباب العالي للمرة الثانية في شهر أيار ١٨٨٠ . هذه الاستقالة التي تزامنت مع ظهور المنشير الثورية المعادية للعثمانيين والداعية للاستقلال الذاتي لـ « سوريا»^(٣٩).

في بين مطلع حزيران وأخر كانون الأول عام ١٨٨٠ ، ظهرت في بيروت ودمشق وصيدا وطرابلس ومدن سورية أخرى مناشير ثورية هدفت إلى تحريك مشاعر السوريين، مسلمين ومسحيين، في اتجاه « وطن سوري » يضم « سوريا» و« لبنان» . فخاطبتهم بـ « أبناء سوريا» و « أهل الوطن» ، وناشدت نخوتهم العربية وحميتها السورية في سبيل السعي للحصول على الاستقلال الذاتي من العثمانيين، معتبرة إدعاء السلطان العثماني بالخلافة اغتصاباً للحق العربي (« وعلى قواعد لفلكم 'العرب' بنيت أصول الخلافة التي

اختلستها الأثراك»)، كما ورد في أحد المنشير^(٤٠).

وأمام الاضطراب (الجيشان الفكري - السياسي) والشائعات والأخبار التي كانت ترورج هنا وهناك نتيجة لما أفرزته الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة، ساد الغموض في حينه وما انفك قائماً حتى ظهور مادة وثائقية جديدة حول علاقة مدحت باشا بهذه المنشير. فالتقارير البريطانية تناقض بعضها بعضاً. فهي تعزو المنشير إلى مدحت باشا تارة، وإلى جمعية المقاصد الخيرية في صيدا تارة أخرى^(٤١)، فيما تخلط التقارير الفرنسية بين «جمعية بيروت السرية» (المسؤولة عن المنشير) وحركة الأعيان المسلمين^(٤٢). إضافة إلى ذلك، يربط مؤرخ معاصر بين اتصالات أمير مكة ببلاد الشام عام ١٨٧٩ لكسب مؤيدين لمشروع دولة عربية برئاسته وبين مشروع «جمعية بيروت السرية» الداعي إلى استقلال ذاتي في «سوريا»^(٤٣). وفي ضوء ما توصلنا إليه من أن حركة الأعيان المسلمين التي ظهرت كنتيجة للحرب الروسية - العثمانية واحتمال انهيار السلطنة ثم غابت عن الساحة مع تلاشي هذه الاحتمالات، فمن المؤكد أن لا علاقة للأعيان المسلمين كحركة بمسألة المنشير وإن كان ورد إسم حسين بهم مرة كعضو في «جمعية بيروت السرية» ومرة أخرى مع الشيخ أحمد عباس الأزهري ومنح الصلح كأعضاء في المحفل الماسوني في بيروت^(٤٤). وهذا يعني أن مسؤولية المنشير تبقى محصورة بين جمعية المقاصد في صيدا و«جمعية بيروت السرية».

وعلى ما يبدو، فإن اجتماعات مدحت باشا المتكررة بمنع الصلح ذات الطابع السياسي وتأسيسه معه وأخرين «الجمعية الخيرية الإسلامية» في صيدا (المقاصد)^(٤٥)، جعلت بيeman (Beaman)، نائب قنصل بريطانيا في بيروت، يعتبر الجمعية المذكورة «أداة سياسية» بيد مدحت باشا^(٤٦)، وإنها وراء المنشير الثورية برأي رئيسه ديكسون (Dickson)^(٤٧). كذلك، صبت التقارير الفرنسية في الاتجاه نفسه إستناداً إلى خلافات كانت قد حصلت في صيدا بين بعض أعيانها والقائمقام العثماني حول مسألة الترشيح لعضوية محكمة القضاء العليا وتورط عائلتي المجدوب والجوهري السنين في تنظيم العرائض ضد القائمقام العثماني ونشر الشعب^(٤٨). إن إنتماء بعض أفراد عائلة الجوهري إلى جمعية المقاصد في صيدا^(٤٩) وتزامن حادثة صيدا مع ظهور المنشير، جعلا القنصل الفرنسي العام في بيروت يعزّز تلك المنشير إلى هذه الجمعية، التي رآها تسعى لأهداف سياسية بحثة وإن أعضاء معينين فيها شاركوا في إصدار المنشير لإثارة الحقد ضد الحكم العثماني^(٥٠).

إن محاولة إلصاق مسألة المنشير بجمعية المقاصد في صيدا أو بالمسلمين أو

بعضهم لا تقتصر على التقارير القنصلية المعاصرة. فالمؤرخ الطيباوي، يرى أن المنشور الشوري الثالث (تاریخ ٣١ كانون الأول ١٨٨٠) كان على الأقل من «صنع إسلامي» بسبب تطرقه إلى مسألة «اغتصاب» العثمانيين للخلافة، إذ ليس من المنطقي، كما يذكر، أن يهتم مسيحيون بمسألة الخلافة الإسلامية^(٥١). ونحن نعتقد أن تطرق المنشاير إلى مسألة الخلافة كان لجذب المسلمين إلى مشروع «الوطن السوري»، لأن فكرة خلافة عربية، كما يقول المؤرخ محمود سمرة، كانت تساعد على «... خلق وجдан عربي بين المسلمين يؤدي إلى تقارب بينهم وبين المسيحيين» حول مشروع «الوطن السوري»^(٥٢). ومن المؤكد أن نجاح مشروع «الوطن السوري» كان يتوقف في الدرجة الأولى على رضى المسلمين. ولهذا، كانت هناك مساعٍ مسيحية للتسوية مع المسلمين حول مفهوم «الأمة الإسلامية» وفكرة «الوطن السوري». وفي هذا المعنى ثفهم كونفيدرالية يوسف كرم، ومشروع نجيب عازوري فيما بعد^(٥٣). فالأول سعى إلى «كانتون» يؤكد على «الخاصية» المارونية في جبل لبنان مع ارتباط «أدبي» بالمحيط الإسلامي، فيما روج الثاني لمشروع خلافة عربية في الحجاز ودولة قومية عربية في بلاد الشام والعراق^(٥٤). وبناءً على ذلك، فإن ضرب المنشاير على هذا الوتر الحساس (عروبة الخلافة) لا يعني بالضرورة أن مؤلف المنشور هو مسلم. فالمنشور المذكور، كما يرى المستشرق شتبت، يحتوي على أبيات شعرية معروفة للشاعر إبراهيم الياجي^(٥٥) ولم يدع أحد أنها من نظمه^(٥٦).

إضافة إلى ما ذكرناه، فقد تصدى المؤرخ كوثرياني لنظرية «إسلامية» المنشاير ورأى أنها لا تعكس الواقع السياسي السائد آنذاك. فنفي تورط جمعيتي مقاصد صيدا أو بيروت بها واستنتاج أن تقارير القنصل كانت تستند إلى «أخبار وشائعات» عن طريق مخبرين محليين وأن ما أورده القنصل البريطاني العام في بيروت في إفحام جمعية المقاصد في صيدا بمسألة المنشاير^(٥٧) كان نتيجةً للتباش ووشاشة وتزامن ظهور المنشاير مع حادثة آل الجوهري ومجذوب في صيدا^(٥٨). ويضيف هذا المؤرخ، إن تأسيس جمعية المقاصد في صيدا جاء نتيجةً إحساس إسلامي بالخطر الثقافي الأجنبي باعتباره وسيلة من وسائل التغلل الاستعماري، ولهذا، فلا يمكن أن تكون الجمعية المذكورة وراء دعوة انفصالية تستفيد منها دول الاستعمار الساعية إلى تقسيم الدولة العثمانية^(٥٩). ويعتقد كوثرياني، إن إفحام اسم جمعية المقاصد (وشاشة الرجل المسيحي الصيداوي إلى الوالي أحمد حمدي باشا) كان لتغطية التحرك المسيحي المعادي للعثمانيين^(٦٠).

إن مسؤولية «جمعية بيروت السرية» التي تأسست عام ١٨٧٦ عن المنشاير هي

الأقرب إلى الواقع. فرواية فارس النمر (أحد أعضائها) في هذا الصدد واضحة^(٦١). فالجمعية المذكورة ذات التّنّبُخ المسيحيّة المدينيّة^(٦٢)، التي درست في الكلية السوريّة الإنجيلية، كانت تسعى أولاً لتحرير «لبنان» من الحكم العثماني، ثم طورت فكرتها لتشمل «سوريا» (الوطن السوري)، من خلال استقطاب المسلمين لهذا المشروع الانفصالي حول فكرة «الوطن»، التي كان بإمكانها أن تجمع ما بين مسيحيي البلاد ومسلميها ضد الحكم العثماني. وإن استخدام الجمعية المذكورة المحفل الماسوني في بيروت كـ«فح» لاستقطاب بعض المسلمين لم يؤد إلى تغيير في تركيبتها الطائفية (المسيحية) ولا في إيديولوجيتها السياسيّة. فحسين بيهم، كما أشرنا سابقاً^(٦٣)، كان المسلم الوحيد بين أعضائها، في حين كان أحمد عباس الأزهري ومنح الصلح ماسونيين دون أي دليل على انضمامهما إلى الجمعية المذكورة. وكما ينقل المؤرخ زين عن فارس النمر، فإن الطلاق بين المسلمين والمسيحيين (بين حسين بيهم فقط وأعضاء الجمعية) سرعان ما وقع. فال المسيحيون والMuslimون، كما يقول زين، اتفقوا «... على محاربة الظلم التركي واستبداده... غير أنهم اختلفوا على الهدف الأعلى للجمعية، وهو طرد الآثراك من ولاية سوريا»^(٦٤).

أما بالنسبة لعلاقة مدحت باشا بموضوع المناشير، فهذا الوالي وإن لم يكن هو شخصياً وراءها، إلا أنه كان وحسب الوثائق الفرنسية وراء تحريض السوريين والصحافة المحلية ضد الحكم العثماني^(٦٥). فمناخ الحرية الفكرية - السياسية الذي أشاعه مدحت باشا، ساعد «جمعية بيروت السرية» على طرح أفكارها والترويج لها. ويرى المؤرخ شامير، أنه يمكن اعتبار مدحت باشا مسؤولاً عن المناشير. فعندما قدم استقالته الثانية إلى الباب العالي في نهاية أيار عام ١٨٨٠، ظهرت أولى المناشير. ومع تأزم علاقته مع الحكومة العثمانية في الأسابيع التالية بشأن حصوله على صلاحيات مطلقة للحكم، ظهر المزيد منها^(٦٦). كذلك، لم يعمل الوالي على اكتشاف مصدر المنشير ولم ينزعج منها^(٦٧). وفي ٢٨ حزيران و ٣ تموز ١٨٨٠، أكد كل من القنصل ديكسون وإبكاريوس، ترجمان القنصلية البريطانية العامة في بيروت، على مسؤولية مدحت باشا عن المناشير، لأنها كانت تخدم أهدافه في الضغط على الباب العالي لمنحه الصلاحيات المطلقة، وأيضاً، لحث الدول الكبرى على تبني قضيته وخصوصاً بريطانيا^(٦٨).

وبغض النظر عن مسؤولية «جمعية بيروت السرية» أو «الجمعية الخيرية الإسلامية» في صيدا عن المناشير، فإن تقريراً آخر لديكسون (١٧ كانون الثاني ١٨٨١) يشير إلى دور مزدوج لمدحت باشا مع الجمعيتين. فقد كتب القنصل العام المذكور بعد عزل

مدحت باشا عن ولاية سوريا وتعيينه على ولاية إزمير يقول : « فقد أُخِبِرْتُ بأنَّ الجمعية الثورية (جمعية بيروت السرية) هي التي تسببت في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية ، وإن مدحت باشا كان سرًا أحد أعضائها ، وأنه هو الذي أسسها ورعاها ، لكي يعزز نشاط الجمعية الثورية ويعضدها... إن مدحت باشا لا يزال على اتصال وثيق بالجمعية (جمعية المقاصد) ، بالرغم من أنه الآن في إزمير . ويقال أيضًا إن له ضلعاً في توزيع هذه المناشير في سوريا بواسطة عملائه السريين ... »^(٦٩).

إذا كانت المناشير مسألة تكتيك استخدمه مدحت باشا لتحقيق غايات سياسية ، فهل كان يخطط بالفعل للاستقلال بـ « سوريا » بدعم بريطاني ، وهو ما أكدت عليه الدبلوماسية الفرنسية آنذاك^(٧٠)؟ برأينا ، إن نجاح مشروع خديوية سوريا برئاسة مدحت باشا كان يتطلب شرطين متلازمين : عَوْن خارجي وخصوصاً من بريطانيا ، وتتوفر قوى عسكرية واجتماعية محلية تدعمه . وكلا الشرطين كانوا غير متوفرين . وكما رأينا سابقاً^(٧١) ، فقد انصب اهتمام بريطانيا أثناء الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة على الحصول على قاعدة في المتوسط للدفاع عن مصالحها في السويس وطريق الهند . وبعد احتلالها لقبرص ، لم تعد تفك في احتلال « سوريا » ، حيث إعتبرت أن وجودها في قبرص يوفر لها إمكانية الدفاع عن مصالحها في « سوريا » وأسيا الصغرى ضد أي تمدد روسي باتجاه البحر المتوسط . وفي أعقاب استحواذها على قبرص ، أصبحت مصر وليس « سوريا » هدفًا إستراتيجياً بريطانياً . كما أن وصول غلادستون (Gladstone) في نيسان ١٨٨٠ إلى رئاسة الوزارة البريطانية وكراهيته المزدوجة المعروفة لكل من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ومدحت باشا ، جعل الحكومة البريطانية الجديدة تتوقف عن تقديم دعمها الدبلوماسي لمدحت باشا في « سوريا »^(٧٢) . وأدى هذا التحول في السياسة البريطانية إلى عزل لا يارد عن منصبه كسفير بلاده في الأستانة ، مما أفقد الوالي العثماني مزيداً من الدعم^(٧٣) . ولذلك ، فمن المستبعد وفي ضوء المادة الوثائقية المتوفرة ، أن تعمل بريطانيا بعد استيلائها على قبرص على جعل « سوريا » خديوية برئاسة مدحت باشا . فبعدما أمن وجودها في قبرص حمایة قناة السويس من جهات سوريا الشمالية وأسيا الصغرى ، انصب اهتمامها بعد ذلك على حماية قناة السويس من جهة البحر الأحمر والجزيرة العربية (طريق السويس - البحر الأحمر - المحيط الهندي) . ولهذا ، كما سرر^(٧٤) ، كانت بريطانيا تعمل أثناء رواج الشائعات عن خديوية سوريا على فرض حمايتها على الحجاز وإقامة خلافة عربية هناك .

إضافة إلى ما ذكرناه أعلاه ، كانت فرص نجاح « خديوية سوريا » برئاسة « عثماني »

(مدحت باشا) وبعون خارجي ودون دعم عسكري - اجتماعي محلي ضئيلة، بل مستحيلة. فكما هو معروف، لم تكن قيادة الفيلق العثماني الخامس المرابط في «سوريا» تخضع لسلطة الوالي العثماني، بل لضابط كبير مقره دمشق ترسله الآستانة ويكون على اتصال مباشر بها^(٧٥). ولهذا، فعندما وصلت التقارير إلى إسطنبول والتي فيها بأن مخططاً يحاك بين مدحت باشا والمشير أحمد أيوب، قائد الفيلق الخامس، بهدف الاستقلال بـ«سوريا»^(٧٦)، ونتيجة لشكوكه بنوايا بريطانيا في بلاد الشام بعد تحركاتها المريبة في أعقاب مؤتمر برلين وخاصة الحفاوة التي استقبل بها لا يارد من قبل مدحت باشا وحاشيته أثناء زيارته إلى «سوريا»، سارع السلطان عبد الحميد الثاني إلى عزل مدحت باشا ومعه المشير أحمد أيوب عن منصبهما وعيّن حسين فوزي قائداً للفيلق الخامس وكلفه الإشراف على مسألة مغادرة مدحت باشا إلى إزمير^(٧٧).

كانت الخطوة الأولى للمشير فوزي عند وصوله إلى «سوريا» هي تحديد القوى العسكرية خشية حدوث ردود فعل مؤيدة لمدحت باشا. لكن سرعان ما تبين له عدم الحاجة إلى ذلك وأن إزاحة الوالي عن السلطة لم يقابلها رد معاكس من قبل السكان المحليين^(٧٨)، مما يؤكد غياب قوة اجتماعية سورية يمكن أن ترتبط مصالحها مع حركة انفصالي كهذه، أو قادرة على تنفيذها. وهذه القوة الاجتماعية يمثلها من دون شك مسلمو البلاد، الذين نظروا بريبة إلى نوايا مدحت باشا الاستقلالية وعليهم كان يتوقف نجاح أي مشروع انفصالي أو فشله. فرغم انتقاداتهم للإدارة العثمانية، كان مسلمو بلاد الشام يجدون في الارتباط بالدولة العثمانية بعداً دينياً - إستراتيجياً يضمن مستقبلاً لهم تجاه آية محاولة لاستعمارهم من قبل دولة أجنبية مسيحية ورأوا في «دولة الخلافة» تقوية للإسلام وأن الإجهاز عليها معناه القضاء على آخر حلقات التاريخ الإسلامي^(٧٩).

إن تأكيد مسلمي بلاد الشام على تقدم إسلامهم على عروبتهم كرابط بينهم وبين العثمانيين يتضح من خلال دعمهم للسلطنة في المسألة الشرقية عام ١٨٧٦ وشجبهم حملة بريطانيا (غلاستون) على ما يسمى بـ«المذابح البلغارية» ومطالبتهم بإعلان «الجهاد» ضد روسيا عام ١٨٧٧^(٨٠). هذا الموقف الإسلامي سرعان ما تبلور في حملات شنّوها ضد مدحت باشا، حيث هُوِّجَ على المنابر^(٨١) وأُتُّهم بالكفر وترويج البدع وتحطيم الإسلام بفصله الدين عن الدولة نتيجة لسياساته العلمانية وأرائه الجمهورية والاشراكية ومساواته المسيحيين بال المسلمين وإضعاف الأعيان المسلمين بإحلال مسيحيين و المسلمين محلهم من أعوانه وحاشيته، هذا فضلاً عن محاولته إلغاء إمارة الحج^(٨٢). وقد رأى المسلمون في سياسة مدحت باشا إخلالاً بالتوازن القائم لمصلحتهم^(٨٣).

ويذكر شامير، نقلًا عن تقارير قنصلية بريطانية معاصرة، أن سياسة مدحت باشا الإصلاحية ومحاولته إثارة النعرتين «السورية» و«العروبية» لم يكن لها تأثير على المجتمع المحلي^(٨٤).

وعندما وزعت «جمعية بيروت السرية» مناشيرها الثلاثة ما بين حزيران وكانون الأول ١٨٨٠ داعية إلى الاستقلال الذاتي و«جمعية حفظ حقوق المملكة العربية» منشورها في آذار ١٨٨١ تحت فيه السوريين على التخلص من الحكم العثماني واستبدال «السيادة العربية» بالسيادة العثمانية^(٨٥)، وقف مسلمو بلاد الشام بحزم إلى جانب الدولة العثمانية ورفضوا التعاطف مع هاتين الحركتين الثوريتين على الرغم من قواسم «العروبة» التي جمعتهما معاً^(٨٦). ويذكر زين «إن أقلية صغيرة متournée طموحة غير إسلامية أرادت أن تستبدل العربية بالسيادة العثمانية... و (لكنها)... لم تكن تمثل رأي الأكثريّة الساحقة من العرب المسلمين الذين نظروا في الأساس إلى تركيا كمسلمين... وإن هذه الأكثريّة الإسلاميّة الساحقة من العرب المسلمين لم تشارك في أيّة محاولة لفصل العالم العربي عن السيادة التركية»^(٨٧). وقد أكدت التقارير القنصلية البريطانية أن المنشير المذكورة كان لها تأثير ضعيف على أهالي دمشق وبيروت^(٨٨). وبعد ظهور المنشور الثالث لجمعية بيروت السرية في ٣١ كانون الأول ١٨٨٠، بعث أعيان المسلمين من مختلف طوائف بيروت ومن بينهم زعماء عائلة بيهيم عريضة إلى والي سوريا أحمد حمدي باشا -١٨٧٥- ١٨٧٦، ١٨٨٥-١٨٨٠ يستنكرون استمرار ظهور المنشير ذات الأفكار الهدامة ويطالبونه بالضرب بيد من حديد على مروجيها^(٨٩). كما بعث مسلمو بيروت وأثرياؤها رسائل إلى السلطان العثماني يؤكدون فيها على ولائهم له وعلى رابطة الإسلام التي تشدّهم إلى الدولة العثمانية^(٩٠). ومن جهته، رحب السلطان عبد الحميد بموافقت المسلمين في بيروت وأرسل إليهم أحد أعوانه، أحمد راتب باشا، لشكرهم على إخلاصهم وولائهم للدولة العلية^(٩١).

ويعود انتهاء السلطان عبد الحميد من المشاريع الانفصالية في «سوريا»، دشن سياسة الجامعة الإسلامية التي كان الهدف منها تدعيم نظامه الداخلي بإبعاد مسلمي السلطنة وبخاصة أولئك في بلاد الشام، عن أية ميول وطنية أو «قومية». فعملت أجهزته الدعائية على التأكيد على الوشيعة الدينية التي تربط بين السوريين (العرب) والعثمانيين وعلى وجوب إطاعة خليفة المسلمين في سبيل التصدي للأعداء الخارجيين والداخليين^(٩٢).

ففي كتابه «داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والإنقاذ» حاول أبو الهوى الصيادي، شيخ الطريقة الرفاعية وأحد أبرز العرب المقربين إلى السلطان، أن يبحث السوريين ومسلمي

السلطنة على وجوب إطاعة «الخلافة العثمانية» التي تتعرض لهجوم الغرب وأعداء الداخل. فكتب يقول : إن «... الطاعة لل الخليفة فريضة إسلامية رئيسية. وبخاصة في الظروف التي كانت تتعرض فيها الدولة لهجمات من الأعداء الخارجيين ، ولفتن وتمردات من الخوارج والبغاة والمنشقين والمبتدعين في الداخل. فمن أجل مصلحة الأمة ووحدتها وسلامها على المسلمين أن يطيعوا خليفتهم كما أمر الله وأمر رسوله»^(٩٣).

وبدوره اعتبر الشيخ حسين الجسر(من طرابلس) في كتابه «الرسالة الحميدية» السلطان العثماني الحامي للدين الإسلامي وأمير المؤمنين ونصير الشريعة وخليفة الله . وقد دافع الجسر عن السلطنة التي رأها تمثل الإسلام ضد خصومها الغربيين ، وأطلق ذلك من موقع شرعي وهو الولاء لل الخليفة ومن مبدأ سياسي وهو الوقوف إلى جانب الأمة في صراعها ضد أعدائها^(٩٤).

حواشی الفصل الثاني

- Shimon Shamir, Midhat Pasha and the Anti-Turkish Agitation in Syria, in: *MES* 10, (1) 2(1974), p 130.
- (٢) أنظر فوق ص ٢٤ .
- (٣) أنظر فوق ص ٢٤ - ٢٥ .
- (٤) خلال العصر العثماني، لم يكن هناك مصطلح دقيق يُعرف بـ «أرمينيا». وعلى العموم يُشار إلى أرمينيا من خلال الولايات العثمانية التالية : وأن ويلتيس وأضروم وديار بكر وخربوط وسيواس. كذلك عاش الأرمن في ولايات طرابزون وأضنه وأجزاء من قارس وأريكان، أنظر: Armenia and Kurdistan, London 1920, p 1.
- Hurewitz, vol. I, p 411.
- (٥)
- Anderson, op. cit., p 208.
- (٦) نقلًا عن:
- (٧) انظر فوق ص ٢٤ .
- (٨) في تشرين الثاني عام ١٨٧٥ ، اشتربت بريطانياً أسهم مصر في قناة السويس بمبلغ أربعة ملايين جنيه استرلينية. ومنذ افتتاح القناة، عملت بريطانيا على الاستفادة منها أكثر من أيّة دولة أخرى. ففي عام ١٨٧١ بلغ حجم السلع البريطانية المستخدمة لهذا المعبر المائي ٥٤,٦٥٣ طنًا، وما لبث أن ارتفع إلى ١,٤٥٤,٢٩٨ طنًا عام ١٨٧٥ وإلى ١,٨٣٩,٨٣٩ طنًا في عام ١٨٧٧ . وكان معنى هذا، أن ٩٥ ، ٧٨٪ من السلع المارة في قناة السويس بريطانية المنشأ، راجع:
- Paul Dehn , Deutschland und Orient in ihren wirtschaftspolitischen Beziehungen, I., Nach dem Orient, München/Leipzig 1884, pp 135-136; D.A. Farnie, East and West of Suez. The Suez Canal in History 1856-1956, Oxford 1969, p 751.
- (٩) نقلًا عن: Halford Lancaster Hoskins, British Routes to India, N.Y. ect. 1928, p 437.
- Günter Behrendt, Nationalisms in Kurdistan, op. cit., p 297; Clayton, p 157; Shamir, (١٠) op. cit., p 124; Hurewitz, I., p 414.
- (١١) الطيباوي، نصوص وحقائق ص ٧٨١ .
- (١٢) F.O. 78/2848, Elridge to Salisbury, political no. 57, Alieh 18.7.1878 (٤) .
- Tibawi, op. cit., p 154.
- (١٣)
- (١٤) أنظر تحت ص ٧١ - ٧٢ ، حيث يأتي الحديث عن مشروع دولة (١٨٧٩) تضم الشام والعراق وأجزاء من إيران بخليط بشري من ١٢ مليون نسمة.
- (١٥) راجع في هذا الخصوص دراستي «تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية»، «المنهج»، ٤(١٩٩٧) ص ١٤٩ - ١٠٨ ، و٥(١٩٩٧) ص ٨٥ - ١٣١ .

- Steppat, Kalifat, op. cit., p 461; Ma'oz, Ottoman Reform p 247, no. 2. (١٦)
- Gross, I., pp 218-219. (١٧)
- F.O. 78/2848, vol. 2, *Eldridge to Layard*, no. 74, Alieh 2.8.1878. (١٨)
- Tibawi, op. cit., p 154. (١٩)
- Hurewitz, I., p 411. (٢٠) نقلً عن:
- Ismail, Documents T 14, *Delaporte à Waddington*, no. 22, Beyrouth 9.10.1879, pp 113-115. (٢١)
- Tibawi, p 154. (٢٢)
- Shakeeb Salih, The British - Druze Connection and the Druze Rising of 1895 in the Hawran, in: MES, 13, 2(1977), pp 252-253; Gross, I., pp 290-291; Ismail, Documents T 14, *Sienkiewicz à Freycinet*, no. 55, Beyrouth 15.9.1880, p 223f. (٢٣)
- (٢٤) الوثيقة السابقة في عادل إسماعيل ص ٢٢٨.
- F.O. 424/81, J. Aberich Mackay to Lyons, inclosure no. 2, 20.2.1879; Lyons to Salisbury, secret, no. 255, Paris 4.3.1879, inclosure memorandum 1. (٢٥)
- وعلى الرغم من أن التقريرين يتحدثان عن شخصية فرنسية لعرش تلك الدولة، إلا أن تقارير فرنسية أخرى تحدثت عن مشروع دولة تضم ولايات حلب وسوريا وبغداد واليمن وغيرها برباسة الجزائري. ولا نعرف ما إذا كان الجزائري هو المعنى بمشروع الدولة الأولى، أنظر:
- Ismail, Documents T 14, *Delaporte à Waddington*, no. 22, Beyrouth 9.10.1879; p 115.
- «Son rôle (Midhat Pacha) est le servir d'instrument aux Anglais» (٢٦)
- هكذا يصف قنصل فرنسا العام في بيروت مدحت باشا، أنظر:
- Ismail, Documents T. 14, *Sienkiewicz à Freycinet* no. 4, Beyrouth 2.6.1880, p 193.
- ويذكر شامير (ص ١٢٢) أن بريطانيا فرضت تعين مدحت باشا على ولاية سوريا وأن السلطان عبد الحميد قرر الإبقاء على واليه إلى حين.
- Shamir pp 115,136. (٢٧)
- (٢٨) المرجع السابق ص ١١٧-١١٨، وقارن بـ Gross I, p 312
- «Quant à Midhat Pacha, la voix publique, et c'est déjà là un signe du temps , lui prête l'intention de vouloir se constituer, avec l'aide et sous la protection de l'Angleterre, une situation indépendante, une sorte de vice-royauté ayant quelque analogie avec celle de l'Égypte» Ismail, Documents, T 14, *Sienkiewicz à Freycinet*, no. 45, Beyrouth 12.5.1880, p 180. (٢٩)
- (٣٠) نقلً عن الطيباوي، نصوص وحقائق ص ٧٨٢-٧٨٣.
- (٣١) جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل ص ١٧٢ و ٢٠٩.

Najib E. Saliba, The Achievements of Midhat Pacha as Governor of the Province of (٣٢) Syria 1878-1880; in: *IJMES* 9(1978), pp 320-321.

(٣٣) عادل الصلح ص ١٣٩.

(٣٤) المرجع السابق ص ١٤٠.

(٣٥) أسد رستم، مرجع سابق ص ٢٥٣.

Ram Lakhram Shukla, Britain, India and the Turkish Empire 1853-1882, New Delhi (٣٦) ect. 1973, p 245.

Salībā, Sūriyya, op. cit., p 131. (٣٧)

(٣٨) عوض، مرجع سابق، ملحق رقم ٨ «تقرير مدحت باشا عن أحوال ولاية سوريا عام ١٨٧٩»، ص ٣٥٢؛ نادر العطار، تاريخ سوريا في العصور الحديثة، دمشق ١٩٦٢، ص ٣٢٣ وما يليها.

Gross I, pp 311-312. (٣٩)

(٤٠) الطيباوي، نصوص وحقائق ص ٧٨٧-٧٨٩.

Shamir pp 132-133. (٤١) زين زين، نشرء القومية العربية ص ٦٤-٦٥ و

(٤٢) كوثراني، السلطة والمجتمع ص ١٣٧-١٣٨.

(٤٣) الطيباوي، نصوص وحقائق ص ٧٨٦-٧٨٧. وراجع الفصل الثالث من الكتاب.

Steppat, Eine Bewegung, pp 643, 648. (٤٤)

(٤٥) الصلح ص ١٣٥-١٣٦.

«... as a political instrument...», Shamir p 133. (٤٦)

(٤٧) زين، نشرء القومية العربية ص ٦٥.

Ismail, Documents T 14, *Sienkiewicz à Barthélémy-Saint-Hilaire, no. 63, Beyrouth* (٤٨) 30.12.1880, pp 249-252.

(٤٩) ضمت جمعية المقاصد في صيدا كُلًاً من منح الصلح ومحمد منيب الصلح ومحب الدين وحسين وحسن الجوهري وناصيف الأسعد وعبد الله عبد اللطيف لطفى ومحمد محى الدين حشيشو ومحمد كامل المغربي ومحمد خورشيد وعمر نحولى ومحمد عبد الهادى عبد السلام ومحمد التعمانى، أنظر حاشية ص ١٣٦ من كتاب عادل الصلح.

Ismail, Documents T 14, *Sienkiewicz à Barthélémy-Saint-Hilaire, no. 63, Beyrouth* (٥٠) 30.12.1880, p 252.

(٥١) الطيباوي، نصوص وحقائق ص ٧٩٠.

(٥٢) وقارن بزین، نشرء القومية العربية ص ٦٠-٦١. Samra, Pan-Islamism, op. cit., p 20

Nagib Azoury, Le réveil de la nation Arabe, Paris 1905. (٥٣)

(٥٤) علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب بيروت ١٩٨٧، ص ١٣٤-١٣٥.

- Steppat, Eine Bewegung, pp 642-643. (٥٥)
- (٥٦) جلّ ما ذكره المعاصرون ومنهم سليم سركيس أنه من صنع إسلامي دون أن يحددو صاحبه، أنظر الطيباوي، نصوص وحقائق ص ٧٨٦.
- (٥٧) زين، نشوء القومية العربية ص ٦٤.
- (٥٨) كوثاني، السلطة والمجتمع ص ١٤٠.
- (٥٩) المرجع السابق ص ١٣٩.
- (٦٠) كوثاني، الاتجاهات الاجتماعية - السياسية، مرجع سابق ص ١٤٢.
- (٦١) زين، نشوء القومية العربية ص ٦٢.
- (٦٢) من الأعضاء البارزين في «جمعية بيروت السرية»، إلى جانب فارس نمر، إبراهيم الحوراني ويعقوب صروف وإبراهيم البازجي وشاهين مكاريوس وضاهر الزعني وأمين مغيفب ومراد البارودي وأمين أبو خاطر وملحم فريحان وبشاره زلزل وسليم موصلبي وداود نحول والمبشر الأميركي كونييليوس فان دايك (Cornelius van Dyck)، راجع زين، نشوء القومية العربية ص ١٩٦ حاشية ١٦، وأسد رستم ص ٢٤٨.
- (٦٣) أنظر فوق ص ٤٨.
- (٦٤) زين، نشوء القومية العربية ص ٦١.
- Ismail, Documents T 14, *Sienkiewicz à Barthélémy-Saint-Hilaire*, no. 58, Beyrouth (٦٥)
31.10.1880, p 236.
- Shamir p 131. (٦٦)
- Gross I, p 312. (٦٧)
- (٦٨) المرجع السابق ص ٣١٢-٣١٣.
- (٦٩) نقلًا عن زين زين، نشوء القومية العربية ص ٦٥.
- Ismail, Documents T 14, *Sienkiewicz à Freycinet*, no. 45, Beyrouth 12.5.1880, p 180; (٧٠)
T 14, 14.5.1880, p 185f.
- (٧١) أنظر فوق ص ٦٧ - ٦٨ ، ٧٠ - ٧١ .
- Shamir p 135. (٧٢)
- Shamir p 115f; Anderson, The Eastern Question, op. cit., p 224. (٧٣)
- (٧٤) أنظر الفصل الثالث من الكتاب.
- Shaw II, p 85. (٧٥)
- (٧٦) محمد جميل بيه، قرافل العروبة ص ١٤.
- Gross I, pp 290-291; Shamir p 119. (٧٧)
- Gross I, p 313; Shamir p 136. (٧٨)

(٧٩) سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث ص ٧٣.

Gross I, pp 218-220.

(٨٠)

(٨١) المرجع السابق ص ٣٠٧.

(٨٢) Abu-Manneh, The Genesis of Midhat Pasha's, op. cit. pp 14-16; Saab, op. cit. p 186
ومن الأعيان الدمشقيين الذين عزلهم مدحت باشا، متصرف حماه محمد يوسف، ومتصرف
خوران مردم بك، وحاكم نابلس هولو العابد وأمير الحج محمد سعيد شمدين. وقد عين محلهم
كُلًاً من أحمد الصلح وأحمد أباظة كمتصارفين على اللاذقية وحماه. كما عين مسيحي للمرة
الأولى قائمقاماً على طرابلس، وعزل رئيس المحكمة التجارية في طرابلس وأحل محله مسيحي
وأدخل مسيحيين إلى المجلس البلدي في دمشق، أظر:

Abu-Manneh, Ibid, pp 14-16 Gross I., p 307; Salibā p 122; Shamir pp 127-128; Tibawi p 157.

(٨٣)

Shamir, p 136.

(٨٤)

(٨٥) «ثمرات الفنون»، عدد ٣٣٠ تاريخ ٥/٩/١٨٨١

Jacob M. Landau , An Arab Anti-Turk Handbill, 1881, in: *Turcica* 9, 1(1977) , pp 215-227.

وبين لاندو أنيس الخوري مقدسى بنشر بيان «جمعية حفظ حقوق الملة العربية» في كتابه،
الاتجاهات الأدية في العالم العربي ، بيروت ١٩٦٠ ص ١٠٣-١٠٤ .

Zeine, The Emergence, op. cit., p 57; Steppat, Eine Bewegung, p 646.

(٨٦)

Zeine, The Emergence p 45.

(٨٧)

Shamir p 136. (٨٨) قارن في هذا الموضوع بـ

Ismail, Documents T 14, Sienkiewicz à Barthélémy-Saint-Hilaire , no 63, Beyrouth 30.12.1880, p 252f.

(٩٠) «ثمرات الفنون»، عدد ٣٦٢ تاريخ ١/٢/١٨٨٢ وسبق ذلك رسالة من أهالي بيروت إلى
السلطان عبد الحميد جاء فيها أنهم يعلنون «... كامل الخضوع والانقياد الواجب على ذممتنا
لجناب ولی فعمتنا بلا امتنان وملجاً راحتنا على طول الزمان سلطاناً الغازى المعظم خلد الله
تعالى ملکه وحفظ من آيات الكون ملکه أمین... مولانا ظل الله الظليل...»، «ثمرات
الفنون»، عدد ٣٣٠ تاريخ ٥/٩/١٨٨١ .

(٩١) «ثمرات الفنون»، عدد ٣٦٧ تاريخ ١/٦/١٨٨٢ .

Georgeon, Le dernier sursaut, op. cit., pp 534-535.

(٩٢)

(٩٣) نقلًا عن بطرس أبو منه، السلطان عبد الحميد الثاني والشيخ أبو الهدى الصيادي، في
«الاجتهاد»، ٥(١٩٨٥) ص ٧٨-٧٩ .

(٩٤) حسين الجسر، الرسالة الحمبدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية، ط ٢،
تقديم وتحقيق خالد زيادة، طرابلس لات ص ١٤ ، وقارن بـ Tibawi p 183



الفصل الثالث

بريطانيا ومشروع فصل العرب عن الدولة العثمانية : خلافة عربية في الحجاز

أولاً : أشراف مكة : المكانة الدينية - الاجتماعية - السياسية

حافظ «الأشراف» في الحجاز على امتداد التاريخ الإسلامي على مكانتين، دينية ومدنية. وقد مكنته شرعية الانتماء للرسول (صلعم) من الحصول على قداسة دينية ومركز اجتماعي رفيع. أما بالنسبة إلى المكانة الثانية، فقد شغل كبير هؤلاء الأشرف (الشريف الأكبر) منصب «أمير مكة» متعملاً بكل امتيازات هذا المنصب دينياً واجتماعياً وسياسياً. إن الجمع بين المكانتين (سلطة روحية + سلطة سياسية) مكن الأشرف من تكوين طبقة أرستقراطية بدوية حاكمة على نمط وراثي منتقل بين الأسر المتنافسة ذات نفوذ ديني - اجتماعي اقتصادي - سياسي محلي (مكة - المدينة)، إضافة إلى مكانة سامية في العالم الإسلامي نتيجة لوقوع الأماكن المقدسة للإسلام ضمن مناطق سيطرتهم (الحج وموارده الضخمة). ونتيجة لتطور تقنيات الملاحة البحرية وتسهيل اتصال البلدان الإسلامية مع الأماكن المقدسة (قناة السويس)، توالت سمعة أشراف مكة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر واتخذت بعدها إسلامياً وعالمياً، مما جعلهم محط أنظار الدولة العثمانية، وبريطانيا، إنسجاماً مع استراتيجيتها في الهند^(١).

وقد تمت أمير مكة (الشريف الأكبر) بامتيازات عديدة، أهمها الإشراف على الكعبة المكرمة وتنظيم الحج وتؤمنن سلامة الحجاج وممتلكاتهم وتوزيع الأموال والاعطيات (الصرة) والثروات المحلية وتعيين نقيب الأشرف (رئيس السيادة) والمحاسب وشيخوخ الطرق الصوفية والنقابات الحرافية والحرارات وممثليه في المدن (القائمقamins) ومفتي المديتين المقدستين، مكة والمدينة المنورة. كما كان يحق له فرض الضرائب والفصل

في المنازعات البدوية وممارسة القضاء وتنفيذ أحكام الشريعة. وكانت له محاكمه وسجونه، فضلاً عن حرس خاص به يستعمله في المدينة^(٢).

وقد مكّن هذا النفوذ شريف مكة من الحصول على مداخليل كبيرة من الضرائب وعائدات الجمارك ومن ضريبة تأجير الجمال إلى الحجاج. وكان يستعمل هذه المداخليل، التي كان يتقاسمها مع الولاية العثمانية أو يتنافس معهم عليها، للصرف على حرسه وتثبيت نفوذه على القبائل البدوية^(٣).

ومنذ عام ١٢٠٥^(٤) وحتى عام ١٩٢٥^(٥)، تاريخ سقوط الحجاز بيد الأمير عبد العزيز آل سعود، سيطر فرع واحد من أبناء علي على الحجاز، وهو قنادة (المتحدر) التاسع عشر من الرسول صلعم، مؤسس آخر سلالة الأشراف^(٦). ومنذ النصف الأول من القرن السابع عشر، تنازع على الشرافة ثلاثة أسر من نسل الشريف أبي نمي برؤسات الثاني (١٥٢٥ - ١٥٦٦) وهم زيد وعبد الله وبرؤسات^(٧). وكان الشريف عبد الله بن حسين آخر أمراء مكة من أسرة برؤسات، وجاء تعينه لفترة قصيرة إبان سيطرة المملوكي محمد أبو الذهب على الحجاز (١٧٧٠)^(٨). وبعد ذلك التاريخ، تنازعت على الشرافة أسرتا زيد وعبد الله (العادلة = آل عون). وقد تمكنت أسرة زيد منذ عصر زيد (١٦٣١-١٦٦٦) من تأكيد نفسها في الشرافة - رغم فترات انقطاع قصيرة - حتى عام ١٨٢٧^(٩)، عندما عين محمد علي باشا، والي مصر، محمد بن عون أميراً على مكة^(١٠). وقد استمرت أسرة عون في منصب الشرافة الكبرى دون انقطاع (باستثناء فترة شرافة عبد المطلب من أسرة زيد من ١٨٥١ - ١٨٥٦ و ١٨٨٠ - ١٨٨٢) ووصلت ذروة مجدها خلال فترة الشريف عون الرفيق (١٩٠٥-١٨٨٢) والشريف حسين بن علي (١٩٠٨-١٩١٦). وفي عام ١٩٢٥ استولى السعوديون على الحجاز كاملاً^(١١).

لقد امتد نفوذ الأشراف في الحجاز على مساحة مجتمع بدوي (رُحْل وشبه رُحْل). وقد شكلت قبيلتنا حرب وعنزة أكبر قبائله. وكان معظم سكان الحجاز على المذهب السنّي الشافعي، فيما قبيلة حرب على المذهب الحنفي. وقد وجد شيعة بأعداد قليلة جداً^(١٢).

لم يكن الحجاز مهمًا للدولة العثمانية من الناحية المالية، ولم يكن بمقدوره أن يعيش نفسه بنفسه. وكان يُدعم من قبل خزينة الدولة المركزية^(١٣). وقد انحصرت موارده الاقتصادية في ثلاثة مصادر، وهي الحج، حيث كان السكان يعتمدونه مورداً لهم وخصوصاً في مكة والمدينة من خلال العمل كمطوفين ومزورين ومؤجري جمال ومساكن للحجاج. وشكلت المساعدات المالية والعينية من الحكومتين العثمانية

والمصرية ومن محامل البلدان العربية مورداً ثانياً للحجاج، في حين شكلت الزراعة البدائية (في الواحات) وتربية الماشية والجمال والتجارة (في المدن الكبرى وخصوصاً تلك الواقعة على البحر الأحمر - جدة، ينبع، الوجه) والصناعات الحرفية (مجوهرات وذهب) المورد الاقتصادي الثالث^(١٤).

وفي هذا المجتمع البدوي ساد التعليم التقليدي (الديني) وانحصر في مسجدي مكة والمدينة. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أولت الدولة العثمانية الحجاج اهتماماً أكبر. فتم تأسيس مدارس جديدة وطبقت إصلاحات شملت إنشاء مستشفيات وتحسين الإدارة والشرطة والمالية والجمارك والتزود بالمياه. كما أدخلت الاتصالات البريدية والبرقية. وبلغت ذروة اهتمامات العثمانيين بالأماكن المقدسة للإسلام بإنشاء خط حديد الحجاز^(١٥).

ثانياً : أشراف مكة والدولة العثمانية

يعتبر دخول الحجاج تحت الحكم العثماني عام ١٥١٧ برضى شريف مكة محمد الثاني ابن بركات (١٤٩٧ - ١٥٢٥) نقطة تحول هامة في تاريخ تلك المنطقة. فاعتراف شريف مكة بسليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠)، الذي أنهى الخلافة العباسية في القاهرة، سلطاناً على الحجاج وتسلیمه مفتاح الحرمين الشريفين وجعل الخطبة بإسمه^(١٦)، وبال مقابل، إيلاء السلاطين العثمانيين الأماكن المقدسة في الحجاج وأشراف مكة خصوصية مميزة (دعم العلماء وفقراء المدينتين المقدستين، مكة والمدينة، ورعاية الأماكن المقدسة وحراسة طرق الحج وترميم الكعبة المكرمة وتتجديدها، وحصول الأشراف على مكانة سامية في البلاط العثماني (= رهائن «شرف» للتأكد على ولاء الشريف الحاكم للسلطنة أو عدم تعرضه للمنافسة في الداخل)^(١٧)، أكسب كل هذا العثمانيين شرعية في الحكم كانت ذات أبعاد دينية - سياسية محلية وإسلامية عالمية^(١٨)).

وتحت «المظلة» العثمانية (= سلطة الدولة)، قام الأشراف بتدعمهم مكانتهم الدينية ومركزهم الاجتماعي - السياسي والاقتصادي في المدن وعلى البدو، دون أن ينافسوا هم أو غيرهم من العرب السلاطين العثمانيين على منصب الخلافة إسناداً إلى فرشيتهم^(١٩). فقد كانت إحدى مهام الشريف حماية سمعة السلطان ك الخليفة في نظر المسلمين في العالم وخصوصاً لدى أولئك الذين يحجون إلى الأماكن المقدسة، وتأمين كل ما يستلزم لحماية الحج ومسالكه^(٢٠).

وعلى الرغم من اعتبارهم موظفين عثمانيين يعينون بفرمان^(٢١)، فقد كان أمراء مكّة بداية، على عكس الولاية العثمانية في الحجاز، يتصرفون دون الرجوع إلى الباب العالي أو الحصول على رضاه، ولم تكن هناك ضوابط لتحديد صلاحياتهم. كذلك، كان الباب العالي يعزل أحياناً واليه في الحجاز نزولاً عند رغبة شريف مكّة^(٢٢).

وخلال القرون ١٨-١٦، ظهر أشراف مكّة كأقوى حكام على البحر الأحمر بعد مصر. وقد تنافس ولاة مصر ودمشق وبغداد فيما بينهم للحصول على مرتبة سامية في مكّة^(٢٣). وعلى الرغم من إرسال إسطنبول مفتياً من قبلها إلى مكّة (منذ ١٥٣٩) وجود والي عثماني في المدينة المنورة ونائب عنه في جدة^(٢٤)، قد اعتبر من قبل الأشراف تقليصاً لنفوذهم، لم يتدخل الباب العالي في الصراعات الدموية بين أسر الأشراف على الحكم والنفوذ والمصالح، بل كان السلطان يعزل أو يعين أحدهم من يتوافقون عليه^(٢٥). لكن الفترة الممتدة منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر (عهد الشريف سرور ١٧٧٢-١٧٨٨ وشقيقه غالب ١٧٨٨ - ١٨١٣)، شهدت إشارات على محاولات الأول إعلان نفسه سلطاناً^(٢٦)، ورفض الثاني دفع الأموال إلى الخزينة العثمانية وطرده الموظفين العثمانيين من الحجاز^(٢٧).

أدت الحادثة الأولى إلى إثارة الاستياء في الأستانة وجعلت العثمانيين ينظرون بريبة إلى تعاظم مكانة شرافة مكّة^(٢٨). وما كان بمقدور السلطان أن يغضض الطرف عن تصرفات الشريف الأكبر بما يمس سمعته ك الخليفة على الأماكن المقدسة وعلى زعامته الدينية - السياسية في العالم الإسلامي. وما كان في استطاعته من جهة أخرى أن يلغي الشرافة خشية أن يؤدي ذلك إلى حوادث خطيرة في الجزيرة العربية^(٢٩) أو إغضاب العالمين العربي والإسلامي^(٣٠). وهكذا، كان وجود شخصية قوية في الحجاز كشريف مكّة «شراً لا بد منه» للإمساك بالمجتمع البدوي وأسر الأشراف^(٣١)، بدلاً من تخصيص الجند والأموال الضخمة لتأمين الحجيج وسلامة طرقه^(٣٢). إن ما منع السلطان من التصدي للشريف غالب هو الاحتلال الفرنسي لمصر ونمو حركة الموحدين، التي أعلنت «الجهاد» ضده وسيطرت على مكّة والمدينة عامي ١٨٠٣ و ١٨٠٥. وقد شكل الحدثان تحدياً لشرعية الحكم العثماني دينياً وسياسياً^(٣٣).

وعلى الرغم من مشاركة الشريف غالب في الحملات المصرية ضد الموحدين، إلا أن «عدم فعاليته في التصدي لهم»^(٣٤) وسياساته الرافضة للتبعية الحجاز لأي من القوى المتصارعة عليه (موحدون ومصريون وعثمانيون)، كان سبباً في عزله من قبل محمد

علي ونفيه مع أسرته عام ١٨١٣ وتعيين يحيى بن سرور في منصب الشرافة (= أسرة زيد). وما لبث محمد علي أن استبدل عام ١٨٢٧ محمد بن عون بالشريف يحيى بن سرور منهاياً بذلك شرافة آل زيد. ومنذ ذلك الحين، فقدت شرافة مكّة سمعتها ومكانتها السابقة.

ومنذ عصر «التنظيمات» واستعادتهم للجزيرة العربية من المصريين عام ١٨٤٠، وتحديداً منذ افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، تبدلت العلاقات بين العثمانيين والashraf. فقد أدرك العثمانيون ومعهم الإنكليز أيضاً، تعاظم أهمية الحجاجز والبحر الأحمر الاستراتيجية. فادعى العثمانيون السيادة على البحر الأحمر بساحلية، وسط رفض بريطاني، وقاموا باحتلال الإحساء عام ١٨٧١ أثناء ولية مدحت باشا على بغداد، ورفعوا علمهم على الهفوف وأعادوا احتلال عسير واليمن ودعموا وجودهم العسكري في جدة وينبع وقدموا نحو الطائف^(٣٥). وقد عمدت الدولة العثمانية إلى ممارسة سياسة حكم مباشرة على الحجاجز وتحجيم سلطة ashraf ونفوذهم^(٣٦) وتقليل عائداتهم من جمارك المرافع والركاوة وجعلهم تابعين لولاة الحجاجز. ومنذ ذلك الحين، نشأ صراع مريّر بين ashraf، مدعومين من القبائل البدوية، وبين العثمانيين وقواهم العسكرية^(٣٧). وكانت سلطة كل من الوالي العثماني والشريف تتذبذب صعوداً وهبوطاً تبعاً لقوة أحدهما وضعف الآخر^(٣٨). وقد أخذ العثمانيون يستخدمون سلاح التفرقة بين القبائل ويضربون بعضها بالبعض الآخر لإشغالها عنهم. وفيما كانت أسر ashraf تتوافق في السابق على تعيين «أمير مكّة» من بينها ثم تحصل بعد ذلك على موافقة السلطان، أصبحت تعيين الشريف المرشح يتم من خلال مدى تبعيته للسلطان. وبدلاً من أن تحيك القبائل المؤامرات ضد السلطان، أصبحت تحيكها مع السلطان أو الباب العالي أو ضد بعضها بعضاً^(٣٩).

وعندما وصل حسين بن عون عام ١٨٧٧ إلى منصب الشرافة أخذ، رغم إظهاره التعاون مع السلطات العثمانية، يسعى لإعادة الشرافة إلى نفوذها السابق والتحرر من سلطة الوالي العثماني، وبالتالي من الباب العالي. فاستغل الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٨-١٨٧٧) ونتائجها لتنفيذ مشروع انفصالي عن السلطنة وإنشاء دولة عربية لا تقتصر على الحجاجز فحسب. والأخطر من ذلك، أن هذا المشروع الانفصالي لم يكن تاماً «صنع في الحجاجز» فحسب، بل «صنع في بريطانيا» أيضاً. فبريطانيا، كانت تخطط في هذه المرحلة المبكرة لتدمير «الخلافة العثمانية».

ثالثاً : بريطانيا ومشروع «إعادة تعریب الخلافة الإسلامية» تحت نفوذها (النظرية)

إن تتبع المخطوطات البريطانية في بلاد الشام يقودنا إلى الحجاز، حيث كانت الدبلوماسية البريطانية تعمل بعد الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة لإزاحة آل عثمان عن الخلافة الإسلامية وتعریبها. وقد جاء هذا التحول في سياسة بريطانيا من دولة تحافظ على سلامة السلطنة وخاضت «لأجلها» حرباً عدلاً كان آخرها حرب القرم (١٨٥٦-١٨٥٣)، إلى دولة تسعى لتحطيم سمعة السلطان العثماني كخليفة على رعاياه المسلمين عموماً والعرب خصوصاً، أو حثّهم على الانقلاب عليه، بعید الحرب المذكورة .

أثناء تلك الحرب وخلال انعقاد جلسات مؤتمر برلين، وقفت بريطانيا غير مبالية تجاه إعادة تشكيل الكيانات المسيحية في البلقان على حساب ممتلكات السلطنة في أوروبا، أو تجاه استيلاء روسيا على ممتلكاتها الآسيوية. وعندما قررت بريطانيا آخر الأمر التدخل ضد روسيا، كان ذلك لأجل الحفاظ على مصالحها الاستراتيجية في الممرات والتي قد تهدد باستيلاء الروس على العاصمة العثمانية. وما لبثت تلك الدولة أن استولت على قبرص بفرض السلطان لقاء ضمان سلامة ممتلكاته الآسيوية، وهو أمر لم تلتزم به، إذ تركت روسيا تبقي على احتلالها لقارس وباطوم وأردهان^(٤٠). وقد أضافت هذه المسألة تعكيراً جديداً في العلاقات العثمانية - البريطانية. كذلك، فإن تدخل بريطانيا في الشؤون الداخلية للسلطنة ومحاولتها إعادة تنظيم تركيا الآسيوية وإصلاحها لمصلحة الأرمن تحت إشراف دولي وامتناعها عن تقديم قرض ملح إلى الحكومة العثمانية بعد مؤتمر برلين، كانت عوامل أخرى ساهمت في تردي العلاقات بين الدولتين^(٤١). وفي نيسان عام ١٨٨٠ وصل غلادستون إلى رئاسة الوزارة البريطانية، وهو المعروف بكراسيه الشديدة للعثمانيين والمؤيد في الوقت نفسه لتحرير البلقان وشعوب السلطنة المسيحية من الحكم العثماني (الإسلامي) وبتقسيم الأتراء^(٤٢) «البرابرية» في تركيا الآسيوية^(٤٣). ثم توجت بريطانيا سياستها المعادية للسلطنة بالاستيلاء على مصر عام ١٨٨٢ .

بعد انسحاب المصريين من الجزيرة العربية عام ١٨٤٠ ، عملت بريطانيا على تكثيف علاقاتها التجارية مع الحجاز مستفيدة من معاهدة عام ١٨٣٨ مع السلطنة العثمانية، التي منحتها تجارة غير مقيدة في ممتلكات تلك الدولة، ومن مناخ دعمها لها في حرب القرم^(٤٤). وما لبثت علاقاتها مع الحجاز والبحر الأحمر أن توطدت بعد افتتاح قناة

السويس^(٤٤) وشرائها أسمهم مصر فيها واتخذت منحى استراتيجياً واقتصادياً (استخدامها الكثيف للقناة لأجل تجاراتها وأهمية هذا المرفق مع البحر الأحمر للاتصال بالهند) سياسياً، حيث عملت على تدعيم مركزها من خلال التقرب من أشراف مكة وخصوصاً أولئك من أسرة عون، الذين اعتبرتهم من «أصدقائهم»^(٤٥).

وبناءً على هذه الاعتبارات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، ادعت بريطانيا أن خصوص عشرات المسلمين من المسلمين الهنود لحكمها وعلاقة هؤلاء بالحجاج والأماكن المقدسة (تجارة وحج) يجعلها «دولة إسلامية» أكثر من الدولة العثمانية^(٤٦). فاستغلت تطلع الأشراف نحو نوع من التحرر من التبعية من العثمانيين لتدعيم مركزها في الحجاج والبحر الأحمر وللضغط في الوقت نفسه على السلطان العثماني أو محاربته إذا ما ساءت علاقاتها به، وذلك من خلال التلويع أو العمل على إقامة خلافة عربية في الحجاج، أي إلغاء خلافة آل عثمان. وبتعيين حسين بن عبد الله بن عون عام ١٨٧٧ شريفاً على مكة، أخذت تلك الدولة تعمل على تسييس شرافة مكة وتستخدمها في مواجهة إدعاءات العثمانيين بالخلافة.

وللرد على موقف بريطانيا المعادي للسلطنة وخصوصاً تخليها عنها أثناء الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة، ثم عدم إيفائها بالتزاماتها طبقاً لمعاهدة قبرص بإعادة ممتلكات السلطنة الآسيوية التي أبقيت روسيا على احتلالها لها^(٤٧)، بدأ السلطان عبد الحميد الثاني يعمل منذ عام ١٨٧٨ على رفع مكانته كخليفة في العالمين العربي والإسلامي من خلال برنامج الجامعة الإسلامية وتأكيده على حمايته للأماكن المقدسة للإسلام^(٤٨). فأقام علاقات مع الجماعات الإسلامية المحافظة في الجزيرة العربية^(٤٩) وسار في سياسة تندد ببريطانيا أمام مسلمي الهند واتهامها بأنها تسعى للقضاء على الإسلام المتمثل بالخلافة العثمانية^(٥٠). وقد ذكرت تقارير بريطانية في حينه عن مشروع جامعة إسلامية يقوده السلطان العثماني بين مسلمي الهند ضد بريطانيا أو بين أولئك الذين يحجون إلى الأماكن المقدسة في الحجاج^(٥١). وفي رسالتين له إلى كل من ساليزبورى وخليفته غرانفيل (Granville)، ذكر لايارد، سفير بريطانيا في الأستانة، «أن لديه أسباباً للريبة بأن اتصالات (ضد بريطانيا) تجري هنا (في الأستانة) بين جناح متطرف معين وبين مسلمين متطرفين في الهند»^(٥٢) وأن علماء عثمانيين ينشطون بين الحجاج الهند في مكة ويرجعون بأن «إنكلترا... هي عدوة الإسلام وأنها ترغب بالإطاحة بالخلافة (العثمانية) وتدمير الدين المحمدي»^(٥٣).

سببت سياسة عبد الحميد هذه قلق بريطانيا على مصالحها الإمبريالية، إذ خشيت

إنعكاس خلافة إسلامية معادية لها على مسلمي الهند^(٥٤). فأخذت تعمل على استغلال النسمة العامة في الجزيرة العربية ضد الحكم العثماني وتوجهها مستفيدة مما سببته الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة وذلك لأجل إنهاء هذا الحكم وإقصاء العثمانيين عن الخلافة ونقلها إلى أيدٍ عربية موالية^(٥٥) كأشراف مكة، الذين أبدوا حماساً لذلك^(٥٦).

إن اهتمام بريطانيا بنفوذ أشراف مكة عربياً وإسلامياً وإمكانية استخدامه لتقوية مركزها بين مسلمي الهند أو ضد الدولة العثمانية تحقيقاً لمشروع فصل العرب عن العثمانيين وإقامة خلافة عربية، يتضح من خلال الآراء المعاصرة والتقارير البريطانية. ففي ٢٥ حزيران ١٨٧٧ لفت ج. ل. م. بيردوود (G.L.M. Birdwood)، وهو موظف كبير وخبير في شؤون الهند، انتباه حكومة الهند إلى أن الخلافة العثمانية هي «اغتصاب» وأن الحق فيها هو لشريف مكة وأن سكوت المسلمين عن ادعاءات السلاطين العثمانيين بالخلافة لأمر مشين^(٥٧).

ومن جهة أخرى، لفت قنصل بريطاني انتباه حكومته إلى أهمية الحجاج السياسية والاستراتيجية، وطالبتها بأن تشارك في تعيين شريف مكة بصفتها «دولة إسلامية» وعدم ترك السلطان يحتكر لنفسه هذا الحق. وأضاف قائلاً : «يجب عدم ترك السلطان (العثماني) ينفرد لوحده بالتعيين لهذا المنصب (شراقة مكة) دون إستشارتنا. على بريطانيا التي تحكم ستين مليوناً من المسلمين على الأقل، أن تستفيد إلى أقصى الحدود من (الشريف)، الذي هو الأكبر في مكة، أكثر من السلطان، الذي يحكم ستة عشر مليوناً من المسلمين، الذين يدعمون حقه المستقل في هذا (الاختيار) (= تعيين شريف مكة)»^(٥٨).

وأثناء عمله كسكرتير في سفارة بلاده في الآستانة، اقترح مالت (Malet) على حكومته عام ١٨٧٩ أن تؤيد أشراف مكة وتتوعد إليهم بسبب نفوذهم في الجزيرة العربية وتمتعهم بقوة تفوق نفوذ السلطان العثماني. وأضاف، إن بلاده يمكنها أن تستعيد من خلالهم ما فقدته من نفوذ لدى المسلمين من جراء موقفها السلبي من السلطنة العثمانية أثناء الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة، بحيث تعود لظهور كدولة «إسلامية»^(٥٩). كما أيد لا يارد بدوره قيام خلافة عربية، وذلك لتقوية مصالح بلاده في الجزيرة العربية والخليج العربي^(٦٠). وعندما حل غوشن (Goschen) محل لا يارد كسفير لبريطانيا في الآستانة، طالب حكومته بالرد على مؤامرات السلطان المعادية لبلاده بتحريض العرب ضده وجعله معزولاً. واقتراح غوشن أن تقوى حكومته من صداقتها مع الشريف الأكبر

كي يستخدم هذا الأخير نفوذه وعلاقاته مع الهند ووسط آسيا وأفغانستان بما يفيد مصالحها. كما طالب بأن تدعم بلاده قيام خلافة عربية مناهضة للعثمانيين لتعجل نفوذ السلطان معدوماً^(٦١).

وعلى صعيد الرأي العام البريطاني، طالبت صحيفة التايمز بـ «ألا يعزل عبد الحميد الضعيف والجبان فحسب، بل يجب أن تُبعد إلى الأبد كل سلالته الفاسدة المنتحطة». وأضافت الصحيفة، أنه بعد عزل السلالة العثمانية، يجب أن يُملاً «العرش» بوحد من أشراف مكة المتقدرين من الرسول (صلعم)، الذين لديهم كلمة مسموعة في العالم الإسلامي من خلال رعايتهم للحج^(٦٢). وبعد ذلك بفترة قصيرة، تساءل محرر The Contemporary Review) «عما إذا كانت مصالح إنكلترا مع الأتراك أم مع العرب»، ورأى أنها تكمن في علاقات ودية مع الآخرين ومع قيام خلافة عربية، بعدما توقف السلطان العثماني أن يكون صديقاً لأوروبا وبريطانيا من خلال تحريره المسلمين ضدهما^(٦٣).

وبعد رحلة له إلى مصر وسوريا عام ١٨٨١ واتصالاته هناك بشيوخ القبائل السورية، أصدر بلانت (Blunt) عام ١٨٨٢ كتابه «مستقبل الإسلام»، حيث توقع فيه سقوط الدولة العثمانية وأن يتحول الإسلام نتيجة لذلك إلى معتقد منفصل عن السياسة وأن يجري التعبير عن ذلك من خلال خلافة عربية توضع في أيدي أشراف مكة لأصولهم القرشية. واقتراح بلانت أن تكون الخلافة المقترحة تحت حماية بريطانيا وتكتسب صفة روحية لا زمنية، وأخيراً، أن تكون مكة عاصمتها^(٦٤).

رابعاً : العزاب : القنصل زوهرب وآمراء مكة والخلافة العربية في الحجاز (محاولة التطبيق)

إذا كانت تلك الآراء الرسمية والخاصة أعلاه قد عكست الجو السياسي العام في بريطانيا المؤيد لنزع الأماكن المقدسة للإسلام من أيدي العثمانيين، أي تحظيم نفوذ السلطان العثماني ك الخليفة في العالم الإسلامي عموماً ولدى مسلمي الهند خصوصاً، فإن الذي قام بمحاولة وضع هذه الأفكار موضع التنفيذ هو جايمس زوهرب (James Zohrab)، قنصل بريطانيا في جدة منذ عام ١٨٧٩. وكما سرى لاحقاً، فإن زوهرب كان مهندس سياسة حكومته في فصل العرب عن العثمانيين والتي أكملها لورانس خلال الحرب العالمية الأولى. ويُعتبر تعيين زوهرب في قنصلية بريطانيا بجدة نقطة تحول هامة للمصالح البريطانية في منطقة حيوية جداً لطريق الهند.

وفي تقاريره التي كان يرسلها إلى رؤسائه وأصدقائه بين عامي ١٨٧٩ و١٨٨٢، أكد زوهرباب على الأهمية الدينية - السياسية والاستراتيجية للحجاج كمركز للحج وحلقة اتصال مع الهند^(٦٥). فكتب يقول : «أعتقد أن الحجاج هو النقطة ذات الأهمية السياسية الحقيقة لإنكلترا، حيث يمثل محور الفكر الإسلامي الذي تشع منه الأفكار والإرشاد وال تعاليم والتفسير المتعلقة بالعقيدة». وأضاف لافتًا الانتباه إلى تأثير الحجاج سياسياً على الهند»... بسبب آلاف الرعاعيـاـ البريطانيـيـن (المسلمـيـن الهـنـود)، الذين يأتـونـ إلىـ هناـ (الـحجـاجـ)ـ كلـ عـامـ». وتبعـاـ لهـذـهـ الأـهمـيـةـ خـتـمـ زـوـهـرـبـ دـاعـيـاـ حـكـومـتـهـ إـلـىـ مـراـقبـةـ ماـ يـجـريـ فـيـ الـحـجـاجـ مـنـ خـلـالـ عـمـيلـ سـرـيـ مـسـلـمـ، وـقـالـ : «... وـحتـىـ الـيـوـمـ، فـإـنـاـ لـاـ نـرـاقـبـ مـنـ يـدـخـلـ إـلـيـهـاـ وـيـخـرـجـ مـنـهـاـ (مـكـةـ)ـ وـلـاـ حـتـىـ مـنـ يـغـادـرـهـاـ إـلـىـ الـهـنـدـ، وـكـذـلـكـ الـاجـتمـاعـاتـ الـتـيـ تـعـقـدـ فـيـهـاـ، وـقـدـ تـكـوـنـ مـعـادـيـةـ لـنـاـ بـعـيـثـ لـاـ نـعـرـفـ بـهـاـ قـبـلـ أـنـ نـكـونـ الـقـذـيفـةـ قـدـ انـفـجـرـتـ فـيـ ظـهـرـانـيـناـ... إـذـاـ أـمـكـنـ»، أـضـافـ زـوـهـرـبـ، «لـهـذـهـ القـنـصـلـيـةـ (قـنـصـلـيـةـ بـرـيـطـانـيـاـ فـيـ جـدـةـ)ـ أـنـ يـكـوـنـ لـدـيـهـاـ فـيـ مـكـةـ عـمـيلـ مـسـلـمـ مـوـثـقـ، فـإـنـيـ (زوـهـرـبـ)ـ عـلـىـ اـقـتنـاعـ أـنـ يـمـكـنـ الـحـصـولـ عـلـىـ قـدـرـ كـبـيرـ مـنـ الـإـسـتـخـارـ الـقـيـمـ»^(٦٦).

ومن جهة أخرى، لفت زوهرباب انتباه رؤسائه إلى كراهية العرب في الجزيرة العربية للحكم العثماني وإلى حالة السخط التي تسود المنطقة نتيجة لهزيمة السلطنة على يد روسيا^(٦٧). وفي آب ١٨٧٩ أبلغ زوهرباب ساليزبورى عن جمعية سرية تأسست في مكة تضم أشرافاً وعلماء ناقمين على العثمانيـين تجري إـتصـالـاتـ معـ الـعـربـ وـالـمـسـلـمـيـنـ فـيـ الـعـالـمـ بـهـدـفـ إـعـلـانـ ثـورـةـ وـنـزـعـ الـخـلـافـةـ مـنـ السـلـطـانـ الـعـثـمـانـيـ وـإـقـامـةـ دـوـلـةـ عـرـبـيـةـ بـحـجـةـ أـنـ السـلـطـانـ الـعـثـمـانـيـ أـصـبـحـ تـحـتـ سـيـطـرـةـ القـوـىـ مـسـيـحـيـةـ وـلـمـ يـعـدـ بـالـإـمـكـانـ اـعـتـبارـهـ مـسـتـقـلاـ.ـ وـخـتـمـ بـالـإـشـارـةـ إـلـىـ مـدـاـواـلـاتـ جـرـتـ بـيـنـ عـرـبـ حـجـازـيـنـ وـآخـرـيـنـ سـورـيـيـنـ أـسـفـرـتـ عـنـ اـتـفـاقـ عـلـىـ جـعـلـ المـدـيـنـةـ الـمـنـورـةـ عـاصـمـةـ لـلـدـوـلـةـ عـرـبـيـةـ الـمـنـشـوـدـةـ بـعـدـاـ تـمـ اـسـتـبعـادـ دـمـشـقـ عـنـ ذـلـكـ لـأـسـبـابـ أـمـنـيـةـ - إـسـتـرـاتـيـجـيـةـ (قـرـبـهاـ مـنـ السـاحـلـ وـسـهـوـلـةـ تـدـخـلـ أـورـوـبـيـ أوـ عـثـمـانـيـ ضـدـهـ).ـ وـتـوـقـعـ القـنـصـلـ الـمـذـكـورـ، نـقـلـاـ عـنـ مـصـادـرـ عـثـمـانـيـةـ عـسـكـرـيـةـ وـمـدـنـيـةـ رـفـيـعـةـ فـيـ جـدـةـ، حـدـوثـ اـضـطـرـابـاتـ خـطـيرـةـ فـيـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ»^(٦٨).

وحوالي الوقت نفسه، كان لا يارد يؤكـدـ أـثـنـاءـ زـيـارـتـهـ إـلـىـ (ـسـورـيـاـ)ـ فـيـ خـرـيفـ عـامـ ١٨٧٩ـ مـعـلـوـمـاتـ زـوـهـرـبـ حـولـ تـزـعمـ الـأـشـرـافـ مـؤـامـرـةـ اـنـفـصـالـ عـرـبـيـةـ عـنـ السـلـطـنـةـ.ـ فـبـعـثـ إـلـىـ سـالـيزـبـورـيـ يـخـبـرـهـ عـنـ قـيـامـ جـمـعـيـةـ سـرـيـةـ فـيـ الـحـجـاجـ تـحـيـكـ مـؤـامـرـةـ لـإـنشـاءـ دـوـلـةـ عـرـبـيـةـ مـسـتـقـلـةـ عـنـ عـثـمـانـيـينـ بـزـعـامـةـ أـمـيرـ مـكـةـ، وـأـنـ رـسـلـاـ وـصـلـوـاـ إـلـىـ الـبـلـدـانـ الـإـسـلـامـيـةـ لـلـدـعـاـيـةـ لـهـذـاـ الـمـشـرـوـعـ.ـ وـأـضـافـ السـفـيرـ، إـنـ أـحـدـ هـؤـلـاءـ الرـسـلـ وـيـدـعـىـ الشـيـخـ عـلـىـ أـجـرـىـ

إتصالات في بلاد الشام واستقطاب مؤيدين سوريين وإن دعوته لقيت تجاوباً من قبل جنود عثمانيين وإن لجاناً سرية قد تأسست في المدن السورية الكبرى^(٦٩). ويدرك أوكسنولد، أن شريف مكة حسين بن عون كان أثناء ذلك على اتصال بالنجبة المثقفة في بيروت ومطلع على فكرها^(٧٠). وفي تموز ١٨٧٩ أكدت صحيفة «ثمرات الفنون» الباربروتية، نقلأً عن الصحف البريطانية، بما تنسق الحجاز وسوريا لجهودهما بغية الانفصال عن السلطنة، لكنها اعتبرت أنباء استقطاب اللجان السرية لمائة ألف عضو أمراً مبالغًا فيه ومستحيلاً^(٧١). وفي ٩ تشرين الثاني من العام نفسه، أكد قنصل فرنسا العام في بيروت الأخبار حول وجود مؤامرة عربية تشمل سوريا والجاز وأن فروعاً للجمعية السرية قد تأسست في حلب والموصى وبغداد ومكة^(٧٢). ويدرك شامي أن نقيب أشراف بغداد زار سوريا مطلع عام ١٨٨٠، حيث أطلق هناك تصريحات تدعو إلى تضامن عربي ضد العثمانيين^(٧٣).

وللتتأكد على نفوذ أمراء مكة وشرعيتهم في قيادة الدولة العربية المنشودة، أكد زوهراب أن شرافة مكة تستمد قوتها من كونها ورائية وتحتكرها إحدى أسرتي زيد وعون المتنافسين المنحدرتين من نسل الرسول (صلعم)، وأن إلغاءها من قبل السلطان سيؤدي إلى حدوث اضطرابات خطيرة في الجزيرة العربية وردود فعل إسلامية مستنكرة^(٧٤). ولفت القنصل إلى أن الحجاز هو نقطة الضعف في خلافة السلطان العثماني، حيث يمثل الشريف (أمير مكة) الجانب الروحي للخلافة الذي يتتفوق على الجانب الزمني (السياسي) لها الذي يمثله السلطان^(٧٥). وختم بالقول، إن شريف مكة «... بصفته من سلالة الرسول فهو بالنسبة للمسلمين كالبابا بالنسبة للكنيسة الرومانية...»^(٧٦) و«ينظر إليه بكل إجلال في العالم الإسلامي، حيث ينادي بسيدنا أو مولانا»^(٧٧). هذا بالإضافة إلى أنه «مستقل» ولا يمكن اعتباره مسؤولاً عن أفعاله المتعلقة بالدين أو تلك المتعلقة بصفته أميراً على البدو^(٧٨).

وبواسطة ترجمان قنصليته يوسف أفندي القدسي^(٧٩)، أخذ زوهراب يكشف من اتصالاته بالشريف حسين، أمير مكة، الذي فضل التخاطب مع القنصل عبر وسيط موشوق وليس تحريراً. وأبلغ زوهراب حكومته أن الشريف «... رجل شهم شديد الاندفاع ذو أفكار ليبرالية»^(٨٠) وأنه يكن مشاعر الود إلى بريطانيا وعلى استعداد أن يخدم مصالحها^(٨١)، لأنه يعتبرها مع فرنسا «الصديقين الوحديين للمسلمين الذين يمكن الاعتماد عليهم للحماية والمساعدة»^(٨٢). فسارع ساليزبوري وأبلغ الشريف حسين أن حكومته تقدر مواقفه هذه، وسوف «تنتظر الفرصة المناسبة للإفاده من استعداده

لمساعدتها»^(٨٣). وقد أسرّ هذا الرد الشريف حسين الذي قام بخطوة متقدمة نحو توثيق التآمر ضد السلطنة العثمانية، كشفت عن أن الإعلان لبريطانيا عن استعداده لخدمة مصالحها كان لجر تلك الدولة إلى عمل مشترك ضد السلطنة يصب في مشروع اتفاق الحجاز عن الدولة العثمانية. بعث برسالة شفوية إلى زوهراب في الأسبوع الأول من كانون الأول عام ١٨٧٩ عكست مواقفه المعادية للسلطان العثماني. فاتهم السلطان العثماني بأنه يسعى للتحالف سراً مع روسيا ويسير في سياسة معادية لبريطانيا، وأن ذلك «سوف يؤدي إلى أحداث خطيرة» في الحجاز، «... لأن السلطان لم يعد يملك تلك الطاعة وذلك الإجلال اللذين يتطلبهما مركزه الرفيع وصفته المقدسة ك الخليفة. إن الناس»، أضاف الشريف حسين، «يتساءلون لماذا عليهم احترام شخصه (السلطان) وإطاعته فيما يمكن عزله بموجب فتوى صادرة عن شخص أدنى منه وهو شيخ الإسلام؟ ولماذا عليهم تبجيله ك الخليفة للرسول، فيما تستطيع فتوى (شيخ الإسلام) أن تحرمه من سلطانه وصفته المقدسة؟ إنه (أي السلطان) لا يمكنه أن يكون صاحب سيادة دون منازع وإن حقه في خلافة الرسول ليس منزلاً، ولهذا، فإن معارضته ليست حراماً»^(٨٤).

التقط زوهراب هذه الإشارات «الإيجابية» للشريف وواصل اتصالاته السرية معه. وبعد حوالي الشهر، أبلغ حكومته مجدداً بإعجاب الشريف بنظم بريطانيا وشرائعها وإنه «مستعد أن يقدم لحكومتها المساعدة في أية مسألة قد يفيده مركزه المقدس»^(٨٥) وإن «... جل قصتنا وجهتنا»، قال الشريف، «هو السعي لما يوافق مصلحة دولة إنكلترا الفخيمة، ولم نزل على ذلك باطننا وظاهرنا»^(٨٦). كما أبلغ الشريف القنصل бритاني عن طريق الوسيط القدسي أنه متنزع بـ«أن الدين الإسلامي يتطلب دعمه مساعدة إنكلترا وحمايتها، التي هي الدولة الوحيدة التي تضع كل الأديان على قدم المساواة وتحمي الجميع دون تمييز»^(٨٧). وختم يقول : «... تستطيع بريطانيا أن تعتمد علي لإنجاح رغباتها بكل ما أوتيت من قوة ولن انفصل عنها مهما حدث، لأن حكومة جلالتها أظهرت عدلاً وشهادتها مع المسلمين»^(٨٨).

وفي ٢١ كانون الثاني ١٨٨٠ زف زوهراب إلى ساليزبوري الخبر السار، وهو استعداد الشريف حسين المدعوم من شخصيات حجازية وسورية ناقمة على الحكم العثماني للثورة إذا ما حصل على دعم بريطانيا وحمايتها^(٨٩). فـ«الشريف» أضاف زوهراب «... لا يشعر أن لديه القوة الكافية ليشجع علينا ما ترتكبه الحكومة العثمانية من أخطاء ولا أن يبقى (في الوقت نفسه) ساكناً لأن هذا يؤلمه، حيث يعتبر ذلك إغفالاً لمنصبه المقدس»^(٩٠). وأكّد القنصل «أنه إذا ما منح (الشريف) دعم حكومة جلالتها

وحمایتها، فإن الشريف... لن يتردد في التنديد بأي عمل تقوم به الحكومة العثمانية ضد مصالح إنكلترا»^(٩١).

لم تقتصر تحركات زوهرب في اتجاه الشريف حسين فحسب، بل أخذ يتصل بالقوى في الحجاز التي يمكنها أن تدعم مشروع الشريف الانفصالي. ويعث إلى لندن يؤكد أن البدو في الحجاز سوف يدعمون ثورة الشريف لأن ما يربطهم بالسلطنة العثمانية ليس سوى ما تدفعه لهم من رشوّات وهدايا، في حين أن ٩٠٪ من سكان الحضر يؤيدون الانفصال عن السلطنة وأن متنفذين منهم يحضرون إليه لأجل الحصول على الجنسية البريطانية لأنهم يعتبرون بريطانيا «الصديق الحقيقي للمسلمين». وكما هو الحال في الهند، أضاف زوهرب نقلًا عن تلك الشخصيات الحجازية، «فسوف يكون المسلم (في الحجاز) أكثر حرية في ممارسة عقيدته تحت الحكم البريطاني»^(٩٢). إضافة إلى ذلك، ذكر القنصل أن شخصية حجازية رفيعة طالبته بأن تشرف بريطانيا على كل الأوقاف في السلطنة العثمانية «... لأن عائداتها تستعمل في غير محلها»^(٩٣).

وفي أعقاب اتصالاته بالشريف حسين وشخصيات حجازية، يعتبر زوهرب أن الفرصة أصبحت مواتية لاستغلال هذه المشاعر المتقدة ضد العثمانيين، ولفت حكومته «... إلى المكاسب التي قد تجنيها... بتقديم المساعدة لتغيير الوضع السياسي للولاية» (الحجاز)^(٩٤) وهي «... الحصول على إشراف دائم على كل المسلمين»^(٩٥)، وعلى «... سلاح قوي ضد السلطنة العثمانية التي لم تعد صديقة وفيه بلاده»^(٩٦). وشدد القنصل على أن هذا «السلاح» هو بيد بريطانيا في الحجاز وفي شخص الشريف حسين «... فإذا أقمنا نفوذاً وأي نوع من الحماية في الحجاز»، أضاف يقول، «فسوف يمكننا أن نوجه العالم الإسلامي كله»^(٩٧). ونقلًا عن مصادر مستقلة، أكد لا يارد صحة إستنتاجات زوهرب حول «مشاعر الود» التي يكنها الحجازيون تجاه بريطانيا^(٩٨).

وأثناء اتصالاته بالشريف حسين، بعث زوهرب إلى قائد الأسطول البريطاني في المحيط الهندي يطلب إليه اتخاذ إجراءات فورية بإرسال إحدى قطع أسطوله إلى ساحل الحجاز تحسبًا لحوادث خطيرة وشيكّة الوقع إسندًا إلى «أعلى السلطات في الولاية» (الشريف حسين)^(٩٩). كما قام ثلاثة عملاء تابعين للخارجية البريطانية بزيارة سرية إلى شريف مكة متخفين بزي إسلامي^(١٠٠)، فيما أجرى عملاء آخرون اتصالات بالقبائل البدوية في سوريا والعراق لاستقطابها لهذا المشروع^(١٠١).

وعلى ما يبدو، لم يكن لايارد مرتاحاً إلى دبلوماسية زوهراب، فأبدى تحفظات تجاهها. فأكد للخارجية البريطانية «غيرة السلطان (العثماني) القصوى ووساوسه فيما يتعلق بحقوقه الدينية وسلطته ك الخليفة على المسلمين»^(١٠٢)، وإن «المتعصبين حوله لن يتوازوا عن إثارة شكوكه تجاه بريطانيا بأنها تسعى للسيطرة على الأماكن المقدسة في الحجاز»^(١٠٣). كما ذكر لايارد «إن العملاء الروس (في العاصمة العثمانية) لا يوفرون مناسبة لإقناع السلطان وزرائه بأن إنكلترا هي العدو الحقيقي للأمبراطورية العثمانية وأن روسيا هي وحدها صديقتهم»^(١٠٤). وبناءً على ذلك، نصح السفير الخارجية «بالحذر الشديد، لأن السلطان على معرفة بنوايا بلاده (بريطانيا) للسيطرة على الحجاز والاستيلاء على مكة والمدينة تسهيلاً للمحافظة على حكمها في الهند»^(١٠٥).

وأثناء التحضيرات لهذا المشروع الكبير، وهو إعلان الشريف حسين ثورته على الدولة العثمانية وانفصاله عنها^(١٠٦) والذي تزامن مع قدم الشريف إلى جهة للإشراف على رحيل بعثة حجازية إلى أفغانستان لفهم زعاماتها بضرورة التحالف مع بريطانيا ضد روسيا^(١٠٧)، قُتل الشريف المذكور طعناً يوم ١٤ آذار ١٨٨٠ على يد متصرف أفغاني يدعى خورسان فخرالدين. ولم تُعرف أسباب الاغتيال لعدم اعتراف الجاني^(١٠٨).

وفور اغتيال الشريف حسين، عين السلطان عبد الحميد الشريف عبد المطلب من أسرة زيد المنافسة لأسرة عون في منصب الشريف الأكبر^(١٠٩). وهناك أسباب عدة وراء تعيينه، رغم ثورته ضد الحكومة العثمانية بين عامي ١٨٥٣ و ١٨٥٦^(١١٠). وهذه الأسباب هي تتمتع بأفضلية في أسرة زيد^(١١١) وقدرته على الإمساك بالمجتمع البدوي^(١١٢): إلى ذلك، رأى السلطان العثماني أن تعيينه سوف يزيد من التنافس والتناحر بين أسر الأشراف في الحجاز وبخاصة بين أسرتي عون وزيد ويمنع بالتالي اتحادهم وراء مشروع انفصالي عن السلطنة^(١١٣). وأخيراً، وليس آخرأ، كان عبد المطلب من المعادين للإنكليز ويكره الأجانب، ولهذا حصل عند قدمه من الأستانة إلى الحجاز على صلحيات غير عادية وعلى احترام السلطات العثمانية هناك والجناح الإسلامي في الجزيرة العربية^(١١٤).

كيف استقبلت الدبلوماسية البريطانية نباً الاغتيال (= انهيار المشروع) وتعيين الشريف عبد المطلب أميراً على مكة، وكيف تحركت، وما هي علاقة السلطان عبد الحميد بتلك الحادثة؟

كان أول رد فعل بريطاني على نباً الاغتيال هي رسالة من زوهраб إلى مالت، قنصل بريطانيا العام في القاهرة^(١١٥). وفي رسالة أخرى له إلى ساليزبوري، أبلغ

زوهراب أن حادثة الاغتيال «أوقفت كل شيء» (*arrested everything*)^(١١٦). أما لايارد، فاعتبر أن الاغتيال سبب «شعوراً أليماً جداً»^(١١٧)، وقد يكون له «نتائج خطيرة على المصالح البريطانية في الهند»^(١١٨). وقد عزت المصادر الرسمية البريطانية أسباب الاغتيال إلى تعاطف الشريف المغدور مع بريطانيا واتصالاته بزوهраб واستقباله في الأسابيع الأخيرة على مقتله عمالء من الخارجية البريطانية^(١١٩). وطبقاً لتلك المصادر، فإن دوائر القصر السلطاني والباب العالي كانت على علم قبل ثلاثة شهور من والتي الحجاز ومن السفارة الفرنسية في إسطنبول بمحاولات بريطانية سرية لوضع الخلافة في يد شريف مكة^(١٢٠) وإن الباب العالي تلقى تقريراً من كبير سكريتيري السلطان حول تحركات الشريف حسين المشبوهة^(١٢١). وأضافت هذه المصادر، أن السلطان وبعض أفراد حاشيته حاكوا مؤامرة الاغتيال بالتنسيق مع الشريف عبد المطلب، الذي زار أحد أبنائه الحجاز سراً للتحضير للمؤامرة، وذلك أثناء وجود والده الشريف عبد المطلب في الآستانة^(١٢٢). وأخيراً، إن قرار التخلص من الشريف حسين إتخذ خلال عام ١٨٧٩^(١٢٣).

أدركت بريطانيا على الفور مخاطر تعيين عبد المطلب في منصب الشريف الأكبر على مصالحها، وذلك بسبب كراهيته لها خصوصاً وللمسيحيين عموماً^(١٢٤). وقد عكست تقارير زوهراب حالة القلق على المصالح البريطانية في الحجاز والخوف من أن تتكرر حادثة جدة لعام ١٨٥٨ ضد المسيحيين الأجانب^(١٢٥). وقد وصف لايارد عبد المطلب بأنه صاحب «أراء متعصبة» وأبلغ السلطان العثماني بأن تعيينه في منصب أمير مكة «... قد يؤدي إلى اضطرابات خطيرة وحمامات دم» خصوصاً وأن الشريف المذكور سبق له وتمرد على الباب العالي (١٨٥٣ - ١٨٥٦). واقتراح لايارد على حكومته أن تدعم تعيين الشريف عون الرفيق، شقيق الشريف المغدور، الذي أبدى استعداده لأن «... يحافظ على أقصى علاقات الود مع إنكلترا وأن يوازن على سياسة أسرته التي كانت مرضية لمصالحها على الدوام، فيما لو عين شريفاً أكبر»^(١٢٦). وفي وقت لاحق، أكد عون الرفيق لغرانثيل عبر الترجمان القديسي، أنه يستطيع بستين ألف رجل أن يخلص الحجاز من العثمانيين إذا ما ضممت بريطانيا عدم وصول الإمدادات لقواتهم في المنطقة. كما أبلغه، أن حماية بريطانيا للجزيرة العربية أمر مرغوب فيه وأنه، أي عون الرفيق، على استعداد لحمل قضية كل المسلمين^(١٢٧).

وعندما اتصل لايارد بالسلطان عبد الحميد ليثنيه عن تعيين عبد المطلب مقترحاً عليه عون الرفيق بدلاً منه، رفض عبد الحميد ذلك وتمسك بعد المطلب. لكنه وعد الإنكليز

بأن يكون عون الرفيق الشريف الأكبر التالي لمكة بعد وفاة عبد المطلب الطاعن بالسن و «الذى لن يعيش طويلاً» على حد قول السلطان^(١٢٨). وقد إستغل السلطان العثماني تطرق السفير لايارد إلى موضوع شرافة مكة ليتهم بريطانيا «بأنها ترغب في الاستيلاء على الحجاز». وقال السلطان إنه «من خلال السيطرة على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، سيكون من السهل عليها (بريطانيا) المحافظة على حكمها لأعداد هائلة من السكان المسلمين في الهند»^(١٢٩). وعندما وجد لايارد إستحالة ثني السلطان عن قراره بشأن عبد المطلب، نصح حكومته «... أن تراقب أعماله (الشريف عبد المطلب) بثيقظ كبير خصوصاً... إن تصرفاته يمكن أن تكون مدفوعة من قبل السلطان، الذي يتصل الآن... ب المسلمين هنود متذمرين... وهو منشغل في التآمر ضد إنكلترا»^(١٣٠). ولهذا، اقترح لايارد أن تعين الحكومة البريطانية عميلاً سرياً ليصبح الحجاج الهنود المسلمين إلى الأماكن المقدسة في الحجاز ويراقب نشاطاتهم. وبرر لايارد إقتراحه هذا، بأن اتصالات علماء الشريف عبد المطلب بالحجاج الهنود تتم خلال موسم الحج^(١٣١).

لم تكن مشاريع بريطانيا وتأمرها ضد السلطة تحتمل انتظار وفاة الشريف عبد المطلب الطاعن بالسن، ولا سيما وأن هذا الأخير أخذ يمارس بعد وصوله إلى الحجاز وبنشاط سياسته المعادية لها، وبين مسلمي الهند. ففي أعقاب وصوله إلى الحجاز في صيف ١٨٨٠ يرافقه الشيخ فضل الحضرموتي^(١٣٢)، بدأ عبد المطلب اتصالاته برؤساء القبائل في الجزيرة العربية كي يقطعوا علاقاتهم ببريطانيا^(١٣٣). كما قام بعزل كل مؤيدي أسرة عون عن مراكزهم ومناصبهم وأحلّ مكانهم شخصيات من أنصاره^(١٣٤)، دون أن يتوانى عن اضطهاد الأسرة نفسها^(١٣٥). إضافة إلى ذلك، منع الشريف الجديد يوسف القدسي، ترجمان القنصلية البريطانية في جدة، من دخول مكة^(١٣٦). وفي حفلة عشاء في مكة يوم ٢٢ تشرين الأول ١٨٨٠ على شرف حجاج هنود، طالب عبد المطلب مسلمي أفغانستان والهنود بالعمل معاً ضد بريطانيا وحلل، على ذمة زوهراب، قتل المسيحيين^(١٣٧). وفي أعقاب ذلك، أرسل الشريف بعثة سرية إلى الهند للتحريض ضد بريطانيا^(١٣٨).

أدت تحركات الشريف عبد المطلب إلى قلق زوهراب، فغادر الحجاز إلى لندن في أيلول ١٨٨٠، حيث قابل هناك غرانفيل، وأخبره أن سياسة الشريف عبد المطلب «اتجهت منذ وصوله إلى مكة نحو تحجيم نفوذنا في البلاد (الحجاز)، عدا إزاحته لأشخاصاً عن مناصبهم معروفين بتعاطفهم مع إنكلترا، وهو»، (الشريف عبد المطلب)

أضاف زوهراب، «يزرع بذوراً سوف تحمل لنا في المستقبل ثماراً خبيثة»^(١٣٩). ولهذه الأسباب، قررت بريطانيا عدم انتظار وفاة عبد المطلب والإسراع بتنفيذ مؤامرة للإيقاع به والتسبب بعزله وتعيين الشريف عون الرفيق محله طبقاً لوعد السلطان عبد الحميد. ونحن لا نستبعد أن يكون الإنكليز وراء تلك العريضة التي وقعتها أربعينية شخص في مكة يحتجون فيها على تعسف عبد المطلب وفساده^(١٤٠). إضافة إلى ذلك، أخذت الدبلوماسية البريطانية تحاول التقرب من الشريف عبد المطلب لإثارة شكوكه السلطان حوله. كما زورت عن طريق مساعدي الشريف ثلاث رسائل ممهورة بخاتمه موجهة منه إلى ابن الرشيد وإبن سعود وإلى القنصلية البريطانية في جدة تتضمن معلومات حول رغبة عبد المطلب بالتخليص من الحكم العثماني ووضع البلاد تحت السيطرة البريطانية. وقد نفذت الخطة المذكورة بشكل تقع فيه الرسائل بيد والي الحجاز^(١٤١). وقد تزامنت «خدعة» الرسائل مع شائعات عن إتصالات سرية يجريها الشريف مع عربي باشا وعلماء الأزهر في مصر لدعم الثورة هناك^(١٤٢). وبالفعل، وصلت شكوك السلطان بعد المطلب في صيف ١٨٨٢ إلى درجة عالية بحيث أقدم على عزله^(١٤٣) وعين محله عون الرفيق. وقد شكل هذا التعيين مرحلة جديدة للتآمر البريطاني - الحجازي ضد السلطنة وصل ذروته بثورة الشريف حسين بن علي على العثمانيين في الحرب العالمية الأولى.

حواشی الفصل الثالث

- (١) سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث، مرجع سابق ص ٤٦٦-٤٦٧ ، ٤٨٢ .
Butrus Abu-Manneh,Sultan Abdülhamid II and the Sharifs of Mecca (1880-1900) , in: *Asian and African Studies 9, 1(1973)*, pp 4-5.
- (٢) الجميل ص ٤٧ و ٤٨١ و ٤٨٢ .
Al- 'Amr, The Hijaz, op. cit., p 129; Abu-Manneh, Sultan Abdülhamid II and the Sharifs, op. cit., pp 3-4 William Ochsenwald, Religion, Society and the State in Arabia. The Hijaz under Ottoman Control, 1840-1908, Columbus 1984 pp 6-7.
Al-'Amr, pp 130-131; C. Snouk Hurgronje, Verspride Geschriften, vol. III, *The Revolt in Arabia*, 1916, p 320.
- (٣) Hurgronje p 315; Arabia. *Handbook prepared under the direction of the historical section of the Foreign Office*, no. 61, London 1920, p 17.
- (٤) الجميل ص ٤٧١ .
Arabia, p 17؛ إنقسم الأشراف إلى أربع طبقات أسرية، وهي : بنو موسى وبنو سليمان والهواشم. وقد حكمت الطبقات الثلاث مكة حتى عام ١٢٠٥ / ١٢٠٠ ، عندما تأسست الطبقة الرابعة من خلال فرع قادة، راجع الجميل ص ٤٧١ .
فؤاد حمزة، قلب الجزيرة العربية، ط ٢ الرياض ١٩٦٨ ، ص ٣١٩ .
- (٥) الجميل ص ٤٧١ .
G. Rentz, Barakāt, in: *EI 2*, vol. 1, 1032-1033 (٦) (٧) (٨) (٩)
أحمد السباعي، تاريخ مكة، ج ٢ .
١٣٩٩/١٩٧٩ ، ص ٣٦٦ .
الجميل ص ٤٧٨ و ٤٨٢ .
A.J. Wensinck, Mekka, in: *Encyclopédie de l'Islam* , T. III, Leiden/Paris 1936, pp 515-517.
- (١٠) أحمد ابن السيد زيني دحلان، أمراء البلد الحرام، مرجع سابق ص ٥١٦ - ٥١٧ .
Abu-Manneh, Sultan Abdülhamid II and the Sharifs, pp 6-7, no. 18.
Arabia, p 28. (١١) شامية، آل سعود، مرجع سابق ص ١٣٤ - ١٣٥ .
Al-'Amr, pp 6-8. (١٢) المرجع السابق ص ٨٩ .
Ochsenwald, Religion, Society, op. cit. (١٣) المرجع السابق ص ٨ وراجع كتاب:
المرجع السابق ص ٨ وراجع كتاب:
المرجع السابق ص ٤٢-٤١ وحول خط حديد الحجاز أنظر (١٤) المرجع السابق ص ٤٢-٤١ وحول خط حديد الحجاز أنظر (١٥)

- William Ochsenwald , The Hijaz Railroad , Virginia 1980.
- (١٦) حمزة ص ٣١٧ . وعند ارتقاء سليمان القانوني العرش، كتب أمير مكّة برّكات بن محمد برّكات إليه مهتماً وتحدث عن «عرش أكثر السلطانات وأشهرها وعن كرسي الخلافة المجيدة»، نقلأً عن:
- Thomas W. Arnold, The Caliphate, London 1965, pp 157-158.
- Georgeon, p 531; Hurgronje p 319f. (١٧)
- Martin Kramer, Islam Assembled: The Advent of the Muslim Congresses, New York (١٨) 1986, p 6.
- Hurgronje p 318. (١٩)
- Ochsenwald, Religion , Society p 6. (٢٠)
- . حمزة ص ٣١٧ . (٢١)
- Al-'Amr, pp 129. (٢٢)
- Hurgronje, p 318. (٢٣)
- Al-'Amr, p 43, no. 3, p 45. (٢٤)
- . المرجع السابق ص ٤٢ وما يليها. (٢٥)
- . الجميل ص ٤٨٠ . (٢٦)
- Al-'Amr, p 45. (٢٧)
- . الجميل ص ٤٧٩ . (٢٨)
- F.O. 78/2988, *Zohrab to Salisbury, secret/ Conf./ separate, Jeddah 12.3.1879*. (٢٩)
- Al-'Amr, p 55. (٣٠)
- Hurgronje, pp 319-320. (٣١)
- Abu-Manneh, Sultan Abdülhamid II and the Sharifs, op. cit., p 2. (٣٢)
- Al-'Amr, p 45. (٣٣)
- Hurgronje, p 319. (٣٤)
- Thomas E. Marston, Britain's Imperial Role in the Red Sea Area 1800-1878, (٣٥) Connecticut 1961, p 369; Wilfrid Scawen Blunt, The Future of Islam, London 1882 , pp 115-116.
- Marston, pp 218-219. (٣٦)
- Al-'Amr, pp I, 53, 100f. (٣٧)
- Ochsenwald, Religion, Society pp 5-9. (٣٨)
- Hurgronje, p 319. (٣٩)

(٤٠) جاء في المادة الأولى لاتفاقية الدفاع والتحالف المعقدة بين بريطانيا والسلطنة في ٤ حزيران ١٨٧٨ ما يلي: تعهد بريطانيا أنه «إذا أبقت روسيا على إحتلالها لباطوم وأردهان وقارس أو أي منها، وإذا حاولت روسيا من جانبها في المستقبل الإستيلاء على أيه مناطق أخرى لجلالة السلطان (العثماني) في آسيا... أن تنتضم (بريطانيا) إلى جلالة السلطان للدفاع عنها (الأقاليم العثمانية) بقوة السلاح... وم مقابل ذلك... يوازن جلالة السلطان على أن يحول جزيرة قبرص إلى إنكلترا لكي تُحتل وتدار من قبلها»، نقلًا عن 412 Hurewitz, vol. I , p 412.

Jean Haslip, *Der Sultan. Das Leben Abdul Hamids II*, München 1968, p 167; Wadie (٤١) Jwaideh, *The Kurdish Nationalist Movement: Its Origins and Development*, unpubl. Ph.D. Syracuse University 1960, p 285.

(٤٢) بتاريخ ٢ أيلول ١٨٧٦ أصدر غلاستون كتبه:

«Bulgarian Horrors and the Question of the East».

وصف فيه العثمانيين بأنهم برابرة وأعداء الإنسانية، أنظر:

Langer, *European Alliances* , op cit., pp 94-95.

Marston, p 263; Al-'Amr, p 234. (٤٣)

Mohamed Said Shafy, The Export Trade of Juddah in the 19th Century, in: *Revue d'Histoire Maghrebine*, 31-32(1982), pp 367-372. (٤٤)

Al-'Amr, pp 251f., 255. (٤٥)

Ochsenwald, *Religion, Society* p 88. (٤٦)

(٤٧) أنظر المرجع في حاشية (٤٠) من هذا الفصل.

PAAA, *Orientalia Generalia* (=OG) 9, 1, Bd. 7, *Oppenheim an Bülow, Nr. 219, A* (٤٨) 10369, Kairo 10.6.1904.

F.O. 424/83, *Layard to Salisbury, secret, no. 418, Therapia 21.5.1879*. (٤٩)

«England will be represented as the enemy of Islam, and as aiming at the overthrow of (٥٠) the Caliphate and the destruction of the Mahomedan religion» , F.O. 881/4341, *Layard to Granville, no. 10, Therapia 25.5.1880*

وقارن بشوكلا ص ١٥٥ - ١٧١ وبلغ رقم (١٢).

Shukla, pp 163ff. (٥١)

F.O. 881/4341, *Layard to Salisbury, no. 3, Constantinople 6.4.1880*. (٥٢)

F.O. 881/4341, *Layard to Granville, no. 10, Therapia 25.5.1880*. (٥٣)

وقارن بملحق رقم (١٢).

(٥٤) راجع الفصلين الآخرين من كتاب شوكلا.

- (٥٥) انظر تقرير المستشرق أوبنهايم حول سياسة بريطانيا في الجزيرة العربية في الأرشيف الألماني :
 PAAA, OG, 9,1, Bd. 5, *Oppenheim an Bülow «England und Arabien»*, Nr. 132, A
13809, Oberkassel (Siegkreis), 26.9.1901.
- (٥٦) Abu-Manneh, Sultan Abdülhamid II and the Sharifs, op. cit., p 4.
- (٥٧) Kramer, Islam Assembled, op. cit. p 13.
- (٥٨) F.O. 195/1375, *Zohrab to Goschen*, no. 23, Jeddah 23.4.1881.
- (٥٩) F.O. 424/83, *Malet to Salisbury*, no. 375, Therapia 4.5.1879.
- (٦٠) Gabriel Charmes, La situation de la Turquie, I. La politique du Califat et ses consequences, in: *RDM*, 47(1881), p 741f.
- (٦١) Shukla, pp 170-171.
- (٦٢) «Panislamism and the Caliphate», in: *The Times* (London), 19.1.1882.
- (٦٣) «Panislamism and the Caliphate» in: *The Contemporary Review* (London) 43(1883), pp 66-68.
- (٦٤) Blunt , The Future of Islam, pp 90-159, 179-213 I. L. Fadyeyeva, Ofitsial'niye doktrini v e idyelogii I politikye Omsanskoy Impyerii (Osmanizm-Panislamizm) , XIX-XX Moscow 1985, pp 150-151.
- (٦٥) F.O. 78/3131, *Zohrab to Salisbury, secret , Cairo* 9.1.1880.
- (٦٦) F.O. 195/1375, *Zohrab's report on the neccessity of a consular establishment in the Red Sea , Jeddah* 1.6.1881.
- (٦٧) F.O. 78/2988, *Zohrab to Salisbury, conf./ political*, no. 1, Jeddah 6.8.1879.
- (٦٨) المرجع السابق، الوثيقة نفسها وقارن بملحق رقم (٦).
- (٦٩) Tibawi, Modern History of Syria, pp 162-163.
- (٧٠) Ochsenwald, Religion, Society, p 179.
- (٧١) عدد ٢٣٦ تاريخ ٧ تموز ١٨٧٩ .
- (٧٢) Ismail, Documents T 14, *Delaporte à Waddington*, no. 22, Beyrouth 9.10.1879, pp 114- 115.
- (٧٣) Shamir, p 131.
- (٧٤) F.O. 78/2988, *Zohrab to Salisbury, secret /conf./ separate*, Jeddah 12.3.1879; Al-'Amr, p 55.
- (٧٥) «The Sultan is acknowledged as the elected leader of the Mahomedan religion, the Shariff is recognized as the direct descendant of the Prophet and head of the faith»,

F.O. 78/2988, *Zohrab to Salisbury, secret/conf./separate, Jeddah 12.3.1879.*

قارن بملحق رقم (٥).

«... being direct descendant of the Prophet he is (the Sherif) for Mussulman pretty well (٧٦) what the Pope for the Roman Catholic Church», F.O. 78/3131, *Zohrab to Alston, private/secret, Cairo 12.1.1880.* وقارن بملحق رقم (١٠).

«... he is regarded and is held in the greatest veneration by the Mussulman world, he is (٧٧) always spoken of a ' our Master or Lord '», F.O. 78/3131, *Zohrab to Salisbury, secret, Cairo 9.1.1880.* وقارن بملحق رقم (٩).

F.O. 195/1375, *Zohrab's report, op. cit., Jeddah 1.6.1881.* (٧٨)

(٧٩) لا تشير الوثائق المتوفرة إلى جنسية يوسف القدسي، ومن المؤكد أنه كان مسلماً يستطيع أن ينتقل بحرية في الأماكن المقدسة المحظورة على المسيحيين والأجانب ويحظى على ثقة الإنكليز.

F.O. 78/3131, *Zohrab to Salisbury, secret, Cairo 9.1.1880.* (٨٠)

قارن بملحق رقم (٩).

(٨١) كانت «المسألة الأفغانية» من المسائل التي أبدى الشريف حسين استعداده لخدمة بريطانيا فيها، وذلك يبحث الزعامات الإسلامية في أفغانستان ووسط آسيا على التحالف مع بريطانيا ضد روسيا، حول علاقة الشريف بالمسألة الأفغانية، أنظر شوكلا ص ١٨٨-١٨٩. كما أن هناك رسالة بالعربية بعث بها الشريف حسين إلى زوهراب تتعلق بهذا الموضوع محفوظة في الأرشيف البريطاني، انظر:

F.O. 78/2988, *Grand Shariff to Zohrab, 22.12.1879; Zohrab to Salisbury, secret/conf./separate, Jeddah 12.3.1879.*

وتاريخ رسالة الشريف إلى زوهراب بالتقويم الهجري هو ٣ محرم ١٢٩٧، وقارن بملحق رقم (٧).

F.O. 78/2988, *Zohrab to Salisbury , secret/ conf./separate, Jeddah 8.12.1879.* (٨٢)

F.O. 195/1251, *Salisbury to Zohrab , no. 1, secret, Foreign Office, 7.8.1879.* (٨٣)

F.O. 78/2988, *Zohrab to Salisbury, secret/ conf./ separate, Jeddah 8.12.1879.* (٨٤)

F.O. 78/2988, *Zohrab to Salisbury, secret/conf./separate, Jeddah 12.3.1879.* (٨٥)

قارن بملحق رقم (٥).

(٨٦) رسالة بالعربية من الشريف حسين إلى زوهраб بتاريخ ٣ محرم ١٢٩٧هـ. وقارن بملحق رقم (٧).

F.O. 78/2988, *22.12.1879.*

F.O. 78/3131, *Zohrab to Salisbury, secret, Cairo 9.1.1880.* (٨٧)

قارن بملحق رقم (٩).

F.O. 78/2988, Zohrab to Salisbury, secret/conf./separate, Jeddah 8.12.1879. (٨٨)

F.O. 78/2988, Zohrab to Salisbury, Jeddah 8.12.1879. (٨٩)

F.O. 78/2988, Zohrab to Salisbury, secret/conf./separate, Jeddah 12.3.1879. (٩٠)

«If ...he (the Sharif) could be assured of the support and protection of Her Majesty's Government, I feel (Zohrab) certain he would not hesitate to denounce to the Turks any act of their Government which militated against the interests of England», F.O. 78/3131, Zohrab to Salisbury, secret, Cairo 9.1.1880. (٩١)

قارن بملحق رقم (٩).

F.O. 78/3131, Zohrab to Alston, private/secret, Cairo 12.1.1880. (٩٢)

قارن بملحق رقم (١٠).

F.O. 78/2988, Zohrab to Salisbury, secret/ conf. political/separate, Jeddah 22.12.1879. (٩٣)

وقارن بملحق رقم (٨).

«... what England might gain by aiding in altering the political position of the Province», F.O. 78/3131, Zohrab to Alston, private/ secret, Cairo 12.1.1880. (٩٤)

وقارن بملحق رقم (١٠).

«The question to be solved consequently in this, whether it is advisable or politic to take advantage of the feelings animating the Grand Sheriff and the disposition of the people to establish British influence in the Hedjaz and by the exercise of such influence to obtain a certain control over all Mussulmans» F.O. 78/3131, Zohrab to Salisbury , secret, Cairo 9.1.1880. (٩٥)

وقارن بملحق رقم (٩).

F.O. 78/3131, Zohrab to Alston, private/ secret, Cairo 12.1.1880. (٩٦)

وقارن بملحق رقم (١٠).

«... the Government of Turkey has consequently ceased to regard England as a friend, we must therefore get a strong weapon against her which will compel the Sultan to come back to us or bring about his ruin. Such a weapon, I believe we now have to our hand in the Hedjaz or the Grand Sheriff. If we establish an influence by a kind of Protectorate in the Hedjaz we shall be able to quide the whole Mussulman World», F.O. 78/3131, Zohrab to Alston, private/secret, Cairo 12.1.1880. (٩٧)

وقارن بملحق رقم (١٠).

Al-'Amr, p 220. (٩٨)

F.O. 78/2988, *Zohrab to Burners, most secret/ conf., Jeddah 6.12.1879*; F.O. 78/2988, (٩٩)
Zohrab to Salisbury, conf./political, no. 1, Jeddah 6.8.1879.

وقارن بملحقي رقم (٦) و(١١).

F.O. 424/97, *Layard to Salisbury, secret, no. 113, Constantinople 26.3.1880, incl. 'Palace reports respecting death of the Sheriff of Mecca'.* (١٠٠)

لا توضح الرؤية طبيعة المهمة التي أتى لأجلها العمالء الثلاثة. قارن بملحق رقم (١٥).

Shukla, p 220. (١٠١)

F.O. 424/97, *Layard to Salisbury, secret, no. 113, Constantinople 26.3.1880.* (١٠٢)

وقارن بملحق رقم (٤).

(١٠٣) المرجع السابق، الوثيقة نفسها.

F.O. 881/4341, *Layard to Granville, conf. no. 10, Therapia 25.5.1880.* (١٠٤)

وقارن بملحق رقم (١٢).

F.O. 424/98, *Layard to Secretary of Foreign Affairs, secret, no. 461, Constantinople 27.4.1880.* (١٠٥)

Panislamism and the Caliphate, in: *The Contemporary Review*, 43(1883), p 60. (١٠٦)

(١٠٧) كان الشريف حسين يعتزم إرسال بعثة إلى أفغانستان ليقول لزعamasاتها إن من يحارب بريطانيا يحارب الإسلام. وقد أرسل الشريف إلى حكومة الهند يطلعها على تحركاته هذه.

F.O. 78/3138, *Malet to F.O., secret, no. 5, Cairo 8.1.1880.*

(١٠٨) «تراث الفتوح» عدد ٢٧٤ تاريخ ٣٠ آذار ١٨٨٠ و عدد ٢٧٥ تاريخ ٥ نيسان ١٨٨٠ و:

Ochsenwald, Religion, Society , op. cit. p 180.

Shukla, p 196. (١٠٩)

Marston, p 217. (١١٠)

Charmes, La situation de la Turquie, op. cit., pp 742-743. (١١١)

Shukla, p 199. (١١٢)

Abu-Mannneh, Sultan Abdülhamid II and the Sharifs of Mecca, op. cit., p 7. (١١٣)

Al-'Amr, pp 138-139. (١١٤)

F.O. 424/97, *Layard to Salisbury, no. 112, Constantinople 25.3.1880.* (١١٥)

Shukla, p 194. (١١٦)

'a very painful feeling', F.O. 424/97, *Layard to Salisbury, no. 112, Constantinople 25.3.1880.* (١١٧)
وقارن بملحق رقم (١٣).

«*The assassination of Sheikh Hussein, the late Grand Sheriff of Mecca, may have grave political consequences, and may seriously affect our interests in India*», F.O. 424/97, Layard to Salisbury, secret, no. 113, Constantinople 26.3.1880.

وقارن بملحق رقم (١٤).

(١١٩) المرجع السابق، الوثيقة نفسها - وقارن بـ شارم ص ٧٤١ - ٧٤٢ وبلانت ص ١٢٤ - ١٢٦ .
F.O. 424/97, Layard to Salisbury, secret, no. 113, Constantinople 26.3.1880. (١٢٠)

وقارن بملحق رقم (١٤).

Ochsenwald , Religion, Society, pp 184-185, no. 28. (١٢١)

F.O. 424/97. Layard to Salisbury, secret, no 113, Constantinople 26.3.1880. (١٢٢)

Al-'Amr, p 254. (١٢٣)

Charmes, pp 742-743; Ochsenwald, Religion, Society p 180. (١٢٤)

(١٢٥) وقعت حادثة جدة في ١٥ حزيران ١٨٥٨ وسببها استبدال علم بريطانيا بعلم الدولة العثمانية إستناداً إلى حكم قضائي أصدرته محكمة قنصلية بريطانية وقضى بملكية السفينة لأحد الرعايا الإنكليز. وعندما حاولت سفينة حربية بريطانية تنفيذ الحكم، استاء السكان المسلمين في المدينة، فثاروا بها جمون الدبلوماسيين الأجانب والسكان المسيحيين. فقتل ثائباً قفصل بريطانيا وقنصل فرنسا وأربعة عشر مسيحياً. ورداً على ذلك، قصفت السفينة الحربية سيكلوبتس (Cyclops) مدينة جدة بمدفعها. وفي ٥ آب، أعدم أحد عشر شخصاً لمسؤوليتهم عن الحادثة، من بينهم قائد شرطة المدينة، أنظر :

Gerald de Gaury, Rulers of Mecca, London 1951, pp 250-252.

وقارن بـ أوكسنولد، مرجع سابق ص ١٤٣ - ١٥٢ .

«*He (Sherif Aun) has sent me (Layard) earnest assurance of his desire to entertain the most friendly relations with England, and to persevere in the policy of his family, which has always been favourable to her interests, should he hereafter be named Grand Sheriff*», F.O. 424/97, Layard to Salisbury, secret, no. 113, Constantinople 26.3.1880.

وقارن بملحق رقم (١٤).

Al-'Amr, p 209. (١٢٧)

F.O. 424/97, Layard to Salisbury, no. 112, Constantinople 25.3.1880. (١٢٨)

قارن بملحق رقم (١٣).

Abu-Manneh, Sultan Abdülhamid II and the Sharifs, op. cit. p 6 (١٢٩) نقلأً عن:

F.O. 424/97, Layard to Salisbury, secret, no. 113, Constantinople 26.3.1880. (١٣٠)

F.O. 881/4341, Layard to Secretary of State for Foreign Affairs, secret, no. 7, Constantinople 26.4.1880. (١٣١)

(١٣٢) عمل الشيخ فضل في السابق جاسوساً لبريطانيا في الهند، ثم اختلف معها وانتقل إلى معسكر السلطان عبد الحميد الثاني وأصبح من أنصار الجامعة الإسلامية، أنظر:

Fadyeyeva, op. cit., p 144.

. (١٣٣) المرجع السابق ص ١٤٤

Abu-Manneh, Sultan Abdülhamid II and the Sharifs , op. cit., p 8. (١٣٤)

Blunt, p 127f. (١٣٥)

F.O. 78/3314, *Zohrab to R. St. John Esquire, no. 13, Jeddah 17.2.1881.* (١٣٦)

F.O. 78/3314, *Yusuf Kudzzi to Zohrab, Jeddah 3.1.1881; Zohrab to R. St. John Esquire, no. 1, Jeddah 4.1.1881.* (١٣٧)

F.O. 78/3314, *Zohrab to Granville, secret, Jeddah 27.3.1881; Zohrab to Granville , secret, no. 11, Jeddah 28.3.1881.* (١٣٨)

. وقارن بشوكلا صفحة ١٩٨ - ٢٠٥

Shukla, p 200. (١٣٩)

F.O. 78/3314, *Zohrab to Granville, political, no. 4, Jeddah 13.1.1881; Moncrieff to Granville, political/Conf., no. 21, Jeddah 25.8.1881.* (١٤٠)

Abu-Manneh, Sultan Abdülhamid II and the Sharifs, op. cit. p 12. (١٤١)

. الذي يتحدث عن خمس رسائل، فيما يذكر شوكلا ص ٢٠٦ - ٢٠٨ ثلاثة.

Abu-Manneh, p 12, no. 53; Al-'Amr p 144. (١٤٢)

(١٤٣) يذكر رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠-١٩٠٩، القاهرة ١٩٧٠ ص ١١٥ ، أن سبب عزل الشريف عبد المطلب يعود إلى رفضه تنفيذ أوامر السلطان بقتل مدحت باشا في سجنه بالحججاز .

الفصل الرابع

كردستان والدولة العثمانية : الثورة والولاء

أولاً : تطور الأوضاع السياسية والاجتماعية - الاقتصادية في كردستان حتى الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٨-١٨٧٧)

برزت أهمية كردستان^(١) الجيوسياسية منذ الصراع العثماني - الصفوی مطلع القرن السادس عشر. وقد مال الأكراد ومعظمهم على المذهب السنی الشافعی^(٢) إلى العثمانيين ودعموهم ضد الصفویین مقابل الإبقاء على استقلالهم الداخلي الوراثي^(٣). وقد قدر السلطان العثماني سليم الأول يومها للأكراد موقفهم، فكلف المؤرخ الكردي إدريس بتنظيم المناطق المفتوحة. فلم يقض هذا على الزعامات القبلية أو الوراثية، بل قسم كردستان إلى مناطق ضمت خمسة عشر سنجقاً مبقياً عليها الزعامات الكردية^(٤). وبعد عام ١٥١٤، أخذت الدولة العثمانية تعمل على الاستفادة من أهلية الأكراد الحربية، فوطنتهم بكثافة في أرمينيا على التخوم بين فارس وجورجيا وأعفتهم من أية ضريبة مقابل حراسة الحدود وعدم الثورة ضدها. إضافة إلى ذلك، منح الأمراء الأكراد إقطاعيات، فانتظم هؤلاء في نظام التیمار واعترفت الدولة العثمانية بمركزهم الوراثي^(٥).

ومن أهم الإمارات الكردية التي لعبت دوراً بارزاً في تاريخ كردستان العثمانية، الإمارة الصورانية في هوديان ثم في حریر وبعد ذلك في رواندوز، والإمارات البابانية في السليمانية والبهدينانية في العمادية والبوتانية في جزيرة ابن عمرو، وكذلك العشائر البليباسية والجافية والهمماوند والهورامان على الحدود الفارسية. وقد عاشت هذه الإمارات والعشائر في حروب وتنافس دون أن تستطيع واحدة منها أن تسيطر بمفردها على كردستان كاملة. ومنذ القرن الثامن عشر، صعدت الإمارة البابانية كأقوى إمارات الكردية. وبسبب الصراع الأسري داخليها، تضعضعت تلك الإمارة في القرن التالي، مما

أفسح في المجال أمام الإماراة الصورانية للظهور كأقوى الإمارات الكردية. أما الإماراة البهدينانية، فكانت في مجال التصارع للإمارتين البابانية والصورانية^(٦).

وعلى الرغم من أن غالبية الإمارات والعشائر الكردية سنية المذهب، إلا أنها لم تتأخر في الاستنجاد بفارس كلما زاد العثمانيون من ضغطهم عليها، مما سرع الصراع العثماني - الصفوی. وما لبّثت فارس والدولة العثمانية أن هدأاً من صراعهما بتقاسم كردستان فيما بينهما وفقاً لمعاهدة زوهاب عام ١٦٣٩^(٧). ويدورها، عملت فارس على الاستفادة من الطاقات الحربية للأكراد المتواجدين داخل أراضيها، وخصوصاً قبيلة مغري، التي وصل أحد زعمائها وهو عزيز خان إلى رتبة قائد عام الجيش الفارسي^(٨).

وقد نمت الإمارات الكردية شبه المستقلة ووصل عددها مطلع القرن التاسع عشر إلى خمس عشرة إمارة رئيسية، على رأس كل واحدة منها عائلة معترف بها من قبل الدولة العثمانية. وقد حازت هذه الإمارات على استقلالية في ممارسة سلطتها على المجتمع الإقطاعي - القبلي الكردي القائم على العلاقات الزراعية والرعوية. وإلى جانب رباط الدم، لعبت القبلية^(٩) والاتحادات القبلية والقرى دوراً مهماً في تماسك المجتمع الكردي وخصوصاً في المناطق الجبلية المعزولة. وفي منتصف القرن التاسع عشر كان ثلث كردستان عبارة عن قبائل بدوى. وبالنسبة لأكراد السهول والسفوح وأكراد الجبال، وجدت اختلافات واضحة بينهم. وقد قام اقتصاد السهل على زراعة التبغ والقمح والشعير والأرز وارتکز على العلاقات المباشرة بين الإقطاعي والمزارع^(١٠). وقد كانت سلطة الإقطاعي مطلقة. فكان يحدد بنفسه مقدار الضريبة وأشكالها وطرق جبايتها^(١١). أما المزارعون، فكانوا يدفعون العُشر عن إنتاجهم الزراعي. كما كانت هناك ضريبة على الحيوان تفرض على عدد القطيع. وطالما كانت الحكومة العثمانية قوية، فقد كانت تجمع الأعشار بنفسها. وعكس ذلك، فإن الآغوات، الذين ساد نفوذهم في القرى، كانوا المرجعية ويقومون بدور الملتم^(١٢). وفي المدن، كبلتيس والجزيرة وهاكاري، وُجدت نخبة قليلة من الطبقة الكردية البرجوازية المثقفة^(١٣).

وحتى مطلع القرن التاسع عشر، حافظت الإمارات الكردية في الدولة العثمانية على استقلالها الداخلي^(١٤). لكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، خصوصاً عندما أخذت الدولة في عصر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨- ١٨٣٩) تقوي من سلطتها المركزية وتوسعتها. فقضت على علي باشا (تابلن) في يانينا (ألبانيا) عام ١٨٢٢ واستعادت طرابلس (ليبيا) وبغداد والموصل بين عامي ١٨٣١ و ١٨٣٥. وفي إطار هذه السياسة الجديدة، سعت الدولة العثمانية إلى القضاء على «استقلال» الإمارات والعشائر الكردية

وإخضاعها، مما أدى إلى قيام الأكراد بثورات عدة للدفاع عن «حقوقهم» المكتسبة امتدت على مدار القرن التاسع عشر.

والجدير بالذكر، أن الثورات الكردية تلك لم تكن تستند إلىوعي وطني أو إلى رؤية سياسية واضحة وتزامن معظمها مع أزمات السلطنة العثمانية وحروبها^(١٥). فخلال الحرب الروسية - العثمانية (١٨٠٦ - ١٨١٢)، ثار أمير بابان عبد الرحمن باشا^(١٦). وبعيد القضاء على الانكشارية عام ١٨٢٦^(١٧)، جدد الأكراد ثورتهم في راوندوز^(١٨). وكانت أهم تلك الثورات انتفاضة مير محمد، الذي سيطر على منطقة شاسعة من الموصل حتى الحدود الفارسية، وقام بتنظيم الإدارة والجيش والمنشآت الاقتصادية وشبكات المياه والجسور وأسس مجلساً من العلماء والحكماء لوضع القوانين وتدوين التاريخ وسك العملة بإسمه. لكن الدولة العثمانية قضت عليه عام ١٨٣٦^(١٩).

وما إن انتهت ثورة مير محمد، حتى أعلن الأمير بدر خان ثورته في بوتان، مستغلًا هزيمة السلطنة على يد محمد علي باشا في نصبيين عام ١٨٣٩. وقد اصطدم بدر خان بالناساطرة والكلدانيين، الذين رفضوا دفع الضرائب له بتحریض من الباب العالي^(٢٠). وقد أعلن بدر خان استقلاله عن السلطنة وسعى إلى توحيد الأكراد في دولة مستقلة تشمل المنطقة الممتدة من وأن إلى الموصل، وجعل من الجزيرة عاصمة له ورفع عليها العلم الكردي. ومن أهم أعماله، وضع حد لأعمال السلب والنهب وتنظيم جباية الضرائب وتوزيع الأراضي على الفلاحين وإرسال أكراد شبان للدراسة في أوروبا^(٢١). كما جعل بدر خان الخطبة له والعملة بإسمه^(٢٢). لكن الدولة العثمانية تمكنت من القضاء عليه عام ١٨٤٧ بدعم من الزعيم الكردي شير علي (يزدان شير)، الذي عينته حاكماً على هاكارى. وفي أعقاب ذلك، قامت الدولة العثمانية بإخضاع الإمارات الكردية المستقلة وحكمت كردستان العثمانية حكماً مباشراً^(٢٣). وفي الوقت نفسه، كانت فارس تسير على خطى الدولة العثمانية. فوضعت إمارتي مغرى وأرديلان الكرديتين تحت سلطتها المباشرة^(٢٤).

وتكرر مشهد الثورات الكردية نفسه أثناء حرب القرم وتحقيق روسيا انتصارات على العثمانيين في تموز عام ١٨٥٤ واستيلائهم على بايزيد. فثار شير علي بعد رفضه المشاركة في الحرب إلى جانب الدولة العثمانية، لا بل أظهر تعاطفاً مع روسيا وطلب مساعدتها ضد السلطنة دون جدو^(٢٥). وقد استولى شير علي على بلتيس والموصل وسيطر على المنطقة الواقعة بين بغداد ووأن وديار بكر. وإسوة بالثورات الكردية السابقة، فشلت انتفاضة شير علي لعوامل داخلية، أهمها الانقسامات في المجتمع القبلي

الكردي وتشرذم الأكراد ووقعهم تحت الهيمنتين الفارسية والعثمانية، فضلاً عن عدم تطويرهم لغة كردية موحدة مكتوبة أو محكية تقوي من تفاهم بعضهم مع البعض الآخر^(٢٦) وتكون أداة حركة أدبية - سياسية وطنية. أما الأسباب الخارجية لفشل الاتفاقيات، فكانت من جهة، عدم استطاعة روسيا أثناء حرب القرم الاستجابة لمشروع دولة كردية مستقلة، ومن جهة أخرى، مخاوف دولتي تحالف القرم ببريطانيا وفرنسا من قيام دولة كردية مستقلة تقع فيما بعد تحت نفوذ روسيا^(٢٧).

ثانياً : العرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨) وأثارها على كردستان العثمانية

أثناء الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة وفي أعقابها مباشرة، تضافرت عوامل اجتماعية - اقتصادية وسياسية عدة دفعت الأكراد إلى الثورة ضد الحكومة العثمانية. فقد أدت الحرب المذكورة، التي دارت رحاحها في المناطق الكردية إلى تقويض الاقتصاد في مناطق الأنضول الشرقية. وأثناء العمليات العسكرية، حمل الأكراد عبء ضرائب شديدة، مادية وعينية، لا سيما تمويل القوات العثمانية بكل ما يلزم، وإقامة الجند العثمانيين لدى الأسر الكردية^(٢٨). فضلاً عن ذلك، زادت الدولة العثمانية من طلباتها لتجنيد الأكراد.

ولتمويل حربها ضد روسيا، عمدت الدولة العثمانية إلى زيادة حجم الضرائب المفروضة على الأماكن والأراضي مرات عدة، مما انعكس مباشرة على معيشة الفلاح الكردي، الذي كان يثن من جراء تعسف الإقطاعي المحلي، ولم تسعفه في السابق قوانين الدولة (قانون الأرضي لعام ١٨٥٨) للتخلص من اضطهاده وجعله مالكاً حقيقياً للأرض وعلى علاقة مباشرة مع الدولة يؤدي لها الضريبة دون وسيط^(٢٩). كما فرضت الدولة العثمانية ضرائب مرتفعة على الأغنام أصابت أوضاع الأكراد الرحل وبشه الرحل وجعلتهم يهاجرون شمالاً في اتجاه الأرضي الروسي^(٣٠).

وفيما تمكنت الفلاحون الأرمن أثناء الحرب المذكورة من الصمود نسبياً بفضل المساعدات الأجنبية^(٣١)، أدت الأزمة الاقتصادية إلى تحول الفلاحين الأكراد إلى إجراء عند كبار الإقطاعيين والملاكين، ودفعتهم وبالتالي للهجرة إلى المدن بحثاً عن عمل. وفي مطلع عام ١٨٨٠، أصدر الباب العالي قانوناً خفض بموجبه من قيمة العملة العثمانية، مما ساهم بدوره في الشدة الاقتصادية وارتفاع الأسعار^(٣٢). ونتج عن الجفاف وسوء المحصول عامي ١٨٧٨ و١٨٧٩ تدهوراً آخر في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

والصحية. فانتشر الغلاء والمجاعة والوباء. وقد سببت المجاعة كوارث، خصوصاً في مناطق ديار بكر والموصل. وفي هاكارى وحدها، حصّلت المجاعة حوالي عشرة آلاف شخص، مما جعل الناس يهاجمون مستودعات العجوب^(٣٣).

إضافة إلى ذلك، أدى وجود الباش بوزوق (القوات العثمانية غير النظامية) في كردستان بعد انتهاء الحرب وانقطاع رواتبها، إلى قيامها بأعمال السلب والنهب في القرى الكردية ملحقة القهر والظلم بالسكان^(٣٤). وتحت وطأة هذه الظروف، ساد سخط لدى الطبقة الفلاحية العريضة، ترافق مع نقصة الأمراء السابقين والزعamas الكردية تجاه «التنظيمات»، التي سلّبتهم امتيازاتهم^(٣٥) ومع صعود الزعامات الدينية الصوفية إلى السلطة.

ومنذ الأيام الأولى للحرب الروسية - العثمانية الأخيرة، أظهر الأكراد عدم الطاعة والولاء لزعامتهم وللسلطات العسكرية العثمانية، وكانوا يغادرون ساحات القتال أفراداً أو بتشكيلات كاملة عند أول فرصة حاملين معهم أسلحتهم وذخائرهم. وعندما لم تفلح معهم وسائل الترغيب، أو التشديد على «الرابطة العثمانية»، عمدت القيادة العسكرية العثمانية إلى تحويل ما تبقى لها من أكراد فرسان إلى مشاة لإعاقة فرارهم من وحداتها^(٣٦).

وبتحقيق القوات الروسية أواخر عام ١٨٧٧ ومطلع العام التالي انتصارات حاسمة على الجيوش العثمانية في نواحي قارس وبايزيذ وساغان لوغ وقلعة خينيس، تغير الولاء السياسي للأكراد تجاه السلطنة العثمانية نتيجة للاعتقاد الذي ساد بقرب تفككها وانهيارها^(٣٧). وكتب إيفانوف (Ivanov)، فنصل روسيا في أرضروم إلى رؤسائه يقول: «إنني على ثقة بأن كردستان مهتمة الآن بأذكار الثورة والاستعداد لها»^(٣٨). وبالفعل، ثار أكراد ماردین وهاكاری وبهدینان ودير سيم وقمعهم العثمانيون بكل قسوة. كما ثار عثمان باشا وحسين باشا ولدا الزعيم الكردي بدر خان واحتلوا جزيرة إين عمرو بالقرب من نهر دجلة. وأعلن عثمان باشا لفترة قصيرة استقلال كردستان العثمانية عن السلطنة ونصب نفسه أميراً عليها وفُرِئَ إسمه في المساجد أثناء خطبة الجمعة. وقد تمكن الثوار الأكراد من إلحاق الهزائم بالقوات العثمانية التي أرسلت ضدهم. ولكن العثمانيين عادوا وتمكنوا من القضاء على ثورته واعتقلوه مع شقيقه مطلع عام ١٨٧٩^(٣٩).

ولم ينحصر أثر الحرب الروسية - العثمانية على كردستان فحسب، بل شمل كذلك أطرافها الجنوبية والشمالية الشرقية. فثارت القبائل البدوية العربية المنتشرة من بغداد إلى البصرة وقطعت طريق الملاحة في نهر دجلة واستولت على حمولة السفن. كذلك،

إمتنعت كربلاه والتلجم عن دفع الضرائب وأسستا - بعد مغادرة القوات العثمانية المدينتين في كانون الأول عام ١٨٧٧ إلى الجبهات مع روسيا - نظاماً خاصاً. وفي الشمال الشرقي، أظهر مسيحيو المدن (الأرمن) تعاطفاً مع «الفاتحين الروس»^(٤٠). إضافة إلى ذلك، ثار مسيحيو جبل الزيتون ضد الحكم العثماني وخصوصاً في المدن القريبة من مرعش. ولم ينفذهم في ثورتهم الثانية عام ١٨٧٨ من انتقام القوات العثمانية سوى تدخل القنصل البريطاني في حلب، بعدما تعهدوا بالولاء مجدداً للدولة^(٤١).

ثالثاً : صعود الزعامات الدينية إلى السلطة : الشيخ عبيد الله (النهرى) ومشروع «كيان أرمني» في شرق الأناضول (الانتفاضة الأولى عام ١٨٧٩)

بقضاء الدولة العثمانية على «استقلال» الإمارات الكردية وإخضاعها العشائر الكردية، حدث فراغ في الزعامة المدنية بكردستان العثمانية (= قواعد السلطة) سرعان ما ملأه رجال الدين وشيوخ الطرق الصوفية وأسرهم من القادرية والنقشبندية^(٤٢). ففي السابق، كان رجال الدين يحظون باحترام الزعامات المدنية دون أن يتدخلوا في السياسة بشكل علني. وبينشوة الفوضى بعد سقوط الإمارات الكردية، أخذوا يلعبون دوراً تحكمياً بين القبائل والعشائر والأغوات المتصارعين. ومن هنا، أخذت الطرق الصوفية ورجال الدين تشق طريقها عبر الخطوط القبلية^(٤٣) مدعية زعامة دينية - سياسية لتحقيق سياسة اتجهت نحو التعبير عن الهوية المحلية^(٤٤).

كان عبيد الله (النهرى) أبرز القادة الدينيين وأحد كبار شيوخ الطريقة النقشبندية والإقطاعيين في منطقة النهرى بهاكاري، وهو الذي وصفته التقارير القنصلية البريطانية بأنه : «... الأكثر نفوذاً في كردستان وإن الناس يتظرون إليه بإجلال أكثر من السلطان (العثماني) نفسه»^(٤٥). كما وصفته المصادر الروسية بأنه : «أعظم زعيم روحي كردي»^(٤٦). وقد برزت زعامة الشيخ عبيد الله مطلع السبعينيات من القرن التاسع عشر، عندما رفض أكراد فارس دفع الضرائب إلى الحكومة الفارسية متذرعين بأنهم يدفعونها إلى الشيخ عبيد الله بموجب إمتياز كان والده قد حصل عليه من شاه فارس عام ١٨٣٦ . وقد جردت فارس حملة عسكرية ضده جعلته يستجذ بالدولة العثمانية^(٤٧).

وبعدما كان الشيخ عبيد الله قد دعم الدولة العثمانية على مضض في حربها ضد روسيا في شمال كردستان عامي ١٨٧٧ و١٨٧٨ رافضاً دعوات روسية متكررة له للتحالف معها ضد السلطان العثماني ، عادت علاقاته وتدهورت مع الباب العالي بعديد انتهاء الحرب المذكورة بسبب سوء الإدارة العثمانية وما لحق بكردستان من كوارث

اجتماعية - اقتصادية من جراء تلك الحرب. وأدى تفاقم الأوضاع في كردستان إلى وضعه خطة مزدوجة : جعل نفسه حاكماً على كردستان العثمانية تحت سيادة الباب العالي (استقلال ذاتي)، ومن ثم تحرير كردستان بكمالها من الحكمين العثماني والفارسي. وفي سبيل ذلك، أعلن اتفاقية قصيرة الأمد ضد السلطنة عام ١٨٧٩ هدفت إلى الحصول على الاستقلال الذاتي، فيما اتجهت الثورة الثانية (١٨٨٠) إلى تحرير كامل كردستان، على أن تبدأ أولاً بكردستان العثمانية ثم تحول بعد ذلك نحو كردستان الفارسية. إلا أن تعديلاً في اللحظة الأخيرة جعل تلك الثورة تتجه أولاً ضد فارس.

مهدت إذن العوامل الاجتماعية - الاقتصادية في كردستان وهزيمة الدولة العثمانية على يد روسيا الطريق لصعود زعامة الشيخ عبيد الله إلى السلطة، في وقت غابت عن الساحة الزعامات المدنية السابقة أو تشتت. فاتجهت الأنظار إليه لتغيير هذه الأوضاع. ورغم جذوره الإقطاعية والدينية، فقد ظهر إلى الشيخ عبيد الله على أنه «محرر» و«زعيم سياسي»^(٤٨).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا حدثت اتفاقية الشيخ عبيد الله الأولى عام ١٨٧٩ وما علاقتها بمقررات مؤتمر برلين (١٨٧٨) والمأساة الأرمنية؟

إضافة إلى تراكم المشكلات الاجتماعية - الاقتصادية في كردستان من جراء الحرب الروسية - العثمانية، فمما لا شك فيه أن تضارب «الجيوبوليتيك» بين الأكراد والأرمن في شرق الأناضول كان عاملاً رئيسياً آخر عجل في ثورة الشيخ عبيد الله، التي اختلفت عن الاتفاقيات الكردية السابقة باتجاهها نحو إنشاء كردستان مستقلة ذاتياً أو كلياً^(٤٩). فبعدما لحظت المادة ٦١ من معاهدة برلين إصلاحات جذرية للأرمن وتعهدت الحكومة العثمانية بموجب المعاهدة المذكورة ضمان سلامتهم الأرمن ضد تعديات الأكراد والجركس^(٥٠)، عملت بريطانيا على تعيين خمسة قناصل «عسكريين» لمهمة التجوال في الأناضول وأرمينيا لل الاستماع إلى شكاوى السكان المسيحيين حول الإدارة العثمانية وأفعال الزعامات الكردية وإرسال تقارير عن ذلك إلى السفير البريطاني في الأستانة^(٥١). وقد أعطى هذا الأكراد الانطباع بأن تلك الدولة على وشك إعلان حمايتها على الولايات الشرقية في الأناضول. ومع تعيين قنصل بريطاني في وأن عام ١٨٧٩، سرت شائعات عن قرب قيام دولة أرمينية مستقلة ذاتياً تحت الحماية البريطانية. وبين عامي ١٨٧٨ و١٨٨١، أسس الأرمن منظمتين سريتين، الأولى في وأن (جمعية الصليب الأسود) والثانية في أرضروم (المدافعون عن الوطن)^(٥٢). ولهذا، خشي الأكراد من أن تمهد الإصلاحات الموعودة و«الاستعدادات الأرمنية» الطريق إلى قيام دولة أرمنية في شرق

الأناضول حيث انصبت طموحاتهم في إنشاء كيان خاص بهم، وكذلك، من أن يؤدي في قيام دولة أرمينية إلى إضعاف نفوذهم في تلك المنطقة^(٥٣).

وقد علق الشيخ عبيد الله على بنود معاهدة برلين بما يتعلّق بالأرمن ومسيحيي السلطنة في شرق الأناضول بالقول : «مَاذَا أَسْمَعَ، إِنَّ الْأَرْمَنَ سَيَحْصُلُونَ عَلَى دُولَةٍ مُسْتَقْلَةٍ فِي وَأَنَّ، وَإِنَّ النَّاسَاطِرَةَ سَوْفَ يَرْفَعُونَ الْعِلْمَ الْبَرِيطَانِيَّ وَيَعْلَمُونَ أَنفُسَهُمْ رَعَايَا بَرِيطَانِيِّينَ، لَنْ أَسْمَعَ بِذَلِكَ حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ دُعْوَةُ النَّسْوَةِ إِلَى حَمْلِ السَّلاحِ»^(٥٤). وكان نمو قوة النساطرة قد جاء نتيجة استفادة هذه الأقلية الدينية من «التنظيمات» ومن الحماية البريطانية لها واعتمادها على المبشرين الأجانب^(٥٥). ولهذه الأسباب كلها، سار الأكراد بعد معاهدة برلين في اتجاه لعرقلة تنفيذ إصلاحات للأرمن. وتواتفت توجهاتهم بهذه مع سياسة الباب العالي غير المعلنة الرافضة وضع الإصلاحات التي أقرتها معاهدة برلين لمصلحة الأرمن موضع التنفيذ. وقد حصل الشيخ عبيد الله في معارضته تلك الإصلاحات على دعم السلطان عبد الحميد الثاني . وبالمقابل، اعتبر السلطان العثماني حركة الشيخ عبيد الله أداة يمكنه أن يوازن بها القومية الأرمنية^(٥٦).

ومنذ عام ١٨٧٩ ، أخذ الشيخ عبيد الله يحضر لانتفاضة ضد السلطنة^(٥٧) ويكشف في الوقت نفسه من اتصالاته داخل كردستان ومع خارجها. فاتصل بالأشوريين لتنسيق الانقلاب ضد السلطنة في الأناضول واعداً المسيحيين بمعاملة متساوية بال المسلمين . كما عقد حلفاً مع فرحان، شيخ بدو بغداد، بغية الاستيلاء على الموصل^(٥٨) . وبالإضافة إلى ذلك، أجرى الشيخ اتصالات مع خديوي مصر إسماعيل باشا وشريف مكة حسين بن عون للحصول على تأييدهما^(٥٩) ، هنا في الوقت الذي كان فيه شريف مكة يحضر مع الإنكليز مشروع إعلان خلافة عربية في الحجاز، وفي الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام تشهد تحركات مرية لعملاء الشريف ولمدحت باشا و«جمعية بيروت السرية»^(٦٠) . ولذا، فإن إرسال الشيخ عبيد الله إلى شريف مكة يطلب دعمه في مشروع الانتفاضة ضد السلطان العثماني ، يحملنا على الاعتقاد بوجود اتصالات ثنائية بين الحجاز وكردستان لتنسيق الانقلاب ضد السلطنة. ولربما كانت الموصل حلقة الالتقاء بين حركتي الحجاز وكردستان . فقد جاء في إحدى الوثائق الفرنسية ان الموصل كانت أحد مراكز حركة المؤامرة الحجازية^(٦١) ، فيما كانت المدينة نفسها عاصمة الدولة الكردية المنشورة^(٦٢) . وقد يكون موعد حجازي زار كردستان سراً أثناء بعثات شريف مكة إلى العالمين العربي والإسلامي في صيف وخريف عام ١٨٧٩ وذلك للتحرير ضد السلطان^(٦٣) .

أدرك الشيخ عبيد الله منذ بداية انتفاضته أن مشروع كردستان مستقلة هو مسألة تمس التوازن الدولي في آسيا الصغرى ويحتاج تحقيقه إلى دعم خارجي وبشكل خاص من كل من روسيا وبريطانيا. ولهذا السبب، أجرى اتصالات مع قنصلية روسيا في أرضروم ووأن لكسب تأييد دولتهما إلى مشروعه. وقد طلب الشيخ من روسيا عبر قنصلها في أرضروم أن تدعم قيام كردستان مستقلة تحت حمايتها^(٦٤). ولفت الشيخ انتباه القنصل الروسي في وان إلى الأهمية الاستراتيجية للمناطق الكردية في أية حرب مقبلة بين بلاده وبريطانيا في آسيا الصغرى، حيث يسيطر الأكراد على مسالك هذه الأقاليم كافة^(٦٥).

وفي كانون الأول عام ١٨٧٩ كتب قنصل روسيا في تبريز يقول : «في هذه الأيام يخطط الشيخ (عبيد الله) لانتفاضة ضد الدولة العثمانية عازماً على تشكيل دولة مستقلة من كردستان تركيا يقف هو على رأسها، وقد اختار مدينة الموصل مقراً له»^(٦٦). وسبق ذلك بقليل ، إرسال نيقولا إغناطييف ، سفير روسيا في الآستانة ، إلى قيادة القوات الروسية في القوقاز يحثها على إقامة صلات سرية لكسب ود الأكراد^(٦٧). ومع ذلك ، كانت الحكومة الروسية تعارض قيام دولة كردية مستقلة. فبغض النظر عن خروجها منهكة من الحرب ضد الدولة العثمانية وانشغلتها بشورة تركمان التككي على مقرية من الحدود مع فارس^(٦٨) ، إلا أنها كانت ترى أن موافقتها على قيام كيان سياسي كردي سيكون معنها خسارتها للمناطق الكردية التي كسبتها بموجب معاهدة برلين^(٦٩) . إضافة إلى ذلك ، اعتبرت بطرسبورغ أن وجود دولة كردية بحمية دينية - صوفية على حدودها ويزعامة الشيخ عبيد الله سوف يشكل خطراً عليها^(٧٠) ، خصوصاً أنها لم تكن قد نسيت بعد الثورات التي كان النتشبنديون قد قاموا بها في داغستان وتشيشينيا (الشيشان) أثناء الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر بزعامة غازي محمد وشامل^(٧١) .

أما بريطانيا، فكانت تخشى قيام دولة أرمنية مستقلة من أن تقع تحت نفوذ روسيا وتصبح أعيتها، أو أن يؤدي قيام مثل هذه الدولة إلى إيقاظ مخاوف فارس ويدفعها وبالتالي إلى الارتماء في أحضان روسيا^(٧٢) . ففي السابق، وقفت بريطانيا ضد ثورتي بدر خان وشير علي وقامت بإحداث إنشقاق بين الأكراد^(٧٣) . لذلك ، نظرت بقلق شديد إلى تحركات الشيخ عبيد الله واتصالاته خارج هاكارى ومارست ضغوطات على الباب العالي أثناء الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة وفي أعقابها لإبعاد الزعامات الكردية صاحبة النفوذ في كردستان. وفي الوقت نفسه ، عملت تلك الدولة على أن تنسق فارس والدولة العثمانية موقفهما من المسألة الكردية^(٧٤) . كما مارست ضغطاً على الآشوريين كي لا ينضموا إلى الثورة الكردية^(٧٥) . وبالإضافة إلى ذلك ، قامت بريطانيا باستمالة الأكراد عن

طريق الوعود والرشاوي. وتذكر المصادر أن كلايتون (Clayton)، نائب قنصلها في وأن، قصد الشيخ عبيد الله عام ١٨٧٩ في مقره في باشقلاء^(٧٦) وتفاوض معه وأن الشيخ حمله رسالة إلى حكومته. وتضيف تلك المصادر، أن بريطانيا أرسلت إلى الأكراد في أعقاب ذلك شحنات من السلاح والذخائر وكميات من المال تحت ستار مساعدات إنسانية لمواجهة القحط الذي أصاب كردستان^(٧٧). والجدير باللحظة هنا، أن هذه «المساعدات» لم تشكل تعديلاً أو خروجاً على سياسة بريطانيا المعارضه لقيام دولة كردية مستقلة، إذ كانت تصب في مصلحتها: تسليح الأكراد واستخدامهم كحاجز أمني قادر على عرقلة أي تقدم روسي في وادي الفرات ومن ثم إلى الهند^(٧٨).

و قبل أن يعلن ثورته، حاول عبيد الله الوصول إلى صيغة للتعايش مع الباب العالي وتقضى بجعل كردستان مستقلة ذاتياً تحت الحكم العثماني، على أن يكون هو حاكمها مدى الحياة وبؤدي الجزية إلى الباب العالي وضرائب «ولاياته» المعتادة إلى الخرينة العثمانية^(٧٩).

وعلى عكس ما كان يشهيه، لم تكن الدولة العثمانية على استعداد لأن تغير موازين القوى في كردستان لغير مصلحتها، فرفضت المشروع^(٨٠). ومن جهة أخرى، أدركت الحكومة العثمانية نية الشيخ عبيد الله في إشعال الثورة. وحول إجراءاتها المضادة يحدثنا المؤرخ جليل، فيقول^(٨١): «اتخذت الحكومة العثمانية التي كانت على علم بالتحضير للثورة عدداً من الإجراءات لمنعها. فقد منحت في خريف عام ١٨٧٩ صلاحيات واسعة جداً لقائد جيش الأنضوص الرابع المشير سامح باشا. وقبل البدء بالعمليات العسكرية قام بحشد كتائب عسكرية من أرضروم، وأذربيجان، والموصل، وديار بكر، و آن وأماكن أخرى حول هكاري، كما سُدت الممرات التي تربط المناطق الكردية المجاورة مع هكاري، بحيث لا يمكن سكانها من الانضمام إلى الشيخ الثائر».

لم يستطع التسعمائة مقاتل كردي في حوزة الشيخ عبيد الله الصمود أمام زحف الجيش العثماني. فانهزموا عند أول مواجهة^(٨٢)، بعدما انفض عن الشيخ زعماء القبائل الكردية الأخرى^(٨٣). وفي ضوء هذه الكارثة وتحطم مشروعه، إضطر الشيخ إلى أن يجدد ولاءه للسلطان العثماني مؤكداً على ذلك من خلال ملحوظته القبائل الكردية التي استغلت المناسبة للقيام بأعمال السلب والنهب^(٨٤). ومن جهةه، عفا السلطان عن الشيخ عبيد الله، إذ رأى أن بقاءه على رأس الزعامة الكردية ضروري لمناهضة مساعي الأرمن لإنشاء كيان خاص بهم .

رابعاً : الشيخ عبيد الله : «الخطاب القومي - القبلي» في مشروع كردستان موحدة ومستقلة (انتفاضة الأكراد الكبرى عام ١٨٨٠)

بعد فشل انتفاضته الأولى، بدأ الشيخ عبيد الله يستعد لجولة جديدة على شكل ثورة كبرى تشمل كردستان العثمانية والفارسية، وأخذ يجمع المقاتلين حوله. وطبقاً لتقارير بريطانية، كان يصله في اليوم الواحد ما بين ٥٠٠ عنصر إلى ١٠٠٠^(٨٥). وقد ضمت قواته متصوفين وقبائل، أهمها قبيلة منغور الفارسية بزعامة حمزة آغا^(٨٦). وفي ١٥ شباط عام ١٨٨٠، بعث ضابط روسي كبير بتقرير إلى قيادة الأركان الروسية في القوقاز ذكر فيه: «إن الشيخ (عبيد الله) ينوي الانفصال عن تركيا والحصول على الاستقلال التام متّهزاً ضعف تركيا الحالي ومفترضاً بأنّها ماضية نحو التفكك التام...»^(٨٧).

وفي ثورة عام ١٨٨٠، نجد أن تعديلاً جذرياً قد طرأ على فكر الشيخ عبيد الله وخطبه. فقبل تلك الثورة، كان الأكراد يثoron لأجل السلب والنهب^(٨٨) أو للحصول على مزيد من الاستقلال الذاتي وتنمية أنفسهم في أرضهم وليس لإنشاء كيان مستقل يضم أكراد السلطنة وفارس معاً. ومع ثورة الشيخ عبيد الله الثانية عام ١٨٨٠ تغير الموقف^(٨٩). فللمرة الأولى في تاريخ الحركات الكردية في القرن التاسع عشر، يأتي زعيم كردي يطرح من داخل المجتمع القبلي - الإقطاعي الكردي، وإن منفرداً، المسألة الكردية من خلال خطاب «قومي» فريد بالدعوة إلى توحيد كل الأكراد في كيان مستقل مستخدماً مصطلحات «الأمة» و«الوطن» ومركزاً على الخصوصيات الثقافية والعرقية لشعبه.

عندما بدأ الشيخ عبيد الله في أيلول وتشرين الأول عام ١٨٨٠ ثورته، بعث برسالتين إلى كل من جوزيف كوشران (Joseph Cochran)، طبيب الإرسالية التبشيرية الأمريكية في كردستان، وإلى إقبال الدولة حاكم أورمية الفارسي^(٩٠). وجاء في الرسالة الأولى : «إن الأمة الكردية التي يزيد عددها على ٥٠٠ ألف عائلة هي شعب مستقل . إن دينها مختلف (عن أديان الآخرين)، وإن شرائعها وعاداتها خاصة بها... نحن أمة مستقلة. نتمنى أن تتولى مصالحنا بأنفسنا بحيث نتمتع... بالإمتيازات التي تتمتع بها الأمم الأخرى»^(٩١). وإلى حاكم أورمية، كتب يقول : «... إن الأكراد الفرس والأكراد العثمانيين قرروا أن يتوحدوا ويشكلوا أمة واحدة وأن يحافظوا على النظام فيما بينهم»^(٩٢).

كان الشيخ عبيد الله يدرك أن قيام دولة كردية تشمل كامل كردستان لا بدّ أن يواجه ردود فعل مضادة من المسيحيين في شرق الأناضول، خصوصاً وإن إرث الماضي الذي شاب العلاقات بين المسلمين (الأكراد) وال المسيحيين (الأرمن والنساطرة والكلدان والأشوريين) من الناحيتين الدينية والقومية، كان يمنع أي توافق بين الفريقين. ومع ذلك، حاول الشيخ عبيد الله أن يبعد شكوك بريطانيا وبالتالي مسيحيي الأناضول الشرقي تجاه كردستان إسلامية متحدة. فأجرى اتصالات مع أبوب (Abbot)، قنصل بريطانيا العام في الأناضول، وأعلمته بنيته في الثورة. وبرر الشيخ ذلك برغبته في إعادة الأمن والنظام إلى كردستان. وحول سياساته المقبلة تجاه المسيحيين في المنطقة، أبلغ عبيد الله القنصل أنه سيمنح المسيحيين حقوقاً متساوية لحقوق المسلمين وسوف يسمح لهم ببناء مدارسهم وكنائسهم. وفي ضوء هذا «البرنامج»، طلب الشيخ تأييد بريطانيا له للحصول على دعم الدول الكبرى لمشروعه^(٩٣).

وفي أواخر تموز عام ١٨٨٠، وبعد إرساله دعوات إلى الزعامات الكردية في كردستان، تمكن الشيخ عبيد الله من عقد مؤتمر كردي في شمدينان، هو الأكبر في تاريخ الحركة الاستقلالية الكردية حتى ذلك الحين. فقد ضم المؤتمر المذكور ٢٢٠ زعيماً قبلياً ورجل دين وإقطاعي وأعيان^(٩٤). وقد وصلت المؤتمرون وفود من السليمانية والعمامدية وهورامان وبوتان ومن جبال ساسون وسرت وموش ووآن، ومن كردستان الفارسية.

وقد حدد الشيخ عبيد الله خلال المؤتمر هدفه الرئيسي، وهو إقامة اتحاد بين العشائر الكردية والإعداد للثورة ضد الدولة العثمانية وفارس. كما تحدث عن ضرورة إنشاء كردستان مستقلة بالقول : «كفانا المعاناة والاحتلال والشتاء من ... المرتدin، علينا أن نتحرر... إن هاتين الحكومتين (الدولة العثمانية وفارس) تمثلان حجر عثرة يعرقل تطورنا»^(٩٥). وينقل أبو شوقي عن أحد أحفاد الشيخ عبيد الله أن خطاب جده أثناء انعقاد جلسات المؤتمر كان على الشكل التالي : «تأسست الإمبراطورية العثمانية قبل ٥٥٠ سنة. إن العثمانيين وصلوا إلى الحكم بطريق غير مشروعة. إن الحكومة العثمانية بعد أن حكمت ٤٠٠ - ٥٠٠ سنة، تخلت عن الدين الإسلامي وسلكت طريق الكفر وإنها منذ ذلك الوقت أخذت تضعف وتقترب من الانهيار والاضمحلال. لذلك فنا أبناءنا الأعزاء»، أضاف الشيخ عبيد الله، «بكمي حسب توصيات آبائنا وأجدادنا تحمل هذا الظلم والاستعباد المفروض علينا من قبل الأتراك الطغاة... يجب أن نتحرر، ليس نحن فقط الأكراد في تركيا العثمانية، بل وكذلك الأكراد في إيران، من هاتين

الحكومتين المعترضتين والمعوقتين لنهضتنا. لذلك أمرنا الأجداد بالتضحيه جمیعاً بدمائنا في سبيل الدين وحرية الوطن»^(٩٦).

يتضح من خطاب الشيخ عبید الله أن التخلص من الحكم العثماني كان في أولويات أهدافه كخطوة ضرورية لإنشاء كردستان مستقلة. ولذا، كان عليه أن يواجه أبناء المؤتمر الزعامات الكردية المؤيدة للدولة العثمانية، التي رفضت توجيهه «جامعة العشائر الكردية» التي انبثقت عن المؤتمر ضد السلطنة وفضلت توجيهها ضد الأرمن ومسيحيي الأناضول، وهو ما كان ينسجم مع سياسة الباب العالي. لكن الشيخ حذر من أن حرباً كردية - أرمنية سوف تتعكس سلباً على الأكراد أنفسهم وتجعل أوروبا تقف ضدهم. وأضاف يقول، إن قضاء الأكراد على الأرمن سوف يفقد الأولين حاجة الدولة العثمانية إليهم في المستقبل ويجعل تلك الدولة توجه اضطهادها ضدهم^(٩٧).

وعلى الرغم من موقف الشيخ عبید الله «المتسامح» تجاه المسيحيين في شرق الأناضول، إلا أن الأرمن ارتابوا من تحركاته. ففي ٢٠ حزيران ١٨٨٠ بعث بطريركهم إلى عoshن، سفير بريطانيا في الآستانة، يقول إن الحكومة العثمانية تقف وراء الأكراد بهدف إضعاف الأرمن. وجاء في رسالته ما يلي^(٩٨):

«إن عصبة كردية يجري تشكيلها بإيعاز من الحكومة المركزية (العثمانية)، التي ت يريد من خلالها إضعاف المسألة الأرمنية كي تقف بوجهها مسألة جديدة وهي المسألة الكردية. إن السياسة العثمانية هي الباعث على إنشاء هذه العصبة (الكردية). إن الشيخ عبید الله هو... زعيمها. وسوف تشير (هذه العصبة) الشعب... (لأن) هدفها هو إنشاء دولة في تركيا. وهي (العصبة) تمارس أكثر الشاطئ الوحشية لأجل طرد الأرمن من منطقة... (هاكاري)».

وفي ١٥ أيلول، أي قبل أسبوعين على بدء ثورته، بعث الشيخ عبید الله برسالة إلى حاكم أورمية الفارسي يبرر فيها قراره بإعلان الثورة، وهو عدم اهتمام سلطات فارس والدولة العثمانية بالأكراد ومعاملتهم القاسية لقبائل شكار (فارس) وهاكاري (الدولة العثمانية)، وأن أكراد فارس والسلطنة «قرروا تشكيل دولة واحدة»^(٩٩).

إذاء المعارضة الشديدة لثورة كردية ضد الباب العالي من قبل زعامات كردية، إضطر الشيخ مكرهاً إلى إجراء تعديل في خطته. فقرر أن يهاجم فارس أولاًً معتمدأ على نفوذه الكبير بين أكرادها وقواسم السنة التي تجمعه معهم ونقمته هؤلاء على حكومتهم الفارسية، على أن ينقلب بعد ذلك ضد الدولة العثمانية. واعتقد الشيخ أن تحقيق الأكراد انتصارات في فارس سوف يحفز المعارضين لانتفاضة في كردستان العثمانية على توجيه

سلاحهم ضد السلطنة. وقد برر الشيخ تعديل خطته بالقول^(١٠٠): «بما أن جزءاً من كردستان يخضع لإيران، فإن حربنا ضد أضعف بلد يؤدي إلى تحرير أشقائنا، وعندما نصبح أسياد بلاد غنية وخصبة مثل أذربيجان، سوف نملك مصدراً لا ينضب معه لأجل خوض الحرب ضد عدونا الآخر، ضد العثمانيين».

ولكي يخفى نواياه المبيتة تجاه الدولة العثمانية، أكد الشيخ عبيد الله للباب العالي أنه سوف يعترف بسيادة السلطان على المناطق التي سيفتحها في فارس^(١٠١). وقد وجد الباب العالي في توجيهه «الخطر الكردي» نحو فارس وسيلة لدرءه عنه^(١٠٢). ويدرك أبو شوقي أن الحكومة العثمانية شجعت في البداية الشيخ عبيد الله وأنصاره ووجهت اندفاعهم نحو فارس وأن أحد مرافقي السلطان العثماني ويدعى العقيد بحري بك زاد الشيخ في مقره بهاكاري ونجح مع الشيخ في توحيد القبائل الكردية المتنافسة كمامش ومنغور وغيرها وتوجيهها ضد فارس، وأنهما جنداً من صفوفها قوات كبيرة رُوّدت بأسلحة بريطانية^(١٠٣).

وفي تشرين الأول عام ١٨٨٠، إنتشرت الثورة الكردية في كل أنحاء كردستان الفارسية. وتبعاً للخططة الموضوعة، كان على القوات الكردية أن تتحرك على الشكل التالي: تسيطر الوحدة الأولى من الشوار على صاووجلاق (مهاباد) أولاً ومن ثم على تبريز. وكان على الوحدة الثانية، التي تشكلت على الأراضي الفارسية في مركور، تأمين حماية الوحدة الأولى والسيطرة على مدينة أورمية الاستراتيجية. أما الوحدة الثالثة، فكان عليها أن تتجمع في برادوست وتسيطر على كل المنطقة غربي أورمية وعلى سلماس وخوي. وقد أشرف الشيخ عبيد الله على الوحدتين الأخيرتين^(١٠٤).

تمكن الأكراد بادئ الأمر، وعددهم نحو عشرين ألفاً، وفي بعض المصادر الأخرى ما بين سبعين ألفاً إلى ثمانين ألفاً^(١٠٥)، من تحقيق نجاحات سريعة. فوصلت بعض وحداتهم حتى أورمية، التي استعصت عليهم، فيما سيطرت قوات أخرى لهم على صاووجلاق دون مقاومة بعد أن غادرها حاكمها الفارس. وقد أعلن الأكراد حكومة مؤقتة في هذه المدينة^(١٠٦). وبعد سقوط مدن مياندواو وميليكان ومراغة بأيديهم، زحف الأكراد نحو تبريز عاصمة أذربيجان. وقد استقبلت المدن الكردية المفتوحة عبيد الله كـ«محرر»^(١٠٧).

وعلى الرغم من هذا الاختراق العسكري، فقد تمكنت فارس من استيعابه، ثم شتت هجمات مضادة ألحقت بالأكراد هزيمتين عند أورمية وتبريز وشتّتهم وجعلتهم يفرون من ساحات القتال ناهبين المدن أثناء انسحابهم^(١٠٨). وفي ٢٠ تشرين الثاني،

أرسل السلطان العثماني رسالة إلى عبيد الله طالبه فيها بإسم الدين إلقاء سلاحه^(١٠٩). ولكن هذه المناشدة جاءت متأخرة، إذ كان الجيش الفارسي قد تمكن في منتصف الشهر المذكور من حسم المعارك لمصلحته ولاحق فلول الأكراد المنسحبين باتجاه كردستان العثمانية مدمرةً القرى الكردية أثناء عملياته. وفي الأيام الأولى من كانون الأول، وصل عبيد الله وبعض فلوله إلى النهري^(١١٠). وقد عزا سفير فارس في الآستانة إلقاء عبيد الله سلاحه ليس إلى مناشدة السلطان العثماني، بل إلى انتصارات جيوش بلاده^(١١١).

وفيما يؤكد العديد من المصادر أن روسيا مارست ضغطاً على الباب العالي لوقف الثورة الكردية وأن بريطانيا رعت بدورها وفاقاً عثمانياً - فارسياً نتج عن محاصرة القوات العثمانية للأكراد المتراغعين إلى داخل كردستان العثمانية^(١١٢) واعتقال الشيخ عبيد الله بعد ذهابه إلى الآستانة للتفاوض مع السلطان العثماني، ينفي «بهرندت» تلك الرواية بشدة ويؤكد أن الباب العالي دافع بقوة عن الشيخ عبيد الله أمام الدبلوماسيين البريطانيين والفارسية نافياً تورط الشيخ في ثورة أكراد فارس^(١١٣) وناسبًا المسألة كلها إلى أحد أبناء الشيخ وإلى قيادات كردية أخرى وخصوصاً حمزة آغا، زعيم عشيرة منغور الكردية الفارسية^(١١٤). ويدرك أولئك أن الباب العالي انقلب ضد الشيخ عبيد الله بعد عبوره من فارس إلى الأراضي العثمانية، لأنه خشي من أن يؤدي دعمه الاتجاهات «القومية» الكردية إلى جعل الأكراد خارج سيطرته^(١١٥). وفي حين يرى جليل أن الباب العالي وجه الثورة الكردية في اتجاه فارس وراقبها بحذر^(١١٦)، يعتقد المؤلفان شابري أن هدف عبيد الله كان إنشاء «دولة قومية كردية» في الأراضي الفارسية تكون تحت حماية الباب العالي^(١١٧).

وعلى الرغم من وصول الثورة الكردية إلى نهايتها هذه وعدم تحقيقها أي مكسب «قومي» على حساب فارس أو الدولة العثمانية، إلا أن السلطان العثماني فضل استخدام الدبلوماسية واللين مع الزعيم الكردي بهدف الاستفادة منه في إنشاء «جامعة كردية»^(١١٨) تكون عامل انشقاق بين الأكراد والأرمن في شرق الأناضول، وفي الوقت نفسه نبدأ للأرمن ومشاريعهم الانفصالية^(١١٩). فاستدعي الشيخ عبيد الله إلى الآستانة وأكرمه ومنحه الهدايا وأنزله في منزل قريب من قصره، ثم تفاوض معه في سبيل هجرة أكراد فارس إلى شرق الأناضول تحقيقاً لمشروعه ضد الأرمن^(١٢٠). وفي الوقت نفسه، أرسل السلطان بعثة إلى كردستان العثمانية لدراسة أحوال أكرادها بناءً على طلب من عبيد الله^(١٢١). لكن الشيخ ما لبث أن فرَّ من «منفاه» في الآستانة ووصل هاكارى، حيث تحصن في قلعة أورما. ومن هناك، حاول دون جدوى الحصول على دعم روسيا له

ضد السلطنة^(١٢٢). إلا أن القوات العثمانية ألقت القبض عليه ونفته إلى مكة في تشرين الثاني عام ١٨٨٢ حيث توفي في العام التالي^(١٢٣).

وبانتهاء حركة الشيخ عبيد الله واستقطاب السلطان عبد الحميد الثاني الأكراد في مشروع «الأفواج الحميدية» عام ١٨٩٠^(١٢٤)، غابت عن ساحة كردستان العثمانية أية ثورة كردية ذات أثر. لقد تمكّن السلطان من خلال «الأفواج الحميدية» من دمج الأكراد في النظام العثماني وإيديولوجية «الجامعة الإسلامية»، التي جعلت منهم «سدأً إسلامياً» في وجه التطلعات القومية للمسيحيين الأرمن. كما كان للجامعة الإسلامية دور كبير في بقاء الأكراد شعراً لا دولة له^(١٢٥).

حواشی الفصل الرابع

- (١) يقصد بكردستان تلك المنطقة التي ضمت أكبر تجمع للسكان الأكراد، وهي أجزاء من ولايات وآن وديار بكر والموصل. إضافة إلى ذلك، وُجد الأكراد على طول سلسلة جبال طوروس من أضنة حتى الحدود العثمانية - الفارسية غربي بحيرة أورمية، انظر: Armenia and Kurdistan, London 1920, p 1.
- وقارن بملحقي رقم (١٦) و(١٧).
- (٢) Th. Bois, Kurds, Kurdistan, in: *EI* 2, vol. V, Leiden 1982, p 475.
- (٣) Bletch Chirguh, La question Kurde, ses origines et ses causes, la Caire 1930, p 10.
- (٤) Armenia and Kurdistan, op. cit. , pp 24-25.
- (٥) Laurent Chabry/ Annie Chabry, Politique et minorités au Proche-Orient, Paris 1984, p 254.
- وحوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، مرجع سابق ص ٤٩-٥٠ .
- (٦) عبد العزيز نوار، تاريخ العراق الحديث، القاهرة ١٩٦٨ ص ٩٩-١٠٠ .
- (٧) Jemal Nebez, Kurdistan und seine Revolution, Nuske 1972 , pp 62-63.
- (٨) Chabry, Politique et minorités, op. cit., p 254.
- (٩) في حدود عام ١٩٠٨ وُجد نحو ٣٠٥ قبائل كردية في السلطنة العثمانية، pp 471-472 . وحامد محمود عيسى، المشكلة الكردية في الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٩٢ ص ١٣ .
- (١٠) David McDowall, The Kurds, London 1992, pp 19-20.
- (١١) جليلي جليل وآخرون، الحركة الكردية في العصر الحديث، ترجمة عبدي حاجي، بيروت ١٩٩٢ ص ١١ .
- (١٢) C.J. Edmonds, Kurds, Turks and Arabs, London 1957, pp 13-14.
- (١٣) McDowall, op. cit., p 20.
- (١٤) Gerard Chaliand, Introduction, in: Gerard Chaliand ed. *People Without a Country*, transl. by Michael Pallis, London 1980, p 12.
- (١٥) المرجع السابق ص ١٢ .
- (١٦) Kendal, The Kurds under the Ottoman Empire, in: Gerard Chaliand ed., op.cit., p 26.
- (١٧) حول إشكالية القضاء على الإنكشارية عام ١٨٢٦ من قبل السلطان العثماني محمود الثاني، انظر رسالة диплома Хачатуриan «أثر الغرب الأوروبي في حركة الإصلاحات في الدولة العثمانية»

- (١٧٨٩) - (١٨٣٩)، جامعة بيروت العربية ١٩٧٥، ص ٩٩-٨٥، ١٢٤-١١٦، ١٢٧-١٣٨.
- (١٨) عيسى، مرجع سابق ص ١٤-١٥.
- (١٩) جليل وأخرون، الحركة الكردية ص ١٥-١٦.
- (٢٠) أبو شوقي، لمحات من تاريخ الانتفاضات والثورات الكردية، بيروت ١٩٧٨، ص ١٨-١٩، وفليبي فارج / يوسف كرباج، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، ترجمة بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٤ ص ١٤٦.
- (٢١) جليل وأخرون، الحركة الكردية ص ١٩.
- (٢٢) المرجع السابق ص ١٩.
- (٢٣) نوار، تاريخ العراق ص ١٣٤-١٣٥.
- (٢٤) Chabry, p 254; Edmonds, p 8.
- (٢٥) جليل وأخرون ص ٢٤-٢٥.
- (٢٦) غسان سلامة، المجتمع والدولة في المشرق العربي، بيروت ١٩٨٧، ص ٧٦-٧٧، وعيسى ص ٣-٥.
- (٢٧) عيسى، مرجع سابق ص ١٧ - ١٩.
- (٢٨) جليل وأخرون، مرجع سابق ص ٣١.
- (٢٩) فيما كان الهدف من «قانون الأراضي» تأكيد حق الدولة في الأرض في وجه القوى المحلية وبقائها الإقطاع، انتهى هذا القانون إلى توسيع الملكية الفردية. ولما كانت الدولة تريد توطين القبائل وإخضاعها، عمدت إلى إلغاء الملكيات المشتركة للأراضي القبلية وأنشأت ملكيات صغيرة في وجه شيخوخ القبائل، وهو ما أدى إلى مركزة سلطتها. لكن خوف الفلاحين من الضرائب والخدمة العسكرية، أدى إلى تسجيل أراضيهم بأسماء رؤسائهم أو بأسماء الأعيان، مما جعل هؤلاء يملكون الأرض وأن يتتحول الفلاحون وصغار المالكين إلى أجراء. وكان لهذا القانون أثر كبير في التحولات الاجتماعية - الاقتصادية، أنظر: عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية/ مرجع سابق ص ١٢٨؛ وقارن نص القانون به يوسف قزما خوري، محضارات من القوانين العثمانية، بيروت ١٩٩٠، ص ٧-٢٩. وحول تأثير هذا القانون على الأوضاع في كردستان، Shaw II, pp 114-115.
- راجع:
- (٣٠) جليل وأخرون ص ٣٢.
- (٣١) Behrendt, Nationalismus in Kurdistan, op. cit., p 213.
- (٣٢) جليلي جليل، انتفاضة الأكراد عام ١٨٨٠، بيروت ١٩٧٩ ص ٤٣-٤٤.
- (٣٣) جليل وأخرون ص ٣٢؛ وجليل، انتفاضة الأكراد ص ٤٤.
- (٣٤) Behrendt, pp 197-198.
- (٣٥) Arshak Safrastian, Kurds and Kurdistan, London 1948, pp 56-57.
- (٣٦) جليل وأخرون ص ٣٠.

(٣٧) المرجع السابق ص ٣١؛ جليل، اتفاقية الأكراد ص ٥١.

(٣٨) نخلاً عن: أبو شوقي، مرجع سابق ص ٤٤.

(٣٩) بله ج شيركوه، القضية الكردية، مصر ١٩٣٠، ص ٤٧-٤٨.

(٤٠) Behrendt, op. cit., p 199f.

(٤١) المرجع السابق ص ٢٠٢-٢٠٤، وحاشية ٣٤ ص ٢٠٤.

Jwaideh, The Kurdish Nationalist Movement,, op. cit., pp 212-214; (٤٢)

دخلت الطريقة القادرية إلى كردستان في القرن الثاني عشر الميلادي، والنقشبندية في القرن الرابع عشر ٤٧٥ Bois, op. cit., p 475؛ وقد شجع العثمانيون بداية الطريقة النقشبندية لكي تقف نداً للإماراة البابانية في السليمانية ذات الميول الفارسية. فنمط هذه الطريقة خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر، لكن العثمانيين عادوا وسحبوا دعمهم لها، عندما اعتبروا أن طقوسها خطراً على المجتمع، راجع: ١٥ McDowall, p 29, p 135 no. 15 وقارن نوار، مرجع سابق ص ١١٣.

McDowall, p 29. (٤٣)

Robert Olson, The Emergence of Kurdish Nationalism and the Sheikh Said Rebellion 1880-1925, Austin 1989, pp 1-5.

ويخصص بهرندت صفحات عدة للمحدث عن صعود رجال الدين والصوفيين إلى السلطة، فيرى أن هؤلاء كانوا يقفون على مسافة من التنظيم القبلي الكردي وبالتالي على العياد من الصراعات على السلطة في كردستان. وبانهيار الإمارات الكردية، حافظ هؤلاء على مواقعهم داخل النظام المضطرب للإدارة العثمانية في كردستان. ومن خلال التحالفات السياسية والزيجات، استطاعوا ربط القبائل بهم والعمل تدريجياً على استقرار المجتمع الكردي خلف زعامتهم. ومن أشهر أسر رجال الدين، شمدينان وبارزان من النقشبندية وبرزنجي من القادرية، أنظر بهرندت ص ١٧٧-١٨٨.

Quoted from Jwaideh, pp 218-219. (٤٥)

Kendal, p 31. (٤٦)

(٤٧) المرجع السابق ص ٣١.

(٤٨) المرجع السابق ص ٣١.

Olson, pp 5-6; Jwaideh, pp 216-232. (٤٩)

(٥٠) جاء في هذه المادة ما يلي :

«*The Sublime Porte undertakes to carry out, without further delay, the improvements and reforms demanded by local requirements in the provinces inhabited by the Armenians, and to guarantee their security against the Circassians and Kurds. It will periodically make known the steps taken to this effect to the Powers, who will superintended their application*». Hurewitz I, p 414. نخلاً عن:

«.... to watch more closely the activities of Turkish Pashas and Kurdish Chiefs, to (٥١) redress as far as possible the injustices which were brought to their attention and to report to the British Ambassador...» «They travelled throughout the region of Anatolia and Armenia, listened to petitions... and reported faithfully the misdeeds of Pashas and the misery of the people»

نقلً عن : Behrendt, p 207, no. 12

Behrendt, pp 207, 219-220, no. 23. (٥٢)

Olson, pp 5-6; Jwaideh, pp 231-233. (٥٣)

. Olson, p 5 (٥٤) نقلً عن :

نوار، تاريخ العراق ص ١١٢ . (٥٥)

Jwaideh, pp 240-247; Behrendt, p 225, no. 16; Armenia and Kurdistan, p 25. (٥٦)

. جليل، اتفاضة الأكراد ص ٥١ (٥٧)

. المرجع السابق ص ٥٢ و ٥٥ (٥٨)

Kendal, p 31. (٥٩)

. أنظر فوق ص ٧٢ - ٧٩ و ٩٦ - ٩٧ . (٦٠)

Ismail, Documents T 14, Delaporte à Waddington, no. 22, Beyrouth 9.10.1879, p 114. (٦١)

. جليل، اتفاضة الأكراد ص ٥٢ (٦٢)

. أنظر فوق ص ٩٦ - ٩٧ . (٦٣)

. جليل، اتفاضة الأكراد ص ٥١-٥٢ (٦٤)

. أبو شوقي، مرجع سابق ص ٦١-٦٢ . (٦٥)

. المرجع السابق ص ٦١ ، و جليل، اتفاضة الأكراد ص ٥٢ . (٦٦)

. جليل وآخرون، الحركة الكردية ص ٣٠ . (٦٧)

Kendal, p 31; Richard A. Pierce, Russian Central Asia 1867-1917, Berkeley, 1960, pp 38-42. (٦٨)

Olson, pp 6-7. (٦٩)

. المرجع السابق ص ٧ . (٧٠)

Vincent Monteil, Les Musulmans soviétiques, Paris 1982, p 21. (٧١)

وشانتال لومرسيه كيلويجي، الطرق الصوفية في شمال القوقاز، في : «الإجتهداد»، ٦ (١٩٩٠)، ص ٢٦٣ .

Olson, p 7. (٧٢)

(٧٣) أبو شوقي ص ٦٢-٦١.

(٧٤) جليل، انتفاضة الأكراد ص ٥٧-٥٦، وجليل وآخرون، الحركة الكردية ص ٣٣.

(٧٥) جليل، انتفاضة الأكراد ص ٦٢-٦٣.

(٧٦) أبو شوقي ص ٦٣-٦٢.

Kendal, p 31

(٧٧) المرجع السابق ص ٦٢ و:

Erhard Franz, Kurden und Kurdistan, Hamburg 1986, p 134.

وراجع أيضاً:

(٧٨) جليل، الحركة الكردية ص ٣٠.

(٧٩) عرض الشيخ عبيد الله على الباب العالي ما يلي :

«... that he should be recognized as a semi-independent prince. A condition of laying down his arms, he proposed that the country should be formed into an autonomous tributary province, of which he should be named governor-general for life», The Times, 28.10.1879.

Behrendt, p 221. (٨٠)

(٨١) جليل وآخرون، مرجع سابق ص ٣١.

(٨٢) لا تعالج المصادر انتفاضة الشيخ في خريف عام ١٨٧٩ على انفراد وتعتبرها مقدمة لانتفاضة عام ١٨٨٠. والاستثناء الوحيد تبعاً للمادة المستخدمة هو بهرندت.

Behrendt, p 215. (٨٣)

(٨٤) المرجع السابق ص ٢١٥.

(٨٥) جليل وآخرون، الحركة الكردية ص ٣٣.

Franz, Kurden und Kurdistan, op.cit.,p 134. (٨٦)

(٨٧) نقلأً عن: جليل، الانتفاضة الكردية ص ٥١.

(٨٨) المرجع السابق ص ٥١، و «ثمرات الفنون» عدد ١٩١ تاريخ ١٨٧٨ / ١٧ / ١٠.

Hassan Arfa, The Kurds, London ect. 1966, pp 23-24. (٨٩)

(٩٠) تتناقض المصادر فيما بينها عما إذا كان الشيخ عبيد الله قد وجه الرسالة الأولى إلى الطبيب الأميركي كوشران أو إلى كلابيتون، نائب قنصل بريطانيا. ويرى Behrendt ص ٦٣-٦٢، أن أول من نشر مضمون هذه الرسالة هو Safrastian, Kurds and Kurdistan, op. cit

«The Kurdish nation, consisting of more than 500.000 Families, is a people apart. Their religion is different (to that of others), and their laws and customs are distinct».... (٩١)

«Auch wir sind eine selbständige Nation ... so dass ... wir... Vorrechte geniessen, wie die anderen Nationen», Olson, p 2.

نقلأً عن: Behrendt, pp 217-218 و

وقد جرى استخدام مصطلح «وطن» من قبل عبيد الله أثناء مؤتمر الأكراد في شمدينان في تموز

١٨٨٠، أبو شوقي ص ٥٢.

- 
 Behrendt (٩٢) نقلأً عن حاشية رقم ١٦ صفحة ٢١٧ من كتاب
 جليل، انتفاضة الأكراد ص ٧٢.
 (٩٣) أبو شوقي ص ٦٥.
 (٩٤) نقلأً عن: جليل وآخرون، الحركة الكردية ص ٣٤.
 (٩٥) نقلأً عن: جليل وآخرون، الحركة الكردية ص ٣٤.
 (٩٦) نقلأً عن: أبو شوقي ص ٥٢.
 (٩٧) جليل وآخرون ص ٣٤ و أبو شوقي ص ٥٧.
 (٩٨) نقلأً عن:
 Behrendt, pp 218-219.
 (٩٩) جليل، انتفاضة الأكراد ص ٦٩.
 (١٠٠) جليل وآخرون، الحركة الكردية ص ٣٥.
 Chabry, Politique et minorités , p 255; Franz, p 134. (١٠١)
 Kendal, p 32. (١٠٢)
 (١٠٣) أبو شوقي ص ٦٣-٦٤.
 (١٠٤) جليل وآخرون، الحركة الكردية ص ٣٥.
 (١٠٥) أنظر أبو شوقي ص ٦٧؛ و:
 (١٠٦) جليل وآخرون ص ٣٦.
 (١٠٧) المرجع السابق ص ٣٥.
 Arfa, The Kurds, op. cit., p 24. (١٠٨)
 PAAA, Asien G, Nr. 1, Bd. 1, Hatzfeldt an Bismarck, Nr. 374, A 7387, Pera (١٠٩)
 20.11.1880.
 Behrendt, p 224. (١١٠)
 PAAA, Asien G, Nr. 1, Bd. , Hatzfeldt an Bismarck, Nr. 374, A 7387, Pera (١١١)
 20.11.1880.
 Safraastian, p 63; Jwaideh, p 265; Kendal, p 32 (١١٢) من هذه المؤلفات:
 (١١٣) Behrendt, p 224 وحاشية رقم ١٥ ص ٢٢٤-٢٢٥.
 (١١٤) جاء في رسالة للباب العالي إلى السفارة الفارسية في الأستانة بتاريخ ٢٥ تشرين الأول عام ١٨٨٠ ما يلي:

«... the Ottoman Kurds have taken no part in this rebellion...Obeidullah cannot be held responsible for the revolution stirred up by his son in Persia».

وفي ٢٨ من الشهر التالي عاد الباب العالي وأبلغ السفارة المذكورة أن:

«Sheikh Obeidullah cannot be held responsible for the insurrection, for if the matter be

impartially examined, it will be evident that the primary causes are the severity shown to Hamza Agha and the oppression of certain populations by the authorities auf (sic)
Behrendt, p 224, no. 15. ، نقلً عن : *Azerbijan ..*

Olson, pp 6-7. (١١٥)

Chabry, politique et minorités , op. cit.,p 255 (١١٦) جليل، اتفاخصة الأكراد ص ٧٤ و :

Chabry, op. cit., p 255. (١١٧)

PAAA , OG 9, 1, Bd. 4, *Oppenheim an Hohenlohe-Schillingsfürst , Nr. 104, A10352, (١١٨)*
Oberkassel (Siegkreis), 28.7.1900: Die Hamidiye-Regimenten in oberen Mesopotamien
und an Abhänge der kurdischen Berge und ihre Bedeutung für die Bagdadbahn.

والجدير بالذكر أن مشروعًا عثمانيًّا لإنشاء «جامعة كردية» لم ينجح قبل إنشاء «الأفواج الحميدية» عام ١٨٩٠ . وقد شكك السفير الألماني في الآستانة بصحة المعلومات حول «جامعة كردية»، خصوصًا بعد تجربة «العصبة الألمانية»(سيأتي ذكرها في الفصل الخامس من الكتاب). وقد حذر السفير المذكور من أن «جامعة كردية» سوف تقوى من طموحات الأكراد نحو «القومية» .

PAAA, Asien G, 1, Bd. 1, *Hatzfeldt an Bismarck*, Nr. 374, Pera 20.11.1880.

Safrastian, pp 63-66. (١١٩) المرجع السابق، الوثيقة نفسها، و :

PAAA, Asien G, 1, Bd. 1, *Hatzfeldt an Bismarck*, Nr. 168, 14818, *Büyükdere (١٢٠)*
5.8.1881.

PAAA, Asien G, 1, Bd. 1, *Hatzfeldt an Bismarck*, Nr. 393, A 7705, Pera 7.12.1880. (١٢١)

(١٢٢) أبو شوري، ص ٧١ .

Kendal, p 32. (١٢٣)

(١٢٤) حول هذا الموضوع، انظر ملف المستشرق أوبينهايم في الأرشيف الألماني، مرجع سبق ذكره . Olson, pp 7-15

(١٢٥) يقول المؤلفان شابري في كتابهما :

Politique et minorités au Proche-Orient, pp 254-255 «... La discorde, la dispersion et les antagonismes tribaux, l'action dénationalisante d'un Islam ... en revanche, Turcs et Arabes, surent beaucoup mieux utiliser à leurs fins nationales, autant de facteurs qui contribuèrent à faire des Kurdes une nation sans Etat».



الفصل الخامس

الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٨-١٨٧٧) وأثرها في انبعاث القومية الألبانية

أولاً: ألبانيا تحت السيطرة العثمانية

حتى عام ١٩١٢، تاريخ حصولها على استقلالها^(١)، لا يمكن الحديث عن ألبانيا ككيان سياسي أو وحدة سياسية مستقلة. فألبانيا، جغرافياً وعرقياً، هي تلك المنطقة الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي بدءاً من الجبل الأسود جنوباً حتى خليج أرتا (Arta)، والتي سكنها شعب انحدر من الشعب الأليري القديم، وهو «الغيفنة» (Ghegs) في الشمال، و«التوسك» (Tosks) في الجنوب وفصل بينهما نهر إيشقومي (Ishkumbi). وقد تعاقب كل من الأمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية على حكم ألبانيا. ومنذ القرن السادس الميلادي، تعرضت ألبانيا إلى غزوات الشعوب السلافية المجاورة، تلتها ضغوطات يونانية وإيطالية ما بين القرنين العاشر والخامس عشر. ونتيجة للتمازج البشري والديني والمذهبي في تلك البقعة الجغرافية، إنقسم الشعب الألاني إلى فريقين متناحرین، وهما الكاثوليك، الذين تبعوا كنيسة روما، والأرثوذكس أتباع الكنيسة اليونانية في القسطنطينية^(٢).

ومنذ عام ١٣٨٥، بدأ العثمانيون يفتحون ألبانيا من الجنوب والوسط ودخلوا لأجل ذلك في صراعات حادة مع القرى المحلية، ومع البندقية التي كانت مصالحها التجارية ستتعرض للضرر فيما لو سيطر العثمانيون على ساحل ألبانيا وموانئها^(٣). وقد واجه العثمانيون طوال القرن الخامس عشر صعوبات جمة في التقدم شمالاً في المناطق الجبلية نظراً للثورات التي اندلعت ضدهم، ومن أشهرها ثورة إسكندر بك بين عامي ١٤٤٣ و١٤٦٨. وقد استغل إسكندر بك اشغال العثمانيين في هروبه بمنشاريا، فانقلب عليهم مدعوماً من البابوية وهنغاريا والبندقية ومملكة نابولي وواجه التمدد العثماني لفترة ربع

قرن. وبين عامي ١٤٤٩ و ١٨٦٣، شئَ العثمانيون حملات عدّة لاحتضاعه. وبعد وفاته، حققوا انتصارات حاسمة على البندقية (١٤٦٣ - ١٤٧٩) واستكملوا احتلال ألبانيا^(٤). ومنذ مطلع القرن السادس عشر، أصبحت ألبانيا كلها عثمانية.

وقد سعى السلاطين العثمانيون بداية إلى استمالة الألبانيين. فمنحوهم الإقطاعيات وأغفوهُم من بعض الضرائب والأموال الأميرية وأدخلوهم في الطبقة الحاكمة بأعداد كبيرة وعينوا من بينهم صدوراً عظاماً^(٥). كما تطوعَ الألبانيون في الجيش العثماني وحصلوا على تيمارات لقاء خدماتهم العسكرية وزُجِّدت كثرة منهم في القابي قول (عييد السلطان) نظراً لنظام الدفسرمة^(٦). وقد أثمرت هذه السياسة في اعتناق الكثير من الألبانيين الإسلام، وهو أمر إنسجم مع سياسة الدولة العثمانية للتوسيع في أوروبا^(٧). فكيف تحولت ألبانيا إلى منطقة ذات أكثرية إسلامية؟

خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، سارت السلطنة بانتظام في عملية أسلمة الألبانيين^(٨)، الذين تجاوبوا مع هذه السياسة في سبيل التخلص من الجزية وضربية الغلمان (الدفسرمة)^(٩) والاحتفاظ بأراضيهم، أو الحصول على التيمار^(١٠). وقد ساهم تضعضع الأوضاع داخل الكنيسة الكاثوليكية الألبانية ومخاوف العثمانيين من اتصالات الكاثوليك الألبان في شمال البلاد بالبابوية والدول الكاثوليكية وخصوصاً النمسا، في تسريع أسلمة أتباع هذه الكنيسة. فشهد القرن السابع عشر تراجعاً حاداً في أعداد الكاثوليك^(١١).

أما بشأن الألبانيين أتباع الكنيسة اليونانية المنشرين في جنوب البلاد، فلم تمارس تجاههم سياسة أسلمة، وذلك لأنهم لم يكونوا حتى ذلك الحين أداة لدولة خارجية (روسيا). لكن الوضع تغير منذ مطلع القرن الثامن عشر وتحديداً منذ الحرب الروسية - العثمانية (١٧٦٨ - ١٧٧٤)، عندما أخذت روسيا تدعى حماية الأرثوذكس في السلطنة وتحاول استغلال روابطها الدينية بهم لإثارتهم ضد الباب العالي. وخلال سيطرة علي باشا (تابلن) في يانينا (١٧٤٤ - ١٨٢٢) بجنوب البلاد، حدثت، وبإيعاز من الباب العالي، أسلمة واسعة بالقوة^(١٢).

وبفضل الهجرات المسيحية الراهفة للأسلامة من ألبانيا إلى إيطاليا وصقلية ومملكة سردينيا واليونان وبال مقابل، عمليات التوطين لبعض الأتراء من الأناضول^(١٣) وانتشار الطريقة البدكتاشية في ألبانيا، ازداد عدد المسلمين في البلاد^(١٤). فتحولت ألبانيا إلى منطقة ذات أكثرية إسلامية. وينقل شميدت - نيكه عن أحد الباحثين الأتراء قوله، إن

الوجود العثماني في ألبانيا وأسلمة الألبانين ساعدا شعب تلك البلاد على المحافظة على وجوده العرقي والقومي في وجه تيار السلافية المجاورة^(١٥).

وقد شكل المسلمون خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر نسبة ٧٠٪ من مجمل سكان ألبانيا وسادوا في الجنوب والوسط، فيما بلغت نسبة الأرثوذكس ٢٠٪ وتمركزوا في المناطق الجنوبيّة المتاخمة لليونان. وفي شمال البلاد، إستقر الكاثوليك في المناطق الجبلية إلى جانب بعض المسلمين الجبلين ولم تتجاوز نسبتهم الـ ١٠٪ من مجموع السكان العام. وفي عام ١٨٧٥ بلغ عدد الألبانين نحو ١,٤ مليون نسمة: ٦٠٠ ألف من الغيغة شمالى نهر إيشقوبى، ثلثاهم من المسلمين والثلث الباقى من الكاثوليك. وفي بلاد التوسك في الجنوب، شكل المسلمون ثلاثة أرباع الـ ٨٠٠ ألف نسمة، فيما كان الباقي أرثوذكس من أتباع الكنيسة اليونانية^(١٦).

وفي الوقت الذي مارس فيه العثمانيون في الجنوب سلطة مباشرة على الألبانين، حافظت العشائر الكاثوليكية التسع عشرة شمالي نهر درين (Drin) وأشهرها قبيلة خوتى (Hotti) والعشائر الكاثوليكية الخمس جنوبى النهر المذكور وأشهرها قبيلة ميرديت (Mirdite) على استقلالها الداخلى. وقد جعل العثمانيون قبيلة خوتى في مقدمة القبائل الكاثوليكية شمالي نهر درين، وذلك بسبب تقديمها الدعم لهم ضد البندقية. أما قبيلة ميرديت، فكانت تقدم الجنود الأقوية للروملي. وفي عام ١٨٨١ بلغ عدد أفراد القبائل الكاثوليكية في شمال ألبانيا ٦٧ ألف نسمة^(١٧). ومقابل تقديمها خدمات عسكرية للسلطنة في حروبها (رجل عن كل بيت)^(١٨) وحماية الممرات الجبلية بين ألبانيا والروملي، أعفى العثمانيون تلك القبائل من الجزية^(١٩). وقد انخرطت هذه القبائل في نظام عسكري تحت قيادة زعيم يلقب بـ «البيرقدار» أو «السنجدق». وعندما حاولت السلطنة خلال عصر «التنظيمات» تجريدتها من أسلحتها وإلهاقها بجيوشها، ثارت هذه ضدتها^(٢٠).

وقد اعتبر العثمانيون كل الأراضي الألبانية ملكاً للدولة (أراضي ميري)، وذلك لتطبيق نظام التيمار الذي أدى إلى ظهور إقطاعية عسكرية (السباهية). وخلال القرن الخامس عشر كان بإمكان المسيحيين، الحصول على التيمار، شرط ولائهم للدولة، حيث لم يكن اعتناق الإسلام شرطاً لذلك. ويدرك أحد سجلات التيمار لعام ١٤٣١/١٤٣٢ أن ١٦٪ من أصحاب التيمار في سنجدق «الأناود» (ألبانيا) كانوا من المسيحيين^(٢١). وبعد ذلك التاريخ، عندما اقتربت الاستفادة من نظام التيمار باعتناق الإسلام، تراجع عدد المسيحيين أصحاب التيمارات بشكل حاد^(٢٢). وقد تأقلم معظم

العائلات الإقطاعية القديمة (المسيحية أساساً) مع نظام التيمار العثماني، فوجدت إقطاعيات واسعة خلال القرن الثامن عشر ومطلع القرن التالي، حيث ظهرت طبقة ملاك الأراضي (الأعيان)، التي استغل أصحابها الخلل في نظام الضرائب العثماني لتوسيع حجم إقطاعياتهم .

وكان «الأعيان» وأصحاب التيمارات - حتى إلغاء التيمار عام ١٨٣١ - ملتزمين لدى الدولة يحصلون كل الضرائب لها باستثناء الجزية. وكانت هذه الضريبة الأخيرة وضريبة العُشر من أهم الضرائب العثمانية^(٢٣). ومن أهم الأسر الإقطاعية التي حصلت على نفوذ واسع في ألبانيا، بوشاتلي في بلاد الغيغة بالشمال وأسرة علي باشا (تابلن) في الجنوب. وقد مارست الأستان سلطة شبه مستقلة عن الباب العالي^(٢٤).

على الصعيد الإداري، قام العثمانيون بين عامي ١٤١٥ و١٤١٧ بجعل ألبانيا إيدالة (ولاية) باسم «أرناؤوط» أو «أرناؤود». وقد استمر العمل في هذا النظام حتى عام ١٤٦٦. وبعد هذا التاريخ، واستجابة لمتطلبات «الفتح» في البلاد، إنقسمت إيدالة الأرناؤوط إلى أربعة سناجق، وهي إسكندرية (Iskenderiye)^(٢٥) وألبسان (Elbasan) وأولخري (Ohri) وأولونية (Avlonya)، التي ضمت جميعها تسع عشرة مدينة كبيرة^(٢٦).

وطبقاً لقوانين تشكيل الولايات بين عامي ١٨٦٤ و١٨٦٧، إنقسمت «ألبانيا» إدارياً إلى أربع ولايات هي، سكودرا وكورسوفي وموناستير ويانينا. وقد ضمت الولاية الأولى سنجقى سكودرا ودورازو (Durazzo). أما ولاية كوسوفو، فتألفت من ستة سناجق، وهي بريستينا (Pristina) وبيك (Pec) وبزرن (Prizren) وسكوبىه (Skopje) ونوفى بارزار (Novi Bazar) وبولوليه (Plevlje). وشملت ولاية موناستير خمسة سناجق، وهي ديبرا (Dibra) وألبسان وموناستير وكورجا (Korçë) وسرفيا (Servia). وأخيراً، ولاية يانينا، التي ضمت سناجق بيرات (Berat) وجيروكاسترا (Gjrokastra) ويانينا وبريفيزا (Preveza)^(٢٧).

ثانياً : التحولات الاجتماعية - الاقتصادية في ألبانيا وإرهاصات الوعي القومي

إسورة بدول بلقانية أخرى، تسارع نمو اقتصاد السوق^(٢٨) الألباني أثناء القرن التاسع عشر وحل محل الاقتصاد الطبيعي^(٢٩)، الذي كان أساس المجتمع الإقطاعي . ومن سمات هذا التحول دخول حرف جديدة من الشرق وتطورها^(٣٠) ونمو المدن سكاناً

ومراكز تجارية وافتتاح بعضها على بعضها الآخر، وكذلك افتتاح القرية على المدينة. وقد نشأت فئة تجارية مدينية، أساسها المهاجرون اليهود، عملت على تدعيم مركزها من خلال صلاتها مع الخارج وافتتاحها على الفكر الليبرالي الغربي والثقافة اليونانية^(٣١).

وعلى صعيد المسألة الزراعية، ظل سكان الريف يتآلفون في الغالب من فلاحين امتلكوا قطعاً صغيرة من الأراضي. أما بقيتهم، فعملوا كأجراء عند كبار البكتوات والإقطاعيين. وفيما ساد الطابع القبلي في الشمال، غلت الإقطاعية في الجنوب، حيث بلغت نسبة الفلاحين ٩٥٪ من السكان^(٣٢). وباللغاء نظام التيمار عام ١٨٣١، تحرر الفلاحون اللبنانيون من استبداد الإقطاعيين، إلا أنهم سرعان ما وقعوا تحت سيطرة البيروقراطية العثمانية. فعانوا من ارتفاع الضرائب وتقلب الأسعار وقلة الأرباح وشدة الديون، وفوق كل شيء من أعباء الخدمة العسكرية. وقد إنعكست مسألة التجنيد سلباً على أوضاعهم بسبب طول مدها نتيجة لحروب السلطنة المستمرة واضطرارهم بالتالي للتغيب عن أراضيهم. فتدورت أوضاعهم الاجتماعية - الاقتصادية، مما دفع الكثيرين منهم إلى بيع أراضيه و العمل كأجراء عند كبار الإقطاعيين أو الهجرة إلى المدن وإلى خارج البلاد^(٣٣).

وبعد القضاء على علي باشا في يانينا عام ١٨٢٢^(٣٤)، وضعت الدولة العثمانية يدها على إقطاعياته الواسعة^(٣٥) وزادت من امتلاكه للأراضي على حساب الفلاحين المفلسين^(٣٦). وفي الوقت نفسه، نمت الإقطاعيات الخاصة (تشفليك)، نتيجة لاستمرار الأعيان، والآغوات (أثرياء الفلاحين) وإلى حد ما كبار التجار، في توسيع ملكياتهم وانخراطهم في الإدارة والسياسة العثمانيتين بهدف تدعيم مركزهم الاجتماعي - الاقتصادي. وقد امتلك بعضهم إقطاعيات شاسعة بلغت عدة آلاف من الأفدنة. وقد عملت الأسر الإقطاعية على الانخراط في السوق تدريجياً وفرضت في إقطاعياتها مختلف أشكال المحصول والضربيه^(٣٧).

وعلى عكس التوقعات، لم تُرضِ الإصلاحات العثمانية (التنظيمات) التي طبقتها الدولة العثمانية في ألانيا أهل البلاد، إذ رفضتها غالبية المسلمين والمسيحيين، باستثناء قلة من كبار الإقطاعيين والتجار ورجال الدين، الذين ارتبطت مصالحهم مع البيروقراطية العثمانية الحاكمة. فالمسلمون، عارضوا مرسوم التجنيد (٦ أيلول ١٨٤٣)، الذي لحظ خدمة عسكرية أطول من السابق^(٣٨)، فيما رفض المسيحيون زيادة حجم الجزية المفروضة عليهم^(٣٩). وفي المدن، ظهرت معارضه ضد البيروقراطية العثمانية وثقل الضرائب واستنزاف موارد البلاد خارج ألانيا. كما رفض الكاثوليك الجليلون سياسة

المركزة العثمانية، التي انتقمت من استقلاليتهم^(٤٠). وقد نظر الألبانيون إلى «التنظيمات» على أنها بمثابة «إعادة فتح» لبلادهم^(٤١). ولم تتفع مهمة جودت باشا، الذي أرسله الباب العالي عام ١٨٦١ لتطوير نظام إداري حديث في وقف الثورات التي اندلعت منذ الأربعينات^(٤٢).

وقد تمثلت المعارضة الألبانية النامية للحكم العثماني في اتجاهين : أولهما ، في الثورات الفلاحية المتفرقة التي اندلعت في أنحاء البلاد واتجهت أساساً ضد قانون التجنيد (= حركات إسلامية)^(٤٣). وقد تجاوزت هذه الحركات للمرة الأولى في القرن التاسع عشر إطارها الاجتماعي - الاقتصادي التقليدي (ضرائب وتجنيد)^(٤٤) ، إذ عملت اللجان الفلاحية على التنسيق فيما بينها ، مما عكس شعوراً وطنياً^(٤٥) . وثانيهما ، في ظهور الحركة الثقافية الألبانية ، التي عمل رجالاتها على تنمية المشاعر الوطنية بين الألبانيين ، مستندين إلى الدراسات العديدة التي ظهرت خلال القرن التاسع عسر وتقول إن الألبانيين ليسوا أتراكاً ولا يونانيين ولا سلافاً ، بل هم أعضاء في جماعة عرقية لها لغتها وحضارتها الخاصة (الأليرية)^(٤٦) . وقد عبرت هذه الفئة المثقفة عن طموحات مختلف قطاعات المجتمع الألباني بالسعى للخلاص من مجتمع العصور الوسطى والتقدم على خطى الدول الراقية مغلبة المصلحة الوطنية على الاعتبارات الدينية والقبلية^(٤٧) .

ونظراً لعدم توفر إمكانية قيام معارضة ألبانية محلية نشطة ، في ضوء القمع العثماني ، شكلت المعارضة الألبانية في المهجر (إيطاليا ورومانيا واليونان ومصر) الوعاء الفكري - السياسي للحركة القومية^(٤٨) ، وذلك من خلال طرحها مسألة الهوية المشتركة بين الألبانيين . وقد اعتبرت هذه المعارضة أن التثقيف السياسي للمجاهير هو ضرورة حتمية تسبق أي صراع عسكري لأجل تحرير البلاد من الحكم العثماني ، أو التصدي لأطماع الدول البلقانية المجاورة في الأراضي الألبانية ، وهذا الأخير ، (الصراع العسكري) إنما يبدأ بالتعليم ونشر الثقافة الوطنية . وقد سجل كلا الاتجاهين (الحركات الفلاحية + الحركة الثقافية) علامة فارقة في صراع الألبانيين ضد السيادة العثمانية وبداية لانبعاث «القومية الألبانية»^(٤٩) .

وإذاء المعارضة الألبانية النامية ، عمد العثمانيون إلى اتباع سياسة «فرق تسد» . فالانقسام العرقي والمذهبي ، وبين شمال وجنوب ، وانعدام التواصل الجغرافي ، فضلاً عن التعددية الثقافية ، جعل الألبانيين في عزلة عن بعضهم بعضاً وعطل وبالتالي إمكانية قيام شعور وطني ألباني راسخ^(٥٠) ، الأمر الذي شجع العثمانيين على الفصل بين الطوائف الدينية والتعامل معها على أساس دينية - طائفية . فحاربوا الدمج العرقي بين

ال المسلمين والمسيحيين^(٥١) ، وتعاملوا مع المسلمين على أنهم عثمانيين ومع الأرثوذكس على أنهم يونانيين والكاثوليك على أنهم أقلية تابعة للكنيسة روما^(٥٢) . وبال مقابل ، قربوا إليهم الأعيان والملاكيـن والتجار ورجال الدين المسلمين تاركـين لهم مجالـات واسـعة لـملء المراكـز الإدارـية والعـسـكريـة العـلـيا في الـدولـة^(٥٣) . إضافـة إلى ذـلـك ، أحـاط العـثمـانيـون المـسـلمـين بـثقـافـة عـشـمـانـية - إـسلامـيـة لـمـع تـواصـلـهـم مـع طـوـافـهـم الـبـلـادـ الـأـخـرى ذاتـ الثقـافـاتـ الـهـيلـينـيـةـ والإـيطـالـيـةـ والنـسـاوـيـةـ .

إن اعتمـادـ العـثمـانيـون سـيـاسـةـ تـعدـديـةـ ثـقـافـيـةـ لـطـوـافـهـم الـبـلـادـ الـأـلـبـانـيـةـ ، كان يـخـدمـ أـهـدـافـهـمـ فـيـ عـرـفـلـةـ نـمـوـ ثـقـافـةـ وـطـنـيـةـ الـأـلـبـانـيـةـ وـاحـدـةـ تـكـوـنـ مـقـدـمـةـ لـحـرـكـةـ اـنـبـاعـ قـوـمـيـ . كـيـفـ مـارـسـ العـثمـانيـونـ هـذـهـ سـيـاسـةـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـكـيـفـ كـانـ رـدـودـ الفـعـلـ الـأـلـبـانـيـةـ عـلـيـهـاـ ؟

ثالثاً : الحركة الثقافية : المسلمين والقومية الألبانية

تمـثـلتـ الحـرـكـةـ الثـقـافـيـةـ الـأـلـبـانـيـةـ مـنـذـ الـلـلـاثـلـتـيـنـاتـ مـنـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ بـمـحاـولاتـ إـنشـاءـ الـمـدـرـسـةـ الـوـطـنـيـةـ الـأـلـبـانـيـةـ وـالـتـعـلـيمـ بـالـلـغـةـ الـأـلـبـانـيـةـ وـتـطـهـيرـهـاـ مـنـ الـمـؤـثـرـاتـ الـأـجـنبـيـةـ^(٥٤) . وـكـانـتـ الـلـغـةـ الـأـلـبـانـيـةـ قـدـ تـدـهـورـتـ عـبـرـ الـعـصـورـ السـابـقـةـ وـانـدـثـرـتـ الـفـاظـهـاـ الـأـصـلـيـةـ وـحـلـتـ مـحـلـهـاـ كـلـمـاتـ وـمـصـطـلـحـاتـ أـجـنبـيـةـ^(٥٥) وـلـمـ تـعـدـ سـوـىـ لـغـةـ حـوارـ بـيـنـ النـاسـ فـيـ الـبـيـوتـ وـالـأـسـوـاقـ دـوـنـ أـنـ تـظـهـرـ فـيـ أـدـبـ مـدـقـونـ^(٥٦) . وبالـ مقابلـ ، سـمـحـ اـنـتـشارـ الـإـسـلـامـ فـيـ الـأـلـبـانـيـاـ لـسـيـادـةـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ عـلـىـ الـلـغـتـيـنـ الـيـونـانـيـةـ وـالـإـيطـالـيـةـ . وـقـدـ وـصـلـتـ مـؤـثـرـاتـ الـشـفـافـةـ الـعـرـبـيـةـ - الـإـسـلـامـيـةـ ذـرـوـتـهـاـ فـيـ الـأـلـبـانـيـاـ خـلـالـ الـقـرـنـ السـابـعـ عـشـرـ . وـقـدـ أـسـتـمـرـ اـنـفـاتـ الـلـغـةـ الـأـلـبـانـيـةـ عـلـىـ الـمـؤـثـرـاتـ الـعـرـبـيـةـ - الـإـسـلـامـيـةـ لـقـرـونـ عـدـةـ ، حـتـىـ أـوـائلـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ ، حـيـنـ وـصـلـ إـلـىـ ذـرـوـتـهـ مـعـ تـجـذـرـ الـدـيـنـ الـإـسـلـامـيـ فـيـ الـمـجـتـمـعـ الـأـلـبـانـيـ^(٥٧) .

حتـىـ مـطـلـعـ الـشـمـانـيـنـاتـ مـنـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ ، ظـلـ الـتـعـلـيمـ فـيـ الـأـلـبـانـيـاـ يـمـارـسـ بـالـلـغـتـيـنـ الـعـشـمـانـيـةـ وـالـعـرـبـيـةـ بـالـنـسـبـةـ لـلـمـسـلـمـيـنـ ، وـبـالـلـغـتـيـنـ الـيـونـانـيـةـ وـالـإـيطـالـيـةـ بـالـنـسـبـةـ لـلـأـرـثـوذـكـسـ وـالـكـاثـولـيكـ عـلـىـ التـوـالـيـ^(٥٨) . وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ مـرـسـومـ الـتـعـلـيمـ لـعـامـ ١٨٤٥ـ قـدـ لـحـظـ قـيـامـ مـدـارـسـ عـلـمـانـيـةـ فـيـ الـدـوـلـةـ الـعـشـمـانـيـةـ ، إـلـاـ أـنـ تـرـكـ الـبـابـ مـفـتوـحـاـ أـمـامـ الـتـعـلـيمـ الـطـوـافـيـ^(٥٩) . فـقـدـ رـفـضـ الـبـابـ الـعـالـيـ الإـجـازـةـ لـلـمـسـلـمـيـنـ الـأـلـبـانـيـاـ إـنـشـاءـ مـؤـسـسـاتـ تـعـلـيمـ خـاصـةـ بـهـمـ تـدـرـسـ بـالـلـغـةـ الـأـلـبـانـيـةـ خـشـيـةـ مـنـ أـنـ يـؤـدـيـ ذـلـكـ إـلـىـ قـيـامـ «ـالـمـدـرـسـةـ الـوـطـنـيـةـ»ـ وـبـالـتـالـيـ نـمـوـ ثـقـافـةـ وـطـنـيـةـ عـنـهـمـ^(٦٠) . وبالـ مقابلـ ، سـمـحـ لـكـلـ مـنـ الـطـافـتـيـنـ الـأـرـثـوذـكـسـيـةـ وـالـكـاثـولـيكـيـةـ الـتـدـرـيسـ بـالـلـغـتـيـنـ الـيـونـانـيـةـ وـالـإـيطـالـيـةـ ، أـيـ إـبـقاءـ أـفـرـادـ كـلـ طـافـةـ دـاخـلـ ثـقـافـهـمـ

الدينية، التي كانت تمتلكهم ثقافياً وقومياً وتحولهم في نهاية الأمر إلى يونانيين أو أتباع لإيطاليا والنمسا^(٦١).

وفي ضوء هذه التعددية اللغوية والثقافية التي سادت، عمل الباب العالي، ولأجل المحافظة على نفوذه، على عرقلة أي تواصل فكري - ثقافي بين المسيحيين أنفسهم من جهة، وبينهم وبين المسلمين من جهة أخرى، مما منع تدمير «الحواجز الدينية» التي كانت تفصل بين طوائف البلاد. فإلغاء التعددية اللغوية والعودة إلى اللغة الألبانية الواحدة، كما رأى العثمانيون، كان سيساهم في ظهور أدب مشترك يساعد الألبانيين على استكشاف ماضيهم وبيوبي بال التالي إلى تفجير وعيهم القومي^(٦٢).

وقد أدت السياسة العثمانية القائمة على التعليم الطوائفي إلى ظهور مدارس عديدة جديدة في «عصر التنظيمات» دون آية مدرسة ألبانية تدرس باللغة الألبانية^(٦٣). فازداد تبعاً لذلك عدد المدارس العثمانية بهدف نشر الدين الإسلامي وزيادة ارتباط مسلمي ألبانيا بالدولة (الإسلامية) فكراً وسياسة^(٦٤). وفي عام ١٨٧٨، ضمت سنافق قلورا وبيرات وجيروكاسترا ٨٠ مدرسة عثمانية و ١٦٣ مدرسة يونانية دون آية مدرسة ألبانية واحدة^(٦٥).

وبالنسبة لبطريكة الغنار اليونانية، فقد عمدت إلى تأييد سياسة الباب العالي القائمة على التعليم الطوائفي، إذ كانت تخشى بدورها الاتجاهات القومية عند الألبانيين حفاظاً على مصالحها، ورأى في استبدال اللغة اليونانية بالألبانية ذات الحروف اللاتينية^(٦٦) خطوة أولى على طريق تحرر الأرثوذكس الألبانيين من نفوذها^(٦٧). ولهذا السبب، زادت الكنيسة اليونانية من عدد مدارسها (الطوائفة) في ألبانيا وأسست عام ١٨٧٢ منظمة ثقافية أخرى^(٦٨) (Association culturelle) مهمتها نشر اللغة اليونانية في إپيرا (Epira) والمناطق الأخرى بهدف امتصاص الأرثوذكس الألبانيين ثقافياً وقومياً، وتحولهم^(٦٩) في النهاية إلى يونانيين، استناداً إلى بعض النظريات القائلة بأن الألبانيين من أصل يونياني.

وقد شكل تجاهل السلطات العثمانية مطالب الألبانيين المتكررة لجهة إحياء لغتهم وثقافتهم عقبة أساسية أمام تبلور هوية وطنية ألبانية^(٧٠). لكنه أعطى بالمقابل الحركة الوطنية الألبانية النامية دفعاً إلى الأمام^(٧١). فمنذ أربعينيات القرن التاسع عشر ويسكب الرقابة العثمانية في الداخل، نمت في المهججر حركة أدبية - ثقافية - وطنية ألبانيةأخذت تُصدر المؤلفات حول ألبانيا ولغتها وتراثها الشعبي^(٧٢)، وحول مستقبل البلاد، مغلبة الاعتبارات الوطنية على العقيدة الدينية.

ويُعتبر نعوم فكيهاركسي (Naum Veqiharxhi) (1797 - 1854) وكونستانتين كريستوفوردي (Konstantin Kristofordhi) (1830 - 1890) من أعظم رواد الحركة الفكرية الألبانية بين المسيحيين في المهاجر. فاعتبر فكيهاركسي أن إهمال اللغة الوطنية واستعمال اللغات الأوروبية قد شوه الوجهين الحضاري والسياسي لألبانيا^(٧٣). وقد حاول فكيهاركسي تلخيص المشكلة التي تواجه أبناء وطنه، حينما كتب يقول : «إن الأمة التي تُحرم من المعرفة هي عبده، ولا يمكن اكتساب المعرفة إلا باللغة الأم»^(٧٤). وللخروج من هذا المأزق، رأى ضرورة إحياء اللغة الألبانية^(٧٥)، التي اعتبرها الوحيدة القادرة على إثارة النعرة الوطنية وتحرير البلاد من «قيود العبودية»، على حد قوله^(٧٦).

أما المفكر الثاني، كريستوفوردي، فذكر أن اللغة الألبانية مهمة جداً للتعبير عن وجود الأمة الألبانية وحقوقها. وقال «إذا لم تكتب اللغة الألبانية، فخلال وقت قصير سوف لن يكون هناك ألبانيا على وجه الأرض، ولن يظهر اسم ألبانيا على خارطة العالم»^(٧٧). وللتتأكد على وجوب إعادة إحياء اللغة الوطنية، عمل كريستوفوردي على ترجمة الإنجيل إلى اللغة الألبانية ووضع قاموساً في اللغة عينها^(٧٨). وقد قام فكيهاركسي وكريستوفوردي، كل على حدة، بابتكار ألفبائية ألبانية مبسطة دون أن يكتب لها النجاح، بعدما سببت معارضة شديدة من قبل شيخ الإسلام والبطيريكية اليونانية في إسطنبول^(٧٩).

ومن خلال أعمال جيرولامو دي رادا (Girolamo de Rada) (1814 - 1903)، تطورت الدعوة إلى تحرير ألبانيا لغويًا وسياسيًا، حيث عمل هذا الشاعر إلى لفت انتباه الغرب إلى وجود أمة ألبانية لها لغتها وتقاليدها الوطنية يمكنها أن تطمح نحو الحرية والاستقلال^(٨٠). وقد ألهب دي رادا مشاعر الألبانيين من خلال قصائده وأغانيه الوطنية والشعبية التي نشرها عام 1866، وهي «إسكندر بك» (Skanderbeg)، تمجيداً لأول حركة انفصال ألبانيا عن الدولة العثمانية التي قادها الرعيم الألباني إسكندر بك خلال القرن الخامس عشر^(٨١).

وفي العام نفسه، الذي نشر فيه دي رادا مؤلفه المذكور، نشرت الأميرة إيلينا جيكا كتابها بالفرنسية «الأمة الألبانية من خلال الأغاني الشعبية»، مما أعطى المسألة القومية الألبانية صدى واسعاً في الغرب^(٨٢). وبعد سنوات قليلة (1871)، كتب زيف جوبان (Zef Jubane) في تريست عدة قصائد أبرز فيها مقومات القومية الألبانية، وذكر أن الدم واللغة والعادات والأهداف المشتركة هي ما يجمع الألبانيين^(٨٣).

وفي عام 1878 نشر ثيمي ميتوكو (Thimi Mitko)، المقيم في مصر، مجموعة من الأغاني الشعبية والحكايات والأمثال، وذكر في مقدمة كتابه «النحللة الألبانية»

(L'Abeille albanaise) إن هدفه هو إظهار أصل الألبانيين وهوية العرق الألباني وعاداته. وطالب مواطنه بدراسة لغتهم الأم التي اعتبرها «... الغداء الأول المشترك لإحياء الشعب» الألباني^(٨٤). وفي العام التالي (١٨٧٩)، أصدر پاشكو واصا (Pashko Vasa) عمله «الحقيقة حول ألبانيا والألبانين»^(٨٥)، الذي اعتُبر أحد أشهر المؤلفات السياسية لتلك الفترة. وقد ترجم إلى لغات أوروبية عدة. وفي كتابه هذا، أراد واصا لفت انتباه الرأي العام الدولي إلى الحيف الذي لحق بيده وجعله «ضحية»^(٨٦). وقد أطلق واصا صيحته الشهيرة عندما خاطب الألبانيين بالقول : «... استيقظوا أيها الألبانيون، لا تجعلوا المساجد والكنائس تفرقكم. إن الدين الحقيقي للألبانيين هو الكيان الوطني»^(٨٧).

وفي خضم هذا الاتجاه الفكري - القومي، لم يقف المفكرون المسلمين متفرجين ولم يشكل الإسلام أمامهم أي عائق لتطوير فكر «قومي إسلامي»^(٨٨). وفيما لعب «المهجر» دوراً في إثارة النعرة الوطنية عند المسيحيين الألبانيين، لعبت «الغرية» دوراً مماثلاً في صياغة فكر قومي عند الشاعر محمد تشامي (١٧٨٤ - ١٨٤٤). ففي أشعاره وقصائده الكثيرة وأبرزها «المغتربون»، وصف الشاعر المذكور غربته في مصر ومعاناته وتمزقه بين التكيف مع الوسط الجديد (مصر) وبين الشوق والحنين إلى الوطن القديم (ألبانيا)^(٨٩).

وبدون أسرة فراش الإقطاعية، عبديل ونعميم وسامي، ما كان بإمكان الفكر السياسي والنشاط السياسي الإسلامي ولا الحركة الوطنية الألبانية أن تتطور^(٩٠). وقد أفرزت هذه الأسرة شعراء آخرين وطنين كداليب وشقيقه شاهين. وبفضلهما، ونعميم فراشر^(٩١)، يحتوي الأدب الإسلامي الوطني الألباني على ثلاث ملائم شعرية ضخمة حول كربلاء: «الحديقة» لداليب من ٥٦ ألف بيت، و«مختار نامه» (نسبة إلى المختار، الذي خرج من الكوفة تحت شعار «الثار للحسين») من ٢١ ألف بيت و «كربلاء»، لنعميم فراشر، تؤكد جميعها على حضور كربلاء في أدب النهضة القومية الألبانية، حيث تستلهم منها صفحات نضالية وتجعلها مثالاً لمعنى الاستشهاد لأجل القضية^(٩٢).

ولا يمكن فهم الحركة القومية الألبانية ولا الدور الإسلامي البارز فيها دون الحديث عن الأخوة فراشر، عبديل ونعميم وسامي، الذين لعبوا دوراً قيادياً في تلك الحركة وشكلوا معبراً أمام المسلمين للانتقال من الثقافة العثمانية (الإسلامية) إلى الثقافة الوطنية الألبانية، ما أدى إلى تقارب إسلامي - مسيحي باتجاهات قومية^(٩٣). ويصف لوغوريسي ثقافة الأخوة فراشر ودورهم في الحركة الوطنية الألبانية، وفي الطريقة

البكتاشية أيضاً، بالقول: «لقد استطاع الأخوة فراشر أن يلعبوا دوراً فريداً متعدد (الجوانب) في الحركة القومية (الألبانية) للقرن التاسع عشر، لأنهم - بغض النظر عن قدراتهم الفذة - امتلكوا ميزة جعلتهم يتفوقون على كثير من معاصرיהם. لقد كانوا على علم رفيع وتكلموا اللغتين العثمانية والعربية ولغات أوروبية عدّة إلى جانب الألبانية. ولهذا»، يضيف لوغوريسي، «لم يكن لديهم معرفة بالنظام السياسي العثماني من الداخل فحسب، بل أيضاً بالتيارات السياسية والثقافية الأوروبية. لقد كان الأخوة الثلاثة (فراشر) متأثرين بعمق بأفكار الثورة الفرنسية وبالحركات القومية الأوروبية في عصرهم. لقد وضعوا انتماهم الديني جانباً. وعلى الرغم من كونهم مسلمين بالولادة، إلا أنهم لم يتموا إلى الطائفة السنّية الكبيرة التي احتضنت حكام الدولة العثمانية وغالبية رعاياها. لقد كانوا أعضاء في الطريقة... البكتاشية»^(٩٥).

كان عبديل (١٨٣٩ - ١٨٩٤) الزعيم الحقيقي للحركة الوطنية الألبانية في وجه السلطنة العثمانية والدولة البلقانية الطامنة في الأراضي الألبانية. ويفضل مهارته في التنظيم السياسي والدبلوماسية والإعلام، استطاع أن يحول «العصبة الألبانية»، التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً^(٩٦)، إلى منظمة وطنية فعالة. وبدونه، لما استطاعت العصبة المذكورة أن تحقق النجاحات التي ستطرق إليها بعد قليل. وأنباء عضويته القصيرة الأمد في البرلمان العثماني عن ولاية يانينا عام ١٨٧٧، وبمبادرة منه، قدم تجمع للبلاء الألبانيين في الولاية المذكورة إلى الباب العالي يطالب فيها بالاستقلال الذاتي للألبان بعد توحيدها في ولاية واحدة. لكن المذكورة بقيت دون رد من الحكومة العثمانية. ويعتبر كاستلان أن هذه المذكورة كانت «... أول عمل سياسي للعصبة الألبانية»^(٩٧). وفي أعقاب معاهدتي سان ستيفانو ويرلين (١٨٧٨)، حاول عبديل التوصل مع العثمانيين إلى صيغة تصل بـ«الألبان» إلى الحكم الذاتي دون التخلي عن السيادة العثمانية. وعندما رفض الباب العالي ذلك، أعلن عبديل استقلال ألبانيا الذاتي من جانب واحد^(٩٨). وفي عام ١٨٨٥، أسس في رومانيا مع شقيقه نعيم وسامي جمعية أدبية عملت على طبع الكتب باللغة الألبانية^(٩٩).

أما نعيم فراشر (١٨٤٦ - ١٩٠٠) شقيق عبديل، فيصفه ستافريانوس بأنه كان «رسول الشعر للحركة الوطنية الألبانية»^(١٠٠)، وموفاًكو بـ«النبي القومي للبكتاشية»^(١٠١). ولهذا السبب، لا يمكن أن نفصل نعيم فراشر عن البكتاشية «الألبانية»، فكل منهما ملازم للآخر. كما لا يمكن الحديث عن الحركة الوطنية الألبانية دون الحديث عن كليهما.

وفي كتاباته التاريخية العديدة ذات الصدى الواسع في ألبانيا^(١٠٢)، دعم نعيم فراشر الاتجاهات الوطنية للطريقة البكتاشية ودعا الناس إلى التضامن وحب الوطن وتجاوز حدود الطائفة في سبيل الوصول إلى استقلال البلاد^(١٠٣). كما عمل على ترقية اللغة الألبانية ومصطلحات البكتاشية مما دخل إليها من كلمات أجنبية. وحاول قطع كل ارتباط لتلك الطريقة مع الأناضول^(١٠٤). وفي عام ١٨٨٦ نشر نعيم فراشر رسالتين، الأولى عن الحياة في الريف الألباني، والثانية عبارة عن خلاصة لقصص وردت في القرآن الكريم والإنجيل في إطار حوار إسلامي - مسيحي هدف إلى تعميق «العقيدة الوطنية» لدى الألبانيين^(١٠٥). وفي العام التالي^(١٨٨٧)، نشر ملحمته الشهيرة عن إسكندر بك (L'histoire de Skanderbeg)، التي اعتبرت شعرًا وطنياً ألبانياً^(١٠٦).

ومن خلال رؤيتها الدينية - الاجتماعية المتسامحة، قامت الطريقة البكتاشية بدور كبير في نشر الدين الإسلامي في البلقان بعد القضاء على تنظيمها في الدولة العثمانية من قبل السلطان محمود الثاني عام ١٨٢٦ وإعدام عدد من قياداتها وتشتيت أعضائها^(١٠٧). ويُعتقد أن أول ظهور للبكتاشية في ألبانيا حدث في القرن الخامس عشر، عندما رافق عدد من البكتاشيين السلطان مراد الثاني (١٤٢١ - ١٤٥١) أثناء زحفه في ألبانيا. وخلال فترة سيطرة علي باشا في جنوب ألبانيا، إنتشرت البكتاشية وسادت بشكل عام في تيرانا وشكرا، حيث كانت المدينة الثانية مركزاً لها واعتبرت مزاراً بالنسبة للبكتاشيين لوجود ضريح أحد أوليائهم فيها^(١٠٨). وفي شمال «ألبانيا»، إنتشرت البكتاشية في كروجا وألبسان^(١٠٩).

وبفضل نعيم فراشر، تحول «الفكر البكتاشي» حول التأخي والليبرالية^(١١٠)، إلى وسيلة لإنصاره الوطني والتعايش الإسلامي - المسيحي، وكان أحد أسباب غياب أي صراع ديني حاد في تاريخ ألبانيا الحديث^(١١١). وفي معرض إشارته إلى تسامح البكتاشية ونظرتها الوطنية، قال نعيم فراشر: «إن البكتاشيين الحقيقيين يحترمون الإنسان لأي دين انتهى ويعتبرونه أخاً لهم عزيزاً عليهم وليس غريباً عنهم أبداً»^(١١٢). وأضاف «إن البكتاشيين يحبون بقية المسلمين والمسيحيين لأنفسهم، وهم يتتفقون مع الجميع، ولكنهم يحبون وطنهم وأمتهם قبل أي شيء آخر، وهذا»، أضاف نعيم، «هو أسمى الفضائل»^(١١٣). ويستطرد نعيم فراشر بالقول: «دعوهם (البكتاشيين) ينضلوا ليل نهار لأجل خلاص ألبانيا والألبانيين، لأجل تعليم الأمة... لأجل بلدتهم وحضارتهم، لأجل لغتهم... لأجل كل التقدم والإصلاح»^(١١٤).

أما الشقيق الثالث، سامي (١٨٥٠ - ١٩٠٣)، فيعتبر مفكر الحركة الوطنية الألبانية وواضع برنامجه السياسي أثناء الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة وفي أعقابها. وقد ظل سامي فراشر يطبع تلك الحركة بفكرة حتى وفاته. فخلال فترة عمله في طرابلس (ليبيا) أصدر سامي فراشر عام ١٨٧٤ جريدة «طرابلس الغرب». وفي مقر إقامته بالاستانة، عمل في الإدارة العثمانية أولاً، ثم في الصحافة (رئيس تحرير جرائد «المحرر» و«ترجمان الشرق» و«الصباح»). وأثناء تلك الإقامة، قام بترجمة أعمال من الفرنسية والفارسية. وفي عام ١٨٧٤، أصدر رواية مسرحية عن الوضع في ألبانيا. كما عمل على وضع مقالات تتعلق بالأوضاع في ألبانيا، وأصدر عدداً من كتب القواعد والقواميس في محاولة لابتكرار ألفبائية لاتينية للغة الألبانية، وكذلك موسوعة عن التاريخين الكلاسيكي الألباني والإسلامي وقاموساً للأعلام^(١١٦).

لم تشغل الاهتمامات الأدبية سامي فراشر عن تكريس وقته لقضية بلده ألبانيا. فكان على اتصال وثيق بالوطنيين الألبانيين في العاصمة العثمانية^(١١٧). ومع نجحة منهم، ضمت شقيقه نعيم، أسس عام ١٨٧٩ «الجمعية الألفبائية الألبانية» (Societe des lettres albanaises Society for the printing of Albanian writings) و «ورابطة نشر المؤلفات الألبانية» (الجمعية الأخيرة الجناح الثقافي للعصبة الألبانية، وعكس تشكيلها اتجاهات وطنية، إذ ضمت في عضويتها ١٠ من المسلمين و ١٤ من الأرثوذكس و ٤ من الكاثوليك^(١١٨). وقد جاء في دستورها ما يلي : «إن كل الأمم المتقدمة تحضرت من خلال الكتابة بلغتها الخاصة... إن كل أمة لا تكتب بلغتها الأم وليس لديها أعمالاً فيها، فهي أمة جاهلة وبربرية»^(١١٩).

ولأسباب قومية وديمغرافية، رفض سامي فراشر دعوة دي رادا إلى تقسيم ألبانيا إلى ثلاث دول فيدرالية على أساس دينية : إسلامية وأرثوذكسيّة وكاثوليكية، وقال، إن ألبانيا ليست منقسمة تبعاً للدين وإن طوائفها الدينية الثلاث لا تعيش في عزلة بعضها عن البعض الآخر، بل في اندماج. ودعا سامي فراشر الألبانيين إلى ترك الدين إلى الكنيسة والمسجد، وقال إن كل الألبانيين أخوة^(١٢٠). وفي مرحلة لاحقة (١٨٩٩)، دعا الألبانيين في كتابه «ماضي ألبانيا وحاضرها ومستقبلها» إلى الاستعداد ثقافياً وسياسياً لأجل إنشاء جمهورية ذات نظام برلماني عند انتهاء الحكم العثماني تجمع ما بين الحداثة الغربية والتقاليد الألبانية^(١٢١).

رابعاً : معاهدتا سان ستيفانو وبرلين (١٨٧٨) وتأثيرهما في ظهور الحركة القومية الألبانية

هكذا كان الوضع في ألبانيا عشية الحرب الروسية - العثمانية الأخيرة : صراع بين الألبانيين والباب العالي لأجل الشخصية الثقافية - السياسية الألبانية، وعلاقات مضطربة مع جيران يطمعون في الأراضي الألبانية. وقد دفعت تطورات الأزمة البلقانية (الأزمة الشرقية ١٨٧٥-١٨٧٧) وال الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨)، فضلاً عن تدهور الوضعين الاقتصادي والسياسي الداخلي في الدولة العثمانية، الطبقة الألبانية المتنورة داخل البلاد وخارجها لأن تبحث عن حلول تحفظ للألبانيين «كيانهم» وجودهم ك «أمة»^(١٢٢) ضمن برنامج وطني بعيد عن الدين والطائفية، وذلك لإحباط مساعي العثمانيين والدول الأجنبية بإثارة المسلمين أو الطوائف الأخرى على أساس دينية^(١٢٣).

وعلى الصعيد الشعبي، إندلعت ثورات عدة في أنحاء البلاد، كان أبرزها ثورة كاثوليك الشمال عام ١٨٧٧ والتي قمعها العثمانيون^(١٢٤). وقد علق قنصل روسيا في سكرودرا على تلك الثورات في رسالة له إلى حكومته جاء فيها «إنه من الصعب التنبؤ بنتائج الثورة». وأضاف «ومهما يكن الأمر، فمما لا شك فيه أن على أوروبا أن تأخذ مما قريب بعين الاعتبار قضية جديدة هي المسألة الألبانية»^(١٢٥).

وأثناء تفاعل الأزمة البلقانية، حاولت الدبلوماسية الأوروبية أيجاد حل سلمي لها على حساب المصالح العثمانية. ففي ٣١ آذار ١٨٧٧، قرر اجتماع للدول الكبرى في لندن أن تعقد الدولة العثمانية السلام مع الجبل الأسود وتحسن من أحوال رعاياها المسيحيين في البلقان وأن تلغى حالة الاستفار العسكري^(١٢٦)، وفوق كل شيء، أن تقوم بتسليم مناطق ديبرا وتينوفا وكورجا الألبانية إلى ولاية بلغاريا الغربية^(١٢٧). وفي ٩ نيسان رفضت الدولة العثمانية ما يُسمى بـ «بروتوكول لندن». وفي ٢٤ منه، أعلنت روسيا الحرب عليها.

لقد جعل بروتوكول لندن واندلاع الحرب الروسية - العثمانية الألبانيين يشعرون بتيار الجامحة السلافية الداهم^(١٢٨). وكان هذان الحادثان الاختبار الأول للفكر القومي الألباني على أرض الواقع وللحركة القومية الألبانية الناشئة. فبدأ مسلمو ألبانيا ومسيحييها يبحثون معاً مسألة انهيار السلطنة العثمانية وانعكاساتها على البلاد^(١٢٩).

وبعد اكتساح الروس الجبهات العثمانية في أوروبا وأسيا منذ أواخر عام ١٨٧٧، ودخول الصرب والجبل الأسود الحرب مجدداً ضد الدولة العثمانية في كانون الثاني عام ١٨٧٨ ولحاق اليونان بهما في الشهر التالي (شباط) بهدف تحقيق مكاسب إقليمية على حساب التراب اللبناني في جنوب البلاد^(١٣٠)، تسارعت الأحداث العسكرية والسياسية بشكل دراماتيكي ضد مصلحة ألبانيا ووحدة أراضيها. ففي آذار ١٨٧٨، وقعت الدولة العثمانية مع روسيا معااهدة سان ستيفانو، التي نزعت عن ألبانيا أراضٍ لمصلحة الصرب والجبل الأسود ودولة بلغاريا الكبرى التي أقامتها روسيا بموجب تلك المعااهدة^(١٣١).

وفي ضوء الانهيار العسكري العثماني ومعاهدة سان ستيفانو، عم القلق المسلمين في شمال ألبانيا وجنوبها من أن يصبحوا تحت حكم الجبل الأسود واليونان. وطرحت هذه المسألة إشكالية صعبة أمام الحركة الوطنية الألبانية داخل البلاد وفي المهجر : كيف يمكن إنقاذ البلاد وتحريرها من الحكم العثماني دون التسبب في تجزئتها بين الدول البلقانية المجاورة؟^(١٣٢).

وقد نشطت القيادات الوطنية الألبانية في شمال البلاد وجنوبها للتصدي لمعاهدة سان ستيفانو. وجاء أول تحرك لها في أواخر نيسان عام ١٨٧٨، عندما عقد أعيان ويكوات اجتماعاً في دياكوفا (Djakova) برعاية علي باشا، قائممقام غيسينيه السابق، للبحث في الوضع المترتب عن المعاهدة المذكورة. إلا أن مساعيهم لم تسفر حينذاك عن قيام تعاون وطني يشمل البلاد كلها^(١٣٣).

وفي مسجد برياق (Barjak) في بيرزن عُقد اجتماع موسع في ٢٣ تموز عام ١٨٧٨ حضرته ٣٠٠ شخصية ألبانية مثلت كل مناطق البلاد وأديانها. ونتج عن هذا الاجتماع تأسيس «اللجنة المركزية للدفاع عن حقوق الأمة الألبانية» (Central Committee for the defense of the rights of Albanian nationality^(١٣٤)، التي أصدرت في ٣٠ منه بياناً شددت فيه على القومية الألبانية وسط المحيط السلافي. وجاء في البيان المذكور: «نحن توافقون إلى العيش في سلام مع جيراننا الجبل الأسود واليونان والصرب وبلغاريا. نحن لا نطلب منهم شيئاً ولا نريد منهم شيئاً، ولكننا عازمون على الاحتفاظ بما هو لنا. دعوا الأرضي الألبانية للألبانين»^(١٣٥).

وفي اجتماع آخر ببيرزن (١٠ حزيران ١٨٧٨)، أي قبل ثلاثة أيام على بدء جلسات مؤتمر برلين لمناقشة بنود معاهدة سان ستيفانو^(١٣٦)، عقد ثمانون مندوبياً عن ولايات ألبانيا الأربع مؤتمراً ألقى خلاله عبديل فراشر كلمة حلّ فيها الوضع السياسي الراهن، ودعا المندوبيين إلى تشكيل جبهة مشتركة تقف ضد تجزئة البلاد. وتقرر خلال

هذا الاجتماع إنشاء عصبة وطنية غير طائفية عرفت باسم «العصبة الألبانية» (Lidhja Shqiptare)، أو «عصبة پرزن» (Lidhja e Prizrendit) تبعاً لمكان الاجتماع. كما تقرر أن تكون سكودرا مركز العصبة الرئيس في الشمال وجيروكاسترا مركزها في الجنوب، على أن تقوم لجنة البصان بحلقة الاتصال بينهما^(١٣٧).

وقد تميزت لجنة سكودرا، حيث وجد خليط ديني وفكري سياسي بـ«تقدمية» أكثر رسوحاً من المناطق الشمالية الأخرى. وقد انعكس هذا بشكل واضح في تركيب عضويتها، حيث ضمت ١٢ مسلماً و١٢ كاثوليكياً. وقد تزعم پرن بيب دودا (Pren Bib Doda)، زعيم عشيرة ميرديت، كاثوليك الشمال^(١٣٨). أما لجنة الجنوب، فتميزت بدور رئيسي للطريقة البكتاشية، وخصوصاً بين مسلمي إبرا^(١٣٩). وقد دعت هذه اللجنة إلى توحيد ولايات ألبانيا الأربع في ولاية واحدة وجعل أخرى عاصمتها^(١٤٠). ومع ذلك، كانت عصبة پرزن هي الأقوى عسكرياً بسبب تمركزها في المناطق الجبلية الشمالية، مركز الصراع مع الجبل الأسود.

إضافة إلى ذلك، أسست العصبة الألبانية لجاناً فرعية في مختلف أنحاء البلاد مهمتها تجنيد السكان وتوزيع السلاح وجمع الضرائب والتمويل. وقد قامت هذه المجلان بإرسال مذكرات إفرادية إلى الدول الكبرى تحتاج فيها على ضم بعض مناطقها إلى الدول البلقانية المجاورة طبقاً لمعاهدة سان ستيفانو.

كيف كان تشكيل العصبة، وما هي أهدافها وكيف كانت تحركاتها؟

جسّدت العصبة الألبانية في الواقع تحالف الأقلية البرجوازية الوطنية والأكثريية القبلية - الإقطاعية (أبناء، بقوات، رجال دين) من مختلف مناطق البلاد وأدianها^(١٤١). وهذا ما حدا بالمؤرخ لأنغر لأن يطلق عليها تسمية «إتحاد القبائل الألبانية»^(١٤٢). ومن جهته، يصف سكندي العصبة بـ«الجامعة الإسلامية» ذات التوجهات الوطنية. ويحدد المؤرخ المذكور سببين لذلك، وهما، أن غالبية الوفود التي شاركت في جلساتها كانت من المسلمين، الذين نزعت معاهدة سان ستيفانو عنهم أراضيهم لمصلحة الدول البلقانية المجاورة، ولأن وجود أقلية إسلامية - مسيحية برجوازية فيها عكس داخلها توجهاً وطنياً^(١٤٣).

وهكذا ساد في العصبة تياران، الأول إسلامي محافظ لافت، قامت سياساته على الحصول من الباب العالي على إصلاحات تصل إلى درجة الاستقلال الذاتي، مع البقاء تحت المظلة العثمانية. أما التيار الثاني، وهو التيار الوطني الإسلامي - المسيحي،

فكان يدرك حاجة ألبانيا إلى دعم الدولة العثمانية العسكري والسياسي لمواجهة ما يحيط بالبلاد من أخطار خارجية (= المحيط السلافي). فاتسمت إستراتيجيته بالسعى لأجل إبراز الشخصية الألبانية بتوحيد ولايات ألبانيا الأربع والحصول من الباب العالي على الاستقلال الذاتي في المرحلة الأولى، ثم تطويره فيما بعد ليصل إلى الاستقلال التام. وفي المرحلة الأولى من النضال الوطني الألباني، تمكن الجناح الإسلامي في العصبة من أن يطبع تلك المنظمة بفكره. ولكن اشتداد التناقضات الألبانية - العثمانية، جعل التمسك بمبدأ الجناح الإسلامي القائم على عدم قطع «الرابطة» مع العثمانيين مستحيلاً، مما أفسح في المجال للعناصر «التقدمية» في العصبة من أن تؤثر راديكاليًا على مسار الحركة القومية^(١٤٤).

وفي بيان تأسيس العصبة جرى التأكيد على الاتجاهات القومية من خلال نواحٍ ثلاثة، الأولى، إفساح المجال أمام كل ألباني للانضمام إليها، بغض النظر عن انتسابه الديني أو المذهبية، والثانية التأكيد على وجود «وطن» (ألبانيا) يضم كل الألبانيين، والثالثة السعي للحصول على الاستقلال الذاتي^(١٤٥). وفي مذكرة له إلى الباب العالي بُعيد الإعلان عن معاهدة سان ستيفانو، حدد عبديل فراشر تصور العصبة لعلاقات بلاده المستقبلية مع الدولة العثمانية على الشكل التالي^(١٤٦):

- توحيد ولايات ألبانيا الأربع في ولاية واحدة.
- تتألف الإدارة العثمانية في ألبانيا من موظفين ألبانيين.
- استخدام اللغة الألبانية في التعليم والقضاء.
- يؤدي الجنود الألبانيون الخدمة العسكرية داخل البلاد.
- استعمال عائدات ألبانيا المالية داخل البلاد.

وبناءً على توصيات ستابفريانوس، فقد طالبت العصبة الباب العالي بإنشاء مجلس ألباني منتخب يقدم المشورة للوالي العثماني^(١٤٧). ومن الواضح أن تلك المذكرة عكست اتجاهات العصبة في إبراز الشخصية القومية الألبانية من جهة، وعدم الانفصال عن الدولة العثمانية من جهة أخرى. وعلى الرغم من عدم راديكالية المطالب، في ضوء النهوض القومي المسيحي المجاور، لم يعر الباب العالي المذكرة أي اهتمام وحاول أن يجعل من العصبة أداة له لمحاربة المقررات التي ستتصدر عن مؤتمر برلين^(١٤٨).

وأنباء انعقاد الجلسة الأولى لمؤتمر برلين في ١٣ حزيران ١٨٧٨، قدمت العصبة الألبانية مذكرة احتجاج إلى المؤتمر المذكور حول عدم تمثلها فيه، أكدت فيها على

تقاليد الألبانيين ولغتهم الخاصة وشخصيتهم القومية. وأضافت المذكورة إن الألبانيين «... يتمون في الواقع إلى أديان مختلفة، لكنهم لم ينسوا وطنهم المشترك أبداً»^(١٤٩). وختمت بالقول : «... وحيث أنها لسنا ولا نريد أن تكون عثمانيين، فإننا سوف نعارض أيضاً بكل قوتنا كل من يريد أن يحولنا إلى سلاف أو نمساويين أو يونانيين. نحن نريد أن تكون ألبانيين»^(١٥٠).

ومن جهتها، خاطبت لجنة سكودرا في حزيران ١٨٧٨ دزرائيلي (Disraeli)، رئيس الوزارة البريطانية، مشددة على مسألة «القومية الألبانية» بروح بعيدة عن الطائفية والمناطقية. كما حملت المذكورة اتجاهات راديكالية، وجاء فيها : «إن الألبانيين سواء أكانوا كاثوليك أو يونانيين أو مسلمين، يمدون الهيمنة العثمانية إسوة بأية هيمنة أخرى...». وأضافت «... إن التوجه هو نفسه من على ضفاف نهر بوابانا حتى بوابة يانينا. واحدة هي مشاعر الناس، الذين يشكلون نواة متجانسة متراصة في سبيل وحدة الجماعة وهوية العرق... إن ألبانيا سوف لن تتحمل الهيمنة السلافية سواء أنت من جهات بلغاريا أو الجبل الأسود. إن ألبانيا لن تكون عثمانية أبداً، والدليل على ذلك هو الصراع (مع العثمانيين) لأكثر من أربعة قرون في سبيل المحافظة دون مساس على الشخصية والتقاليد والتوجه الوطني»^(١٥١).

و قبل أن يستفيق الألبانيون من نتائج معاهدة سان ستيفانو، إذ بهم يتلقون صفة أخرى ، وهذه المرة ليس من دولة أوروبية واحدة (روسيا)، بل من قبل تجمع دولي في برلين. فعلى عكس توقعاتهم، جاءت مقررات معاهدة برلين لغير مصلحتهم، إذ قررت إقطاع أجزاء من ألبانيا في سبيل إعادة تشكيل الكيانات البلقانية المسيحية المجاورة^(١٥٢). والسؤال الذي يطرح نفسه هنا : لماذا وقفت دول أوروبا هذا الموقف المعادي للقومية الألبانية وعملت على تقطيع أوصال ألبانيا، فيما كانت تدعى أنها تدعم الاتجاهات القومية لشعوب البلقان وتعمل على إعادة تشكيل كياناتهم السياسية؟

برأينا، إن العامل الديني في المسألة الشرقية كان ينعكس بوضوح على مؤتمر برلين بشأن ألبانيا. فأثناء جلساته، رفضت الدول الكبرى استقبال وفد ألباني جاء يعرض أمامها مسألة بلاده. وصرح بسمارك (Bismarck)، مستشار ألمانيا، أنه «لا توجد أمة ألبانية»^(١٥٣). وقد نظرت الدول الأوروبية إلى ولايات ألبانيا الأربع، وبسبب غلبة الطابع الإسلامي عليها (٧٠٪ مسلمون)، على أنها جزء من الدولة العثمانية ولم يكن في مصلحتها أو مصلحة الدول البلقانية المسيحية المجاورة خلق كيان إسلامي جديد في جنوب شرق أوروبا يكون عامل اضطراب أو إعاقة لنفوذها في المنطقة^(١٥٤). وقد عبر

غوشن، سفير بريطانيا في العاصمة العثمانية، في رسالة له إلى اللورد غرانثيل، وزير الخارجية البريطانية، عن العامل الديني - الإستراتيجي الذي يجعل أوروبا تقف هذا الموقف المعادي لكيان إسلامي في أوروبا الشرقية. فكتب في ٢٦ تموز عام ١٨٨٠ يقول، إن قيام دولة ألبانية موحدة سيجعل بوابة ألبانيا الشمالية تحت سيطرة أبنائها و... س يجعل من الصعوبة بمكان التغلب على الألبانين في حال حدوث اضطرابات... إن سكان (ألبانيا) في معظمهم مسلمون، وسوف يكونون مصدر إعاقة كبيرة للدول السلافية واليونانية حولهم...». وختم غوشن رسالته بالقول: «أنا أعتبر أن إقامة كيان ألباني سيقلل من إمكانية تدخل أوروبي في شبه جزيرة البلقان»^(١٥٥).

من الواضح إذن، أن علاقة قيام كيان إسلامي مستقل بالشكل السياسي المسيحي الجديد في البلقان وبالصالح الاستراتيجية الأوروبية هناك، كان العامل الرئيسي وراء رفض دول مؤتمر برلين الاعتراف بالقومية الألبانية ورراء اقطاعها أجزاء من الأراضي الألبانية. ومع ذلك، لفت غوشن في رسالته السالفة الذكر إلى غرانثيل إلى «... أن القومية الألبانية هي عنصر يجب لا يغيب عن أيام تركيبة سياسية مستقبلية... وأضاف «... علينا أن نضع على الأقل نصب أعيننا مستقبلاً (مسألة) نشوء ولاية ألبانية موحدة»^(١٥٦).

خامساً : الصدام بين «القومية الألبانية» وبين العثمانيين والتحالف البلقاني - الدولي

أدت معاهدة برلين إلى تأجيج الاتجاهات القومية عند الألبانين، وتجسد ذلك في رفضهم التسويفات الإقليمية على حساب وحدة التراب الألباني^(١٥٧). وفيما اعتقد السلطان العثماني عبد الحميد أن العصبة الألبانية يمكن أن تخدم مصالحه البلقانية وشجعها باذن الأمر، بدأت التطورات السياسية الناجمة عن المعاهدة المذكورة تسير في اتجاه معاكس لمصلحته، وذلك من خلال مسألتين : الأولى، الاتجاهات القومية للألبانين التي قد تقود البلاد إلى الاستقلال الذاتي^(١٥٨)، والثانية، تعارض «اليقظة القومية» الألبانية مع سياسة «الجامعة الإسلامية» التي كان يسعى السلطان للاستفادة منها في سبيل تقوية نظام حكمه. ولهذا، تعامل عبد الحميد مع الحركة القومية الألبانية بأسلوبين إثنين، أولهما، إستغلال قوى العصبة بقدر الإمكان لتنسجم مع سياساته البلقانية غير المعلنة والقاضية بفرض بنود معاهدة برلين وتبدل الأوضاع لمصلحته^(١٥٩)، وثانيهما، إضعاف الحركة القومية الألبانية برفضه توحيد ولايات ألبانيا الأربع في ولاية

واحدة إنسجاماً مع مطلب العصبة الألبانية وإيقائها مجزأة^(١٦٠)، ثم ضرب تلك الحركة في الوقت المناسب والإجهاز عليها.

وإثر صدور مقررات معاهدة برلين، أخذ السلطان العثماني يحضر العصبة سراً على رفض المعاهدة المذكورة فيما يتعلق باقتطاع أجزاء منها، وأبلغها «... إنّه على استعداد أن يخسر عرشه على أن يفقد إنشاً واحداً من ألبانيا»^(١٦١). وما لبث أن أمر بتوزيع السلاح على أنصار العصبة من القبائل الإسلامية وسمح للجانها بجمع الأعشار^(١٦٢). ومن خلال العناصر الإسلامية المحافظة داخلها، حاول أن يدفع تلك المنظمة في اتجاه إسلامي يقوم على إشغالها بدعم مسلمي البوسنة، بمعنى آخر الصدام مع النمسا/هنغاريا التي كانت قد وضعت البوسنة مع الهرسك في «عهدهما» بموجب معاهدة برلين. لكن عبديل فراشر والقيادات الوطنية في العصبة، رفضت الانحراف عن الخط القومي إلى الإسلامي (الجامعة الإسلامية) الذي كان يبعدها عن أهدافها الوطنية ويشغلها في معارك جانبيّة. ولهذا، إكتفت العصبة بالتعاطف المعنوي مع مسلمي البوسنة^(١٦٣).

وفيما لم يحصل صدام بين الألبانيين والصرب عند تسلم تلك الدولة المناطق الألبانية التي منحت لها بموجب معاهدة برلين، ذلك أن هذه المناطق كانت ذات أكثرية سلافية^(١٦٤)، رفضت العصبة الإذعان لمعاهدة برلين وتسلّم مناطقها ذات الأكثرية الإسلامية (پلاڤا وغيسيينيه وإيپرا) إلى كل من الجبل الأسود واليونان. وعندما زادت الدول الكبرى من ضغوطاتها على السلطان العثماني لتنفيذ بنود معاهدة برلين بشأن ألبانيا، لم تكتثر العصبة لأوامر السلطان وتقبل النظام الإقليمي الجديد^(١٦٥).

وقد أدى عدم رضوخ العصبة لمشيئة السلطان إلى تدهور علاقاتها معه. وفي الوقت نفسه، ساءت سمعة السلطان في «ألبانيا» ك الخليفة «لا يقاتل الكفرة، بل يهادنهم»^(١٦٦). ومنذ ذلك الحين، إتخذ نضال العصبة اتجاهًا وطنياً متطرفاً. فأعلنت عن عدائها للسلطان ولجيئها البلقانيين والدول الكبرى وطالبت بالاعتراف بالأراضي الألبانية وحدة غير قابلة للتجزئة ومنح سكانها إستقلالاً ذاتياً تحت السيادة العثمانية^(١٦٧). وما لبثت الثورات أن اندلعت في أنحاء البلاد والتي تورّطت فيها الطريقة البكتاشية في الجنوب^(١٦٨)، حيث لعب تنظيمها الاجتماعي، لا الديني، دوراً أساسياً في النضال ضد التخلّي عن منطقة إيپرا الإسلامية إلى اليونان^(١٦٩).

وأثناء تفاعل هذه الأحداث، قُتل مندوب السلطان العثماني محمد باشا في مدينة دياكونا في أيلول عام ١٨٧٨، عندما كان يحاول إقناع لجان العصبة تسلّم پلاڤا

وغيسينيه إلى الجبل الأسود. كما طرد مندوب آخر للسلطان من ألبانيا هو مختار باشا^(١٧٠).

وبسبب وجود غالبية إسلامية في بلاقا وغيسينيه، تفاقم الصراع بين العصبة الألبانية والجبل الأسود واتخذ منحى عسكرياً^(١٧١). خلال عام ١٨٧٩ صد الألبانيون حملات عثمانية عدة كان الهدف منها إرغامهم على تسليم المنطقتين المذكورتين. وعندما حاول الجبل الأسودأخذ زمام المبادرة بنفسه، لحقت به هزيمة ساحقة عند بيبيك (Pepic) وفليكا (Velika) مطلع عام ١٨٨٠^(١٧٢)، وأخرى عند جسر رزانيتسا (Rzanitsa bridge) نهاية شهر نيسان. وقد شاركت قوات كاثوليكية كثيفة في المعركتين إلى جانب قوات العصبة بقيادة الزعيم دودا^(١٧٣).

إن تغلب العصبة الألبانية الاعتبارات القومية على الدينية يتجلّى بوضوح في تصديها لمحاولات دول معاهدة برلين الخروج من المأزق بمنحها الجبل الأسود مناطق قبيلي خوتي وغرودا (Gruda) الكاثوليكين عند نهر زم (Zem) وبحيرة سكودرا بدلاً من بلاقا وغيسينيه الإسلاميين (Corti - compromise)^(١٧٤). فقد أعتقد مهندسو الدبلوماسية الأوروبية أن العامل الديني سوف يتغلب على العامل القومي ويكون أداة تفرقة بين المسلمين والمسيحيين، وإن الأولين سوف يرحبون بهذا الحل الأخير، الذي ينقذ منطقتهما من الإلحاد بالجبل الأسود. وأخيراً، إن الكاثوليك لن يمانعوا في التحرر من «الحكم الإسلامي» ويصبحوا رعايا لعرس الجبل الأسود.

ولما كانت «تسوية كورتي» تنسجم مع سياسة الجامعة الإسلامية للسلطان عبد الحميد بإبقاء سيادته على المناطق الإسلامية في السلطنة وتحويل دولته إلى دولة ذات أكثريّة إسلامية، فقد دخل الباب العالي في مفاوضات مع الجبل الأسود بشأن استبدال المنطقتين الإسلاميين بالمنطقتين المسيحيتين. وقد أعتبر أن الاحتفاظ بالمنطقتين الأخيرتين صفقة خاسرة، لأن كل الولايات العثمانية المسيحية المتبقية في البلقان أصبحت في حكم الساقطة^(١٧٥). وما لم يدركه هؤلاء الدبلوماسيون الأجانب ومعهم الحكومة العثمانية، أن الكاثوليك كانوا سيرفضون الخضوع لحكم أرثوذكسي (الجبل الأسود)^(١٧٦). فأثناء مفاوضات الباب العالي مع الجبل الأسود، التقت وفود من القبائل الكاثوليكية في الشمال قناصل الدول الكبرى في سكودرا يوم ٥ نيسان ١٨٨٠ وأعلّمتهم أن الكاثوليك «... يفضلون الموت على أن يصبحوا سلافاً وأنهم لا يقبلون الخضوع لحكم أنس يصليبون تبعاً لللطقوس اليونانية»^(١٧٧).

وبعد أقل من أسبوع، أي في ١٠ نيسان ١٨٨٠، طالبت القبائل الكاثوليكية في

الشمال ومعها تلك الإسلامية، السلطان العثماني الموافقة على البرنامج الآتي^(١٧٨)، الذي رُفض من قبل السلطان عبد الحميد :

- إستقلال ذاتي .
- اختيار اللبنانيين أميراً عليهم بأنفسهم .
- مغادرة الجيش العثماني ألانيا .
- تعيين ممثل ألانيا في الأستانة لتنظيم العلاقات بين البلدين .
- إستبدال كل الموظفين غير اللبنانيين (العثمانيين) بآخرين محلين .
- تحديد حجم القوات الألبانية التي تدعم الدولة العثمانية في حروبها الخارجية .
- تحديد الضرائب التي يتعين على ألانيا أن تدفعها سنوياً إلى الخزينة العثمانية .

وازاء تمسك المسلمين بپلاطا وغيسينيه ورفض الكاثوليك تسليم مناطقهم الى الجبل الأسود، ارتأى اجتماع لسفراء الدول الكبرى في برلين (حزيران ١٨٨٠) منح الجبل الأسود دولسينو الإسلامية مع المنطقة الساحلية على البحر الأدرياتيكي بدلاً من خوتي وغرودا^(١٧٩). ورداً على هذا القرار الدولي، سارعت قوات العصبة واحتلت دولسينو. وبعث سكان تلك المدينة بمذكرة إلى الدول الكبرى يرفضون الخضوع للجبل الأسود، وجاء فيها : «نحن سكان دولسينو الذين كنا لقرون عدة تحت حكم الدولة العثمانية وحمايتها، لا نستطيع أن نلائم عاداتنا ولغتنا وديتنا لتلك التي للجبل الأسود والتي تختلف عما لدينا، بل تتناقض معها»^(١٨٠). وأضافت المذكرة : «... إننا عازمون على المقاومة، ولو دمرت مدینتنا ومتنا جمیعاً على آخرنا»^(١٨١). ويقول الزعيم الوطني المصري مصطفى كامل، إن تلك المذكرة أحدثت صدى واسعاً وهياجاً كبيراً في أنحاء الدولة العثمانية وطرحت علامات استفهام حول مواقف الدول الأوروبية التي لا تكتفي بتحرير المسيحيين من سلطة الدولة العثمانية فحسب، بل تعمل أيضاً على إخراج المسلمين من تحت مظلة دولتهم الشرعية^(١٨٢).

وسبق احتلال العصبة لدولسينو، قيام أساطيل الدول الأوروبية مطلع أيلول بمظاهرة بحرية أمام مرفأ راغوسا (Ragusa) (= دوبروفنيك Dubrovnik) وتوجيهه غوشن إنذار شفهي إلى السلطان العثماني باحتلال سمرنة (أزمير) من قبل أسطول بلاده إذا لم تُسلم دولسينو إلى الجبل الأسود^(١٨٣). وفي محاولة للالتفاف على هذا الإنذار، أبلغ الباب العالي الدول الكبرى بأن تسليم دولسينو إلى الجبل الأسود سوف يؤدي إلى حدوث اضطرابات في البلقان (مذكرة ١٥ أيلول ١٨٨٠). لكنه عاد وأعلن عن استعداده للتخلص

عنها شرط أن تضمن أرواح مسلميها و المسيحييها وأن توقف الدول الكبرى مظاهرتها البحرية وتُبقي كلاً من خوتي وغرودا في حظيرة السلطان، وأخيراً، لا يُعطى الجبل الأسود مستقبلاً إنشاً واحداً من أملاك الدولة العثمانية^(١٨٤). لكن الدول الكبرى أصرت على تسليم الباب العالي دولسيتو دون شروط.

وفي جنوب البلاد، قاومت العصبة الألبانية مقررات مؤتمر برلين بشأن ترسيم الحدود بين الدولة العثمانية واليونان. وكانت المعاهدة المذكورة قد قضت بمنح تساليا وإيپرا إلى الدولة الأخيرة. وبعد تلکؤ الباب العالي في تنفيذ تعهداته بشأن المنطقتين المذكورتين، قرر اجتماع للسفراء الأجانب في برلين (حزيران ١٨٨٠) إقطاع معظم تساليا، وإيپرا: يانيينا، ايدونات (Aidonat)، مارغريتي (Margariti)، لوروس (Luros)، پريفيزا، وأرتا وتسليمه إلى اليونان^(١٨٥). وقد رفضت العصبة هذه المقررات وعقدت اجتماعين، الأول في جيروكاسترا (٣ تموز ١٨٨٠) والثاني في كوسكريسي (Kuscreci)، جنوبي بيرات (نهاية تموز). وقد حضر الاجتماعين زعماء مسلمون ومسيحيون، وأم الاجتماع الثاني ٧٢ بكتاشيا وتقرر فيه المقاومة المسلحة لأي دخول يوناني إلى إيپرا الإسلامية^(١٨٦). وتعود أهمية إيپرا اقتصادياً إلى مراقبتها البحرية المهمة كپريفيزا وأرتا و غومنسه (Gumencë) وپراجا (Praga)^(١٨٧). وقد رفض مسلمو إيپرا دعوات يونانية للوحدة على أساس مساواتهم باليونانيين وحصولهم على مثل حقوقهم وامتيازاتهم. وفيما برر اليونانيون صدود هذه «الدعوة» عنهم إلى الأصول العرقية والحضارية المشتركة التي جمعت ما بين أجداد الطرفين (Pelasgian)^(١٨٨)، لعب العامل الديني وارتباط المصالح مع الدولة العثمانية دوراً رئيسياً في رفض مسلمي إيپرا دعوة اليونان للاتحاد. فقد خشي هؤلاء أن يخسروا امتيازاتهم التي تتمتعوا بها في ظل الدولة العثمانية كمسلمين ويصبحوا «أقلية دينية» في حال اتحادهم مع اليونان^(١٨٩).

وعلى الرغم من مقاومة العصبة بزعامة عبديل فراشر لأي تفريط بإيپرا، عقدت الدولة العثمانية في آذار ١٨٨١ تحت ضغط دولي اتفاقاً مع اليونان سلمتها بموجبه تساليا على الجانب الجنوبي لنهر سلامفريا (Salamvria) وأرتا التابعة لإيپرا^(١٩٠). وقد تزامن هذا الاتفاق مع تصفيه العثمانيين للعصبة الألبانية، كما سنرى بعد قليل.

ومنذ منتصف أيلول ١٨٨٠، بدأت الساحة الألبانية تشهد تدهوراً سياسياً ينذر بتجدد الصدام العسكري بين العصبة والدولة العثمانية. فهل كان بالإمكان تفاديه والوصول إلى تسوية ما ؟

الواقع، إن كل التطورات التي أشرنا إليها كانت تدل على أن الصدام ما بين

الفيقين أصبح أمراً محتوماً. فالعصبة كانت تعتبر أن إصرارها على الاستقلال الذاتي وعدم تسليم دولسيينو وتساليا وإيپرا هو مطلب قومي لا يمكن الرجوع عنه. ومن جهة السلطان العثماني، فإن تبعية ألبانيا له كانت بنظره حقاً لا ينزعه عليه أحد، وخصوصاً أن الدول الكبرى كانت تدعم ذلك. ولهذا، كان على استعداد للتضحية بدولسيينو وغيرها في سبيل الاحتفاظ ببقية المناطق الإسلامية الألبانية، وهو ما جعل الصدام بين «القومية الألبانية» و«الشرعية العثمانية» أمراً لا مفر منه. وما عجل بذلك، الانشقاق الذي شهدته اللجنة المركزية للعصبة خلال شهر تشرين الأول بين العناصر «التقدمية» و«المحافظة» حول إعلان استقلال ذاتي من جانب واحد، وسط دعوات التطرف التي أطلقتها لجنة سكودرا أثناء اجتماع ديرنا نهاية الشهر نفسه^(١٩١).

وبعد رفض العصبة الرضوخ إلى أوامر الباب العالي بتسليم دولسيينو في أعقاب قبوله وساطة ألمانية تقضي بتسليمها إلى الجبل الأسود^(١٩٢)، إندلع القتال بين العصبة والعثمانيين. وساعد هذا التطور القوى «التقدمية» في العصبة على طرد العناصر «المحافظة» منها المؤيدة للعثمانيين. وفي كانون الأول ١٨٨٠، أعلن «التقدميون» أنفسهم «حكومة مؤقتة» لألبانيا بزعامة عبديل فراش وآخرين^(١٩٣). وفي كانون الثاني من العام التالي، بدأت هذه الحكومة تتسلم شؤون البلاد. فتم طرد المتصدرين والموظفين العثمانيين من مناصبهم، وعلى رأسهم متصرف پرزرن. كما تسلمت اللجان المحلية شؤون الإدارة في مناطقها^(١٩٤).

سببت هذه التطورات السياسية والعسكرية، لا سيما إعلان الاستقلال الذاتي من جانب واحد، قلق السلطان عبد الحميد، خصوصاً أنها كانت حلقة ضمن سلسلة من مساعي «القوميات» الإسلامية في السلطنة للحصول على الاستقلال الذاتي أو التام. فيبين عامي ١٨٧٧ و١٨٨٠، كان عليه أن يواجه للمرة الأولى تحركات مسلمي بلاد الشام وال Hijaz وكردستان - هذه التحركات التي جاءت في وقت كان يريد فيه أن يحول «يقظة الإسلام» (الجامعة الإسلامية) إلى مشروع سياسي داخلي لتبني نظام حكمه. وبعدما رأى أن مقاومة الألبانيين للضغوطات الأجنبية عليهم قد ارتدت عليه بصفته سلطاناً - خليفة، قرر أن يستخدم القوة العسكرية للقضاء على العصبة الألبانية^(١٩٥).

وفي رسالة له إلى دي رادا في شباط ١٨٨١، حدد سامي فراشر الأسباب التي أوصلت العلاقات الألبانية - العثمانية إلى درجة التلاقي، فقال : «إن عصبة پرزرن طالبت مراراً خلال السنوات الثلاث الماضية بتوحيد ألبانيا في ولاية واحدة تتمتع بالاستقلال الذاتي، ولكن الأمبراطورية (العثمانية) خدعتهم بالوعود. لقد فهم الألبانيون

تماماً الآن أن الأمبراطورية لا تريده أن تفعل لهم شيئاً. وتبغى لتلك الظروف»، أضاف سامي فراشر، «رأيت عصبة پرزن ضرورة توحيد ألبانيا بشكل مستقل ذاتياً وربما مستقل تماماً...»^(١٩٦).

وبين شهري تشرين الأول ١٨٨٠ ونisan ١٨٨١، وبعد استحضار ٢١ كتيبة عسكرية بقيادة المشير درويش باشا^(١٩٧)، شن العثمانيون والجبل الأسود هجمات منسقة ضد موقع العصبة، فيما كان أسطول دولي يضرب الحصار على ساحل دولسينو منذ أيلول عام ١٨٨٠. وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٨٨٠ زحف العثمانيون من سكودرا إلى دولسينو واحتلوها في ٢٦ منه، وقاموا بتسليمها إلى الجبل الأسود. وفي ٢٤ آذار ١٨٨١ سقطت سكوبية بيد العثمانيين ولحقت بها پرزن في ٢٢ من الشهر التالي^(١٩٨). وأعقب ذلك، اعتقال معظم القيادات «المتطورة» في العصبة وملاحقة الفارين ورشوة «المحافظين» بالمناصب والهبات^(١٩٩). وبذلك أجهضت أول حركة قومية في تاريخ ألبانيا الحديث^(٢٠٠)، ولم تعد إلى مستواها السابق إلا بعد سقوط السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩.

ومن جهةه، دعا السلطان العثماني عبر قائدته درويش باشا الألبانيين إلى الإنضواء تحت لواء الجامعة الإسلامية بدليلاً عن القومية الألبانية، ووعد بتنفيذ إصلاحات، محذراً في الوقت نفسه من أن أية إنفاضة مسلحة ضده سوف تُعتبر مخالفة للشريعة الإسلامية ولصفته خليفة على المسلمين^(٢٠١).

حواشی الفصل الخامس

- (١) أُعلن استقلال «ألبانيا» في ٢٨ تشرين الثاني عام ١٩١٢ في مدينة فلورا (Vlora). وفي ٢٩ تموز من العام التالي اعترفت الدول الكبرى بـ«ألبانيا» إمارة محايدة تحت إشرافها، وتم تحجيمها إلى مساحة ٢٨ كيلومتر مربع وإلى ٨٠٠ ألف من السكان، أنظر محمد موافق، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، سلسلة «عالم المعرفة»، ٦٨ (١٩٨٣)، ص ٣٤-٣٣. وحين تستخدم في هذا الفصل مصطلح «ألبانيا» تجاوزاً، فالمعنى المقصود به تلك المنطقة التي ضمت ولايات سكودرا (Iskodra) ومناستير (Monastir) (ويانينا Kosovo) التي سكنها شعب واحد عُرف بعد عام ١٩١٢ بـ«الشعب الألباني».
- (٢) حول هذه الموضوعات، راجع عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ٤، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٨٤٣؛ علي حسون، العثمانيون في البلقان، ط ٢ بيروت/دمشق ١٩٨٦، ص ٣٠-٢٩؛ مصطفى مؤمن، قسمات العالم الإسلامي المعاصر، دار الفتح ١٩٧٤، ص ٤٦٦.

Halil Inalcik, Arnawutluk, in: *EI* 2, vol. I, Leiden/London 1960, p 651.

- (٣) الشناوي، ج ٤، ص ١٨٤٦.
- (٤) المرجع السابق، ج ٤ ص ١٨٤٩-١٨٥١ و Inalcik، ص ٦٥١.
- (٥) من أشهر أسر الصدور العظام الألبانية، كوبيريلي، التي شغل خمسة من أفرادها المنصب خلال القرن السابع عشر ومطلع القرن التالي. وقد أحصى أحد الباحثين ما لا يقل عن ثلاثة صدراءً أعظم من أصل ألباني. إضافة إلى ذلك، شغل الألبانيون مناصب رفيعة في الدولة كولاة وستانجن. حول هذا الموضوع، راجع الشناوي، ج ٤ ص ١٨٦١ و Inalcik, p 656.
- (٦) Inalcik, p 656.
- (٧) موافق، مرجع سابق ص ١٧-١٦.
- (٨) حول الأسلامة في البلقان وتطورها بالأرقام، أنظر دراسة:
- Michel Balivet, Aux origines de l'Islamisation des Balkans Ottomane, in: *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, 66, 4(1992), Les Balkans à l'Empire Ottomane, pp 11-20.
- Peter Bartl, Die albanischen Muslimen zur Zeit der nationalen Unabhängigkeitsbewegung (1878-1912), Wiesbaden 1968, p 20; Inalcik p 656.
- Inalcik, p 652, 656.
- Bartl, pp 8-24.
- (٩) (١٠)
- (١١) (١٢) المرجع السابق ص ٢٤-٢٦.

- (١٣) Inalcik, pp 652,654.
- (١٤) Michael Schmidt-Neke, Geschichtliche Grundlage, in: Klaus-Detlev Grothusen ed. *Albanien*, Göttingen 1993, p 29.
- وقارن بملحق رقم (١٩) حول مواطن انتشار المسلمين في ألبانيا ونسبهم المئوية .
- (١٥) المرجع السابق، حاشية ١٠ ص ٢٩.
- (١٦) Georges Castellan, Histoire des Balkans XIV^e-XX^e siècles, Paris 1991, pp 358- 359.
- (١٧) Inalcik, p 652.
- (١٨) Süssheim, Arnauts, in: *EI I*, vol. I, Leiden/London 1913, p 451.
- (١٩) Inalcik, p 652.
- (٢٠) الشناوي، ج ٤، ص ١٨٥٦-١٨٥٧.
- (٢١) Bartl, p 18.
- (٢٢) المرجع السابق ص ١٨، و:
- (٢٣) Inalcik, pp 655-657.
- (٢٤) المرجع السابق ص ٦٥٧.
- (٢٥) أطلق عليها فيما بعد تسمية سكودرا.
- (٢٦) Inalcik, p 656.
- (٢٧) Bartl, pp 37-86.
- (٢٨) هو اقتصاد يتم فيه الإنتاج أساساً بقصد التبادل وتستخدم فيه النقد وتحدد فيه الأسعار وفتا للعرض والطلب وعلى أساس المنافسة، انظر، أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت ١٩٨٢ ص ٢٥٨.
- (٢٩) هو الاقتصاد الذي يندر فيه استخدام النقد ويقوم أساساً على المقايسة سلماً أو خدمات، راجع بدوي ص ٢٨٠.
- (٣٠) موناكرو، مرجع سابق ص ٩٢.
- (٣١) Stefanaq Pollo/Arben Puto , Histoire de l'Albanie des origines à nos jours, Roanne Carole Rogel, The دراسة (Paris), s.d., p 125; Schmidt-Neke, op. cit., p 23
- Wandering Monk and the Balkan National Awakening , in: William Haddad/ William Ochsenwald eds. «Nationalism in a Non-National State. The Dissolution of Inalcik, P 656. ، وقارن بـ the Ottoman Empire , Columbus 1977, pp 79-81
- (٣٢) L.S. Stavrianos, The Balkans Since 1453, New York ect. 1958, p 498.
- (٣٣) Pollo/Puto , Histoire, p 126.

- Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks, repr. Beirut 1961, pp 499-501. (٣٤)
- Inalcik, pp 655,657. (٣٥)
- Pollo/Puto, p 126. (٣٦)
- (٣٧) حول نمو التشريفيك، راجع دراسة Schmidt-Neke , p 31 كل منها إقطاعيات تراوحت ما بين ٤٠٥٠ - ٢٠٢٥ فداناً. وقد أخذت هذه الأسر تنخرط في السوق أكثر فأكثر وتفرض في إقطاعياتها مختلف أنواع المحصول وأشكال الضريبة لمصلحتها، انظر: Pollo/Puto p 127.
- Castellean, Histoire, p 359; Schmidt-Neke, p 31. (٣٨)
- Inalcik, p 656. (٣٩)
- Pollo/Puto, p 127f. (٤٠)
- Johannes Faensen, Die albanische Nationalbewegung, Berlin 1980, Anm.12, p 16. (٤١)
- Stanford J. Shaw/ Ezel Kural Shaw, The Ottoman Empire and Modern Turkey, (٤٢) vol. II. Reform, Revolution, and Republic: The Rise of Modern Turkey 1808-1975, Cambridge 1977, p 65.
- (٤٣) (٤٣) قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية. قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، بيروت / فلوريدا ١٩٩٤ ص ٧٧.
- Schmidt-Neke, Geschichtliche Grundlagen, op. cit., p 29. (٤٤)
- Pollo/Puto, Histoire, p 129. (٤٥)
- Anton Logoreci, The Albanians, London 1977, p 45. (٤٦)
- Castellan p 359; Pollo/Puto, p 134. (٤٧)
- Edgar Hösch, Geschichte der Balkanländer, Stuttgart usw. 1968, p 118; Castellan, (٤٨) Histoire, p 359.
- ويذكر كاستلان (ص ٦٠) أنه وُجِدَت عام ١٨٥٠ جاليات ألبانية في الأستانة قوامها ٦٠ ألفاً، وأخرى في مصر واليونان ورومانيا وإيطاليا وجنوب روسيا وأميركا وأستراليا.
- Pollo/Puto, p 129f. (٤٩)
- Gotthold Rhode, Die Staaten Südosteuropas vom Berliner Kongress bis zum (٥٠) Ausgang des 1. Weltkriegs (1878-1918), in: Theodor Schieder ed. Europa im Zeitalter der Nationalstaaten und europäische Weltpolitik bis zum Ersten Weltkrieg, Bd. 6, Stuttgart 1973, p 577f.
- Schmidt-Neke, Geschichtliche Grundlagen, op. cit., p 31. (٥١)
- Logoreci, 37,38. (٥٢)

- (٥٣) Inalcik p 656؛ الشناوي، ج ٤، ص ١٨٦١.
- (٥٤) موفاكر، ص ٤٥-٤٦.
- (٥٥) الشناوي، ج ٤، ص ١٨٧٢.
- (٥٦) ساطع الحصري، نشوء فكرة القومية، مرجع سابق ص ١١٠-١١٢.
- (٥٧) موفاكر، ص ٤٤ و ٤٧.
- (٥٨) الحصري، نشوء فكرة القومية، ص ١١٢.
- (٥٩) Castellan, Histoire des Balkans, op.cit., p 360.
- (٦٠) Stavro Skendi, The Albanian National Awakening 1878-1912, Princeton 1967, p 471.
- (٦١) Monakor، ص ٤٦-٤٧.
- (٦٢) Rhode, Die Staaten Südosteuropas, op. cit., p 577f
- (٦٣) Stavrianos, The Balkans , pp 501-505; Skendi, pp 132-133.
- (٦٤) تأسست أول مدرسة تدرس باللغة الألبانية عام ١٨٨١ ولحقتها واحدة أخرى عام ١٨٨٥ وثالثة في العام التالي ورابعة في عام ١٨٩١ ، انظر:
- Bartl, Die albanischen Muslimen, p 147; Logoreci p 38.
- (٦٥) Logoreci, p 37.
- (٦٦) Castellan, Histoire, p 360.
- (٦٧) يستنتج محمد موفاكر ص ٤٥-٤٦، ٦٣-٦٤، أن التحول عن الأبجدية العربية (الإسلامية) إلى اللاتينية كان محاولة لفك ارتباط الألبانيين مع الشرق، والانحراف في الثقافة الغربية، وظهر هذا بوضوح أثناء فترة النهوض القومي الألباني في أواخر القرن ١٩.
- (٦٨) Pollo/Puto, pp 135, 153-154.
- (٦٩) Castellan, p 360.
- (٧٠) Schmidt-Nekke, p 31.
- (٧١) Castellan , p 360.
- (٧٢) Skendi, The Albanian National Awakening, op. cit., p 115.
- (٧٣) Faensen, Die albanische Nationalbewegung, op. cit., p 27.
- (٧٤) نقلاً عن: Logoreci, p 39.
- (٧٥) Faensen, p 27.
- «...la lange nationale... voyait non seulement un ferment qui devait libérer sa partie des chaines de l'esclavage' (٧٦)
Pollo/Puto p, 128.
- (٧٧) نقلاً عن: Skendi, pp 122-123.

- (٧٨) الشناوي، ج٤، ص ١٨٧٢-١٨٧٣؛ Inalcik, p 650.
- (٧٩) Castellan, p 360.
- (٨٠) Skendi, pp 115-117.
- (٨١) موفاكو، الثقافة الألبانية، مرجع سابق ص ٨٩-٩٠.
«La nationalité albanaise d'après les chants populaires».
- (٨٢) أنظر: Pollo/Puto, p 136
- (٨٣) Skendi, p 121. صدرت هذه القصائد والأغاني تحت عنوان:
- (٨٤) «Recueil des chants populaires et rhapsodies albanaises», Castellan, p 361.
- (٨٥) كاثوليكي ألباني من قبيلة ميرديت، عين متصرفاً على جبل لبنان من عام ١٨٨٣ إلى ١٨٩٢.
- (٨٦) «La vérité sur l'Albanie et les Albanais».
- (٨٧) Pollo/Puto, Histoire, p 153.
- (٨٨) Stavrianos, p 501. نقلأ عن:
- (٨٩) في كتابه الذي أصدره عام ١٩١٣ «Briefe über Albanien»، ذكر Antonie San Giuliano أن «أن المسلمين الذين يশوّهون شعورهم الوطني الألباني بمحبوبية، هم... المنصر قادر في لحظة اتخاذ القرار على التأثير على المصير النهائي للوطن»، نقلأ عن: Bartl, pp 75-76.
- (٩٠) موفاكو، ص ١٣٩-١٤٠.
- (٩١) Stavrianos, p 505.
- (٩٢) س يأتي الحديث عن نعيم فراشر في ص ٩٩٩.
- (٩٣) Süssheim, Arnauts, op. cit., p 455. موفاكو، ص ٥٠، ٦١-٦٠، ١٠٧، ١٥٢، ١٥٣، و
- (٩٤) الشناوي، ج٤، ص ١٨٧٦.
- (٩٥) Logoreci, p 43. نقلأ عن:
- (٩٦) أنظر تحت ص ١٥١ وما بعد من هذا الفصل.
- (٩٧) Castellan, p 361.
- (٩٨) حول دور عبديل في تزعم الحركة الوطنية الألبانية (العصبة الألبانية)، أنظر ص ١٥١ - ١٦٠.
- (٩٩) Inalcik p, 650.
- (١٠٠) Stavrianos, p 505. نقلأ عن:
- (١٠١) نقلأ عن: موفاكو، ص ٦١.
- (١٠٢) Logoreci, p 42.

- (١٠٣) Pollo/Puto, Histoire, p 109; Bartl, Die albanischen Muslime, pp 134-135.
- (١٠٤) Bartl, p 109.
- (١٠٥) الشناوي، ج ٤، ص ١٨٧٤.
- (١٠٦) Castellan, Historie, p 362 وقارن بـ Süssheim، مرجع سابق ص ٤٥٥، إن تاريخ صدور الملحمة هو عام ١٨٩٨.
- (١٠٧) أبو شامي، التصوف، مرجع سابق ص ٢٠٦.
- (١٠٨) Bartl, p 103-105.
- (١٠٩) المرجع السابق ص ١٠٥.
- (١١٠) Irene Melikoff, L'Ordre des Bektashi après 1826, in: *Turcica* 15(1983), p 159.
- (١١١) Logoreci, p 44.
- (١١٢) نقلأ عن المرجع السابق ص ٤٤.
- (١١٣) Stavrianos, p 505 نقلأ عن:
- (١١٤) Logoreci, p 44 نقلأ عن:
- (١١٥) كان يُعرف في الآستانة باسم «شمس الدين».
- (١١٦) Faensen, p 42؛ وقارن بـ Shaw II, p 253 أنظر:
- (١١٧) Skendi, p 140; Shaw II, pp 253-254.
- (١١٨) Shaw II, pp 253-254.
- (١١٩) Faensen, pp 43-44; Castellan, p 362.
- (١٢٠) Skendi, p 120 نقلأ عن:
- (١٢١) Logoreci, pp 42-43.
- (١٢٢) Skendi, p 55.
- (١٢٣) Pollo/Puto, Histoire , p 134.
- (١٢٤) Skendi, p 51.
- (١٢٥) «Il est difficile de prévoir le résultat de l'insurrection; quoi qu'il en soit, l'Europe aura bientôt, sans aucun doute, une nouvelle question à régler: la question albanaise», cité par Pollo/Puto, p 137.
- (١٢٦) ستر، العلاقات الروسية - العثمانية، «مسألة البحر الأسود والأزمة البلقانية»، مرجع سابق ص ١٧.
- (١٢٧) Castellan, p 361.

- (١٢٨) Pollo/ Puto, p 137.
- (١٢٩) Bartl, p 116.
- (١٣٠) Skendi, p 39.
- (١٣١) أنظر «المدخل» من الكتاب ص ٢٤ - ٢٥ .
- (١٣٢) Logoreci, p 40.
- (١٣٣) Bartl, p 117.
- (١٣٤) لا يوجد إتفاق بين المؤرخين حول مكان تأسيس هذه اللجنة، في إسطنبول أو في بروزرن، قارن Bartl p 116; Skendi, p 36; Pollo/ Puto, p 138
- (١٣٥) نقلً عن: Bartl, p 117
- (١٣٦) W.N. Medicott, The Congress of Berlin and After 1878-1880, London 1938 : أنظر
- (١٣٧) Bartl, p 118.
- (١٣٨) Carl Ritter von Sax, Geschichte des Machtverfalls der Türkei, op. cit., p 464; Bartl, p 118.
- (١٣٩) Skendi, pp 69-71, 78-79.
- (١٤٠) Sax, p 464.
- (١٤١) Faensen , Die albanische Nationalbewegung, p 4; Schmidt-Neke, p 32.
- (١٤٢) William Langer, European Alliances and Alignments 1871-1890, New York 1966, p 203.
- (١٤٣) Skendi, p 38, 88.
- (١٤٤) Castellan, p 361; Skendi, p 38,88; Stavrianos, p 503.
- (١٤٥) Bartl, p 120.
- (١٤٦) Pollo/Puto, p 137.
- (١٤٧) Stavrianos, pp 503-505.
- (١٤٨) Bartl, pp 118-119.
- (١٤٩) نقلً عن: Bartl, p 119
- (١٥٠) نقلً عن: Logoreci, p 40
- (١٥١) نقلً عن: Skendi, pp 44-45 . ويرى المؤرخ المذكور في صفحة ٤٦ ، أن تطرق لجنة سكودرا إلى نهر بوابيانا كان للتأكيد على أن Albania تمتد شمالاً حتى ذلك المجرى المائي .
- (١٥٢) أنظر فوق: ص ٢٥ .
- قارن بملحق رقم (١٨) حول مساحة الأرضي الألبانية قبل معاهدة برلين وبعدها.

«Il n'y a pas de nationalité albanaise», cité par Castellan, *Histoire des Balkans*, p 361. (١٥٣) نقلً عن :
Balkans, p 361.

Skendi, p 460; Bartl, p 116. (١٥٤)

Bartl, p 120 : نقلً عن : (١٥٥)

Stavrianos, p 504 : نقلً عن : (١٥٦)

. أُنْظَرْ فوْقَهُ ص ٢٥ . (١٥٧)

. الشناوي، ج ٤، ص ١٨٧٥ . (١٥٨)

F.O. 424/74, *Layard to Salisbury, secret, no. 853, Constantinople 22.9.1878.* (١٥٩)

F.O. 424/118, *Green to Granville, no. 100, Scutari 27.8.1880; conf. no. 101, Scutari 30.8.1880.* (١٦٠)

«... he (the Sultan) would rather lose his throne than one inch of the Albania», F.O. (١٦١)
424/100, *Reede to Granville, Corfu 6.7.1880.*

Skendi, p 56. (١٦٢)

. المرجع السابق ص ٤٧ . (١٦٣)

Skendi, p 56. (١٦٤)

. الشناوي، ج ٤، ص ١٨٧٨ . (١٦٥)

Sax, op. cit., p 465 . وفي هذا المعنى كتب القنصل البريطاني في سكودرا إلى وزير الخارجية
البريطانية يقول له «في كل الأحوال، فإن اسم السلطان يذكر لي كمعنى مجرد بكل إحترام
وإجلال. ولكن عندما يقترن بال بشوات والإدارة العثمانية، تصبح اللهجة في غاية الازدراء، إن لم
تكن تحريرية»، أُنْظَرْ :

F.O. 424/118, *Green to Granville, conf., no. 101, Scutari 30.8.1881.*

. الشناوي، ج ٤ ص ١٨٧٨ . (١٦٧)

Ernest Ramsaur, The Bektashi Dervishes and the Young Turks, in: *The Moslem World* (١٦٨)
33(1943), pp 10-11; Bartl, p 105.

Faensen, p 7. (١٦٩)

Sax, p 451; Medicott, pp 352-354. (١٧٠)

William Miller, *The Ottoman Empire and Its Successors 1801-1927, New Impression*, (١٧١)
London 1966, p 403.

Pollo/Puto, *Histoire de l'Albanie*, op. cit., p 143. (١٧٢)

Sax, p 467; Pollo/Puto, p 143. (١٧٣)

أطلق على هذا الحل «تسوية كورتي»، نسبة إلى سفير إيطاليا في العاصمة العثمانية، الذي
Sax, p 466; Miller, op. cit., p 404; Medicott, pp 353-354. . إقتراحه . (١٧٤)

وفي عام ١٨٨٩ نقل وايت، سفير بريطانيا في الآستانة، عن السلطان عبد الحميد قوله «... إن الأتراك لا يتطلعون اليوم إلى المصالح الإمبريالية، بل إلى الإسلامية ويعتبرون شبه جزيرة البلقان ضائعة بالنسبة إليهم»، F.O. 78/4201, *White to Salisbury, political, no. 4, Constantinople*, 4.I.1889.

Miller, p 404.

(١٧٦)

Sax, p 466 (١٧٧) نقلًا عن:

Bartl, pp 126-127.

(١٧٨)

Pollo/Puto, p 144.

(١٧٩)

Skendi, p 66 (١٨٠) نقلًا عن:

(١٨١) نقلًا عن مصطفى كامل، المسألة الشرقية، مصر ١٨٩٨، ص ١٩٦.

(١٨٢) المرجع السابق ص ١٩٦.

Bartl, pp 123-124.

(١٨٣)

(١٨٤) مصطفى كامل، مرجع سابق ص ١٩٥-١٩٦.

Bartl, p 125f.

(١٨٥)

Skendi, pp 72-73, 78-79; Ramsaur, *The Bektashi Dervishes*, op. cit., pp 10-11.

(١٨٦)

Skendi, pp 73-74.

(١٨٧)

(١٨٨) البلاسجي (Pelasgi) هو إسم أطلق على شعوب اليونان القديمة التي عاشت قبل القرن الثاني عشر ق.م. وأثناء القرن التاسع عشر الميلادي، راجت نظريات عديدة تقول إن الألبانين هم بلاسجي الأصل، وذلك استناداً إلى أن اللغات الهندوأوروبية القديمة كاليونانية واللاتينية والإيلرية والتي ارتبطت بها اللغة الألبانية القديمة لها أصول في لغات سكان شبه جزيرة البلقان القدماء، وحضور البحر المتوسط، أي لغة البلاسجي،

أنظر: The New Encyclopaedia Britannica, 15th ed., vol. VII, Chicago 1984, p 838;

Skendi, pp 114-115

وحول دخول هذه النظريه لمصلحة إيليرية اللغة الألبانية، أنظر:

Logoreci, p 45.

(١٨٩)

Skendi, p 85.

(١٩٠) مصطفى كامل، مرجع سابق ص ١٩٧-٢٠١؛

Bartl, p 127.

(١٩١)

(١٩٢) كامل، المسألة الشرقية، مرجع سابق ص ١٩٧.

Castellan, p 362; Pollo/Puto, pp 149-150.

(١٩٣)

Pollo/Puto, pp 149-150; Bartl, 128.

(١٩٤)

- (١٩٥) Skendi, p 96.
- (١٩٦) نقلًا عن المرجع السابق ص ٩٩.
- (١٩٧) Bartl, p 144.
- (١٩٨) Pollo/Puto, pp 149ff.
- (١٩٩) Miller, p 406; Skendi, pp 105-107.
- (٢٠٠) لا يوجد موقف موحد للمؤرخين تجاه إمكانية اعتبار ثورة إسكندر بك أول حركة وطنية ألبانية للتحرر من الحكم العثماني. حول هذه المسألة، انظر الشناوي، ج ٤، ص ١٨٥٢-١٨٥٦.
- (٢٠١) Fadyeyeva, Ofitsial'niye doktrini I idyeologii v politikye Osmanskoy Impyerii, op. cit., p 137.



استنتاج

لم يكن بإمكان مشاهدة هذا السيناريو من تحرّكات «القوميات الإسلامية» في السلطنة العثمانية لإقامة كيانات لحسابها لولا الحرب الروسية- العثمانية ونتائجها. فخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، شهدت الأطراف هنا وهناك اضطرابات وانتفاضات إبان ضعف المركز (الدولة العثمانية) شارك فيها المسلمين دون أن تطرح بجدية مشاريع إقامة كيانات مستقلة. وحتى محاولة محمد علي، والي مصر، إقامة دولة موحدة من مصر وبلاط الشام، تبقى حركة نخبوية لشخصية عثمانية (والـ) ولا يمكن وبالتالي اعتبارها حركة إسلامية، بسبب نزعته العلمانية ومعارضه الشعب والقاعدة الإسلامية مشروعه الانفصالي. فمن بلاط الشام إلى ألبانيا، كانت هناك قواسم مشتركة وراء تحرّكات «القوميات الإسلامية»: الاحتجاج على فساد الإدارة العثمانية والمطالبة بإصلاحات تُبرز الهوية المحلية. وقد عجل بظهورها وتزامنها الإحساس بالخطر الأجنبي واحتمال انهيار السلطنة وتقاسم ممتلكاتها بين الدول الاستعمارية.

وفيما سُكّنت معاهدة برلين من مخاوف السوريين على مصير منطقتهم، وأدت وبالتالي إلى تلاشي حركة الأعيان والعودة مجددًا إلى التشبّث بـ«الرابطة العثمانية»، فجرت المعاهدة المذكورة، على عكس ذلك، الاتجاهات الاستقلالية في كردستان وألبانيا وكانت نقطة تحول بالنسبة إلى المنطقة الأخيرة. فالخوف من كيان أرمني مستقل في شرق الأناضول تحت الحماية البريطانية وويلات الحرب، جعل الزعيم الكردي عبيد الله يسارع إلى التعبير عن الهوية المحلية في صيغة انتفاضة لإنشاء كيان خاص تحت زمامته. كذلك، فإن افتتاح معاهدة برلين أراضي ألبانيا لمصلحة إعادة تشكيل الكيانات المسيحية المجاورة في البلقان، كان وراء انبعاث النزعة القومية في ألبانيا. وفي كل الحالات، ما عدا الحجاز، كان الخطر الخارجي واضطراب الأوضاع الاجتماعية - الاقتصادية وتضارب المصالح الحيوية لـ«القوميات الإسلامية» مع تلك للطوائف غير الإسلامية (= الدول الغربية) محرّكات رئيسية مباشرة لتلك «القوميات».

وباستثناء ألبانيا، فإننا لا نجد في تحركات «القوميات الإسلامية» معانٍ ليقطة قومية. وعلى الرغم من ذلك، فإن ردود الفعل الإسلامية وتزامنها شكلت في نظرنا وعيًا من الداخل تجاه الخارج. ولماذا نفي صفة «اليقظة القومية» عن تلك التحركات؟

عندما خطط الأعيان المسلمين في بلاد الشام لكيانية سورية في معرض مواجهتهم الاحتمالات الخطيرة التي قد تتعرض مصير بلد़هم، فإن وعيهم «الوطني» تحرك في إطار ثقافة إسلامية وتجربة تاريخية إسلامية ووعي بالانتماء إلى دولة إسلامية. لقد فهم مسلمو بلاد الشام «الوطن» على أنه «دار الإسلام»، أي الدولة العثمانية^(١). وعدا ذلك، فإن «الهوية الوطنية» (الوطن السوري)، لم تصل عندهم أثناء مرحلة البحث إلى مستوى النضج للتقدم على «الهوية الدينية» (= الرابطة العثمانية).

وبالرغم من أن أشراف مكة قد انخرطوا في مشروع بريطانيا الهدف إلى القضاء على الخلافة الإسلامية (العثمانية) لأسباب سياسية وإستراتيجية وإحلال «خلافة عربية» محلها بزعامتهم، أي إنشاء دولة عربية، فإن المجتمع البدوي الحجازي وفي ضوء التطور الثقافي المعروف هناك والعلاقات الاجتماعية السائدة وغياب قوى اجتماعية قادرة على القيام بالتغيير، كان غير قادر، نظرياً وعملياً، على إدراك مفهوم دولة/وطن. فالطبيعة الصحراوية وال العلاقات البدوية، حالت دون قيام فكرة «وطن» و«قومية»، وإن مساعي التُّخُب الحجازية لإقامة دولة عربية تدعى الخلافة الإسلامية استناداً إلى عصبية عرقية (قريش) ليس دليلاً وعي قومي. وليس أدلة على ذلك من أن الشريف حسين كان على استعداد لاستبدال هيمنة بريطانية بالحكم العثماني.

وإسوة بالحجاز، لا نجد في كردستان المجتمع القبلي - الإقطاعي أدلة على وجود نضج وطني يصب في مصلحة «يقظة قومية»، بالرغم من أن المسألة الأرمنية كانت تستطيع أن توفر مثل هذا الوعي. صحيح إن خطاب الشيخ عبيد الله حمل معه مصطلحي «الأمة» و«الوطن»، إلا أنه وبسبب البنى العشائرية - الإقطاعية والخصومات القبلية في كردستان وتشذُّم الأكراد بين الدولة العثمانية وفارس واستغلالهم من قبل الدولتين أو تعرضهم لضغطهما، ظلَّ صرخة في وادٍ. وهذه العوامل ساهمت في جعل الأكراد شعباً لا دولة له^(٢). فمعظم تحركاتهم ضد الأرمن كان لأجل السلب والنهب وليس بدافع وعي قومي^(٣).

وبعد ثورته الأولى ضد السلطنة عام ١٨٧٩، كان كل شيء يدل على أن الشيخ عبيد الله سيوجه ضربته التالية ضد الدولة العثمانية وفارس ليوحد كردستان كاملة تحت زمامته. لكن «تعديل اللحظة الأخيرة» وتوجيهه الأكراد ضد فارس، سواء بإيعاز عثماني

أو عكس ذلك، دلّ على أن الرابط المذهبي مع السلطة كان أقوى من العامل القومي. فأثناء مؤتمر شمدينان عام ١٨٨٠ الذي جمع أمراء وشيوخ العشائر وألاعوات ورجال الدين من الأكراد، تغلبت المشاعر المذهبية على المشاعر القومية واضطرب الشيخ عبيد الله أن يبدأ مشروع «دولته» بهجوم على فارس يسبق تحرير كردستان العثمانية. ولا يعني هذا الهجوم أن المشاعر القومية عند هؤلاء كانت هاجسهم. فالقهر الذي تعرض له الأكراد على يد فارس والتناقر المذهبي بينهم وبينها، كانا برأينا عاملان رئيسيان في تحركهم ضدها. فأثناء الهجوم على كردستان الفارسية، أُعلن الإمام جمعة (كردي) في مهاباد «الجهاد» على الشيعة الفرس، وقام الأكراد بقتل نحو ثلاثة آلاف شيعي في ميان زوهاب^(٤)، مما عكس تعصباً مذهبياً - قبلياً وأضعف اتجاهات الأكراد للاستقلال الوطني. وفي مراحل الثورة الأخيرة، تحول الأكراد أثناء انسحابهم من فارس إلى السلب والنهب غير مكتفين بشعارات الاستقلال التي أطلقها الشيخ عبيد الله^(٥).

ولا نجد في ثورة عبيد الله حركة جماهيرية من حيث القيادة وتركيب أجهزتها مظهراً يدل على تربية قومية. كما لا نجد وسائل للتعبير عن المشاعر القومية (صحافة، جمعيات، منظمات الخ...) ولا وعيَاً قومياً لدى القيادات العشائرية الإقطاعية. لم تكن لثورة الشيخ عبيد الله قاعدة جماهيرية منتظمة، وأوضح دليل على ذلك تلاشي الثورة الكردية بعده.

ورغم خطابه «القومي» الفريد، فلا نجد لدى الشيخ عبيد الله نفسه فهماً قومياً. فـ«جامعة العشائر الكردية» التي انبثقت عن «مؤتمر شمدينان»، لم تقم على أساس وطنية أو قومية، ولم تطرح ثقافة من هذا اللون، في وقت ساد فيه التحاسد والخصومة بين الأكراد، وتعثر التفاهم فيما بينهم بسبب البلبلة اللغوية^(٦). وقد جاءت تحالفات الشيخ على أساس عشائرية من خلال روابط المصاهرة والقرابة والصدقة والمواثيق. وعندما كان يريد أن يجمع المقاتلين حوله، لم يكن يخاطبهم من خلال برنامج وطني، بل كان يستخدم الترغيب والتهديد والإكراه^(٧).

وخلال ثورته الأولى عام ١٨٧٩، أظهر الشيخ عبيد الله مصالح شخصية تغلبت على الأهداف الوطنية. كان على استعداد أن يقبل بإماراة بزعامته تدفع الجزية للسلطان العثماني، أي العودة إلى حالة الإمارات الكردية ما قبل عام ١٨٤٧^(٨). ولهذا، لا يمكن أن نصف ثورة الشيخ عبيد الله، بالرغم من خطابه السياسي الفريد، على أنها «ثورة قومية بالمفهوم الحديث» على حد قول أحد الباحثين^(٩)، ولا أنها كانت «تحول» نحو «القومية». فأهداف الثورة تلك لا تختلف أساساً عن الثورات التي حدثت في

النصف الأول من القرن التاسع عشر. لكن الاختلاف بين هذه وتلك أن شيئاً (رجل دين) حل محل «الأمير» في قيادة الأكراد، فاتحاً بذلك الطريق أمام صعود الزعامات الدينية في المجتمع الكردستاني.

كذلك، فإن انخراط الأكراد في «الأفواج الحميدية» لا يدل على غلبة «الهوية الوطنية» على «الهوية الدينية». كان السلطان عبد الحميد يخشى من أن تعاون الحركتان الكردية والأرمنية معاً في ظروف معينة وتسبيان تقسيماً حقيقياً لدولته، فرأى أن يفسد فيما بينهما. فمن خلال «الأفواج الحميدية»، تمكّن من استرضاء القيادات العشائرية - الإقطاعية الكردية بشتى وسائل الترغيب⁽¹⁰⁾ ومن امتصاص «القومية الكردية» وجعلها تصب في إطار إسلامي إتجاهه لمناهضة القومية الأرمنية. ولهذا السبب، لا نلمس وعيّاً قومياً كردياً إلا بعد سقوط السلطان عبد الحميد. وفي كل الحالات، كانت «وعيّاً قومياً» في المهجر (الاستانة)، ولم تصل رياحه إلى كردستان⁽¹¹⁾.

وفيما دفعت التنظيمات العثمانية مسلمي بلاد الشام في اتجاه إسلامي خوفاً على مصالحهم وثقافتهم وتقاليدهم من تيارات العلمنة والتغريب، غابت «التنظيمات» وبسط الدولة العثمانية سلطتها المركزية على كردستان دور الزعامات المدنية الكردية وأفسحت في المجال أمام ظهور الزعامات الدينية. وعلى عكس بلاد الشام، أدت «التنظيمات» إلى بروز الاتجاهات القومية في «ألانيا» بعدما اعتبر الألبانيون تلك الإصلاحات بمثابة «إعادة فتح» لبلادهم⁽¹²⁾: إبقاء الدولة العثمانية على طوائفية التعليم، بالرغم مرسوم التعليم لعام ١٨٤٥، وتغييب دور اللغة القومية وجعل الخدمة العسكرية للمسلمين أطول من السابق وتحميل المسيحيين أعباء جزية أثقل.

وفيما لا نلحظ تربية وطنية لدى «قوميات» السلطنة الإسلامية ولا وسائل للتعبير عن الهوية المحلية إلا في إطار ثقافة ووعي تاريخي إسلامي (= عثماني)، مهد التطور الثقافي والاجتماعي والاقتصادي في ألانيا منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى قيام حركة ثقافية البناء وطنية شكلت الوعاء الضروري لتحرك الألبانيين قومياً أثناء الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨) وفي أعقابها. صحيح، إن «إنبعاث القومية الألبانية» يعود مباشرة إلى عامل خارجي (الحرب الروسية - العثمانية)، لكن الحركة الثقافية والتطور الاجتماعي - الاقتصادي وفرّا مقومات إنجاح هذا التحرك، عندما أتت المشكلة من الخارج تهدّد الداخل ووحدة التراب الألباني.

وتكمّن أهمية الحركة القومية الألبانية أن غالبية الألبانيين تكلموا لأول مرة بصوت واحد، رغم تعدد أديانهم ومناطقهم الجغرافية والإدارية، راضفين أن يظلوا مجرد تعبير

جغرافي. ولهذا السبب رفضوا البقاء تحت السيادة العثمانية المباشرة بعدما حصلت الكيانات المسيحية المجاورة على استقلالها. وفي الوقت نفسه، كان من الصعب على المسلمين الألبانين الانسلاخ التام عن الدولة العثمانية بسبب حاجتهم إلى هذه «المظلة الإسلامية» في محيطهم المسيحي - السلافي المعادي. إن موافقتهم على البقاء تحت السيادة العثمانية بادئ الأمر (استقلال ذاتي) تدل على وعي إستراتيجي تجاه هذا المحيط، قبل أن يكون تجسيداً للرابطة العثمانية.

ويتجلى المنحى القومي للألبانين في مذكراتهم ورسائلهم إلى الدول الكبرى والباب العالي التي رفضت «أسلفتهم» (جعلهم سلافاً) أو «تربيتهم». لقد تكلمت كل لجان «عصبة الألبانية» عن توحيد ألبانيا وعن استقلالها وعن شخصيتها القومية وعن التاريخ المشترك والمصير المشترك.

لقد كان الحضور الإسلامي كثيفاً في اليقظة القومية الألبانية. فالمسلمون كانوا فكراً وقيادة وجماهير في مقدمة الحركة الوطنية الألبانية. وبالرغم من وجود المسلمين المحافظين بكثرة في العصبة الألبانية وتعاطفهم مع الدولة العثمانية، إلا أن التيار «الوطني» الإسلامي فيها استطاع أن يفرض مبادئه وحتى أن يعلن حكومته المؤقتة. أما لماذا اختلف «إسلام» الألبانين عن «إسلام» سكان بلاد الشام ولماذا سعى الأولون إلى الاستقلال الذاتي وأصرروا عليه، فيما تمسك الآخرون بالرابطة العثمانية؟ إن هذا يعود برأينا إلى أن الخطر الخارجي على ألبانيا كان داهماً أكثر منه في بلاد الشام، وأن الدولة العثمانية أظهرت في سياستها الألبانية تخاذلاً ضد مصالح ألبانيا القومية. وأخيراً، لأن الثقافة التي نهل منها مسلمو ألبانيا بتأثير الطريقة البكتاشية كانت وطنية أكثر منها إسلامية. ولعل أوضح مثال على ذلك، محاولة الألبانين إحياء لغتهم الخاصة والتخلص عن الحرف العربي (الإسلامي). وفي غياب عقيدة دينية واحدة موحدة لكل الألبانين، كانت اللغة الألبانية ذات الحروف اللاتينية أفضل وسيلة ناجحة لإقامة روابط بين المسلمين وبين الجماعات الدينية المتعددة في البلاد وبالتالي خلق ثقافة قومية مشتركة.

أما لماذا هذا الرفض الأوروبي لكيان ألباني؟ إن كون ألبانيا ذات أكثريية إسلامية أفقدتها حلفاء في محيطها المسيحي. وهذا بحد ذاته دليل واضح على حضور العامل الديني بقوة في المسألة الشرقية. ففي عام ١٩٠٣ كتب جون مورلي (John Morely) خلال تعريفه «المسألة الشرقية» يقول : «... إن جذور المسألة الشرقية... هي وجود الأثراك العثمانيين في أوروبا... وسيطرتهم كمسلمين أسياد على شعوب مسيحية»^(١٢). إن تورط بريطانيا في مشروع فصل العرب عن الدولة العثمانية يدل على أنها أدركت

في فترة مبكرة فوائد القضاء على الخلافة العثمانية تحقيقاً لمصالحها الإمبريالية، وإن ما قام به لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى كان استكمالاً للمخطط الذي بدأه زوهراب. كما يدل مشروع زوهراب على أن الحجاز (= طريق السويس - البحر الأحمر - الهند) وليس «سوريا» كان موضع اهتمام بريطانيا، وأن احتلالها لمصر عام ١٨٨٢ كان تجسيداً لهذه الاستراتيجية. وفي هذا المعنى، فإن دعوة زوهراب حكومته عامي ١٨٨٠ و ١٨٨٩ لإعلان حمايتها على خلافة عربية في الحجاز، كانت تصب في مصلحة هذه الاستراتيجية.

إذا كان السلطان العثماني أو حاشيته مسؤولين عن مقتل الشريف حسين، فهل يعود سبب الاغتيال إلى البعثة التي كان يحضرها الشريف المذكور للذهاب إلى أفغانستان ووسط آسيا دعماً لبريطانيا ضد روسيا، في وقت كانت فيه علاقات السلطنة مع الدولة الأولى سيئة للغاية، أم أن السبب يكمن في تحركات بريطانيا لتنصيب الشريف حسين خليفة على المسلمين في مكانة تحت حمايتها؟ إن كلا الاحتمالين يبقىان قائمين. فبعثة أفغانستان، كانت بمبادرة شخصية من الشريف المغدور وللتقارب من بريطانيا وبمباركة منها، وكانت تعني توسيع الشريف حسين نفوذه الدينية - السياسي خارج الحجاز، مما يرفع سمعته في العالم الإسلامي ويوهله للعب دور دبلوماسي - سياسي - دولي في الصراع البريطاني - الروسي في تلك المنطقة الإسلامية يسبق دور السلطان - الخليفة، بل يغطيه. وفي حال قيام دولة عربية في الحجاز يمتد نفوذها إلى بلاد الشام والعراق، فماذا يبقى من مقوله «السلطان - الخليفة»؟ كيف سيتمكن عبد الحميد الثاني من الادعاء بالخلافة الإسلامية فيما الأماكن المقدسة للإسلام وطرق الحج إليها ليست تحت إشرافه؟ وتذكر إحدى الوثائق البريطانية أن السلطان عبد الحميد كان على استعداد للقبول بأي شيء على أن يفقد الإشراف على الأماكن المقدسة في الحجاز^(١٤).

إن اغتيال الشريف حسين وإزاحة مدحت باشا عن السلطة في ولاية سوريا في وقت واحد تقريباً، يدلان على مساعي السلطان المستمية للدفاع عن حقوقه «ـ السلطان - الخليفة». لم يكن مشروع الأعيان المسلمين في بلاد الشام للاستقلال الذاتي ولا الشائعات عن «خديوية سوريا» برئاسة مدحت باشا ما يخشاه السلطان، بل ما كان يحاك من مشاريع أجنبية تجاه ما تبقى من ممتلكاته. فالأعيان المسلمون أنفسهم كانت لديهم مخاوف «على مصير بلددهم» من الاستعمار الأجنبي. كما عكست رسائل يوسف كرم إلى الأمير عبد القادر الجزائري الخشية من احتفال «... تجزئة الديار العربية...» بين بريطانيا وفرنسا^(١٥). وحتى مدحت باشا حذر الباب العالي في تقرير له لعام ١٨٧٩ عن أحوال سوريا من تدخل بريطانيا وفرنسا في سوريا من خلال طوائفها الدينية^(١٦).

إن الخوف على مسلمي السلطنة من المؤثرات الخارجية هو الذي جعل السلطان عبد الحميد يعمل على حقن ما تسرب إلى الفكر الإسلامي من «بكتيريا القومية» بـ«مضادات» الجامعة الإسلامية. ولهذا السبب، ظل الإسلام طوال عصر السلطان عبد الحميد متقدماً على القومية. ولكن عندما بدأت القومية التركية تُطرح في سياسة الاتحاد والترقي بعد سقوط عبد الحميد، أخذت «القومية الإسلامية» تطل برأسها. فانتشرت وسائل التعبير القومي الكردي في شكل منظمات ووسائل إعلام، وأعلنت ألبانيا استقلالها في عام ١٩١٢. وبعد ثلاث سنوات على ذلك التاريخ، ثار شريف مكة حسين بن علي مدعوماً من الإنكليز معلنًا بذلك نهاية «الرابطة الإسلامية» بين العرب والعثمانيين.

حواشی الاستنتاج

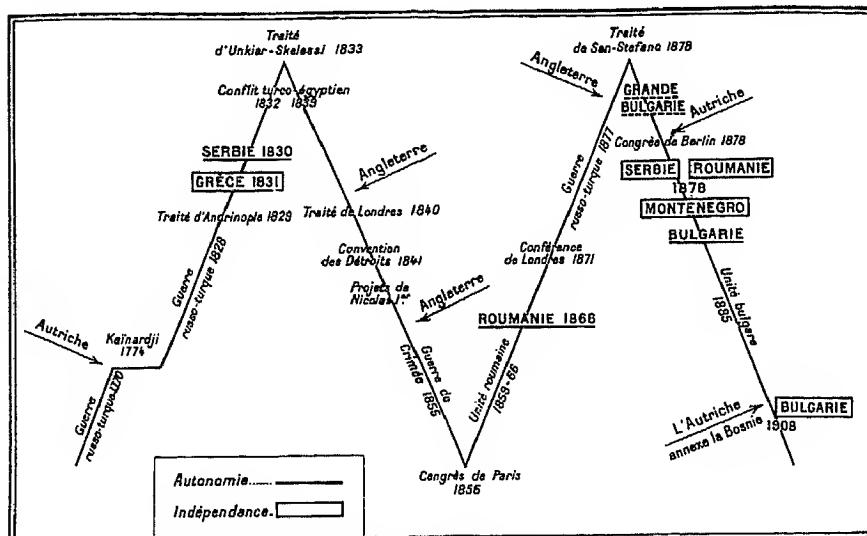
- (١) Samra, Pan-Islamism, op. cit., p 17.
- (٢) Chabry, Politique et minorités ou Proche-Orient, op. cit., pp 254-255.
- (٣) «ثمرات الفتون» عدد ١٩١ تاريخ ١٨٧٨/١٠/١٧، وجليل وأخرون، الحركة الكردية، مرجع سابق ص ٤٥.
- (٤) Martin van Bruinessen, Agha, Shaikh and State. The Social and Political Structures of Kurdistan, London/New Jersey 1992, p 250.
- (٥) جليل وأخرون، الحركة الكردية ص ٣٧.
- (٦) غسان سلامة، المجتمع والدولة في المشرق العربي، مرجع سابق ص ٧٦-٧٧.
- (٧) Behrendt, p 220.
- (٨) المرجع السابق ص ٢٢٠.
- (٩) حامد عيسى، المشكلة الكردية ص ١٦.
- (١٠) جليل وأخرون، الحركة الكردية ص ٤٣.
- (١١) Bruinessen, op. cit., pp 276-277.
- (١٢) انظر المرجع في حاشية (٤١) من الفصل الخامس.
- (١٣) نقلًا عن زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولي سوريا ولبنان، بيروت ١٩٧١، ص ٢٢.
- (١٤) F.O. 424/203, Richards to O'Conor, no. 98, Damascus 19.11.1902.
- (١٥) سمعان الخازن، يوسف بك كرم في المنفى، ص ٣٤٦.
- (١٦) عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، مرجع سابق ص ٣٥٢.

الملاحق



ملحق رقم (١) : تقلب النفوذ الروسي في الشرق . نقاً عن : Paul Haury, Expose simple et clair de la question d'Orient, 1770-1915, 2.em. ed.

Paris 1923



L'ACTION RUSSSE EN ORIENT ET L'ÉMANCIPATION DES NATIONS GORÉTIENNES DANS LES BALKANS.

- Ce graphique est destiné à montrer :
- Les rapports et les vicissitudes de l'influence russe en Orient;
 - Les antagonismes anglo-russe et austro-russe;
 - La formation successive des Etats balkaniques.

ملحق رقم (٢) : قاضي الناصرة يصف اعلان السلطان عبد المجيد حول حرية المعتقد في السلطنة العثمانية بأنه «كلام تحريف». المرجع BPP/69, *Finn to Malmesbury, no. 29. Jerusalem 22.6.1858, inclosure. no.*

2, Vice-Consul Rogers to Finn, Caiffa 18.6.1858.

Inclosure 2 in No. 29.

Vice-Consul Rogers to Consul Finn.

(Extract.)

Caiffa, June 18, 1858.

LAST week I went to Nazareth, and during my stay there I met the Cadi, Sheikh Emeen, at the house of a friend; there were also present some of the principal Christian inhabitants of Nazareth, and one named Elias-es-Saffori, from Kel' Kenna, a Protestant, at whose house occasional evening meetings are held for reading the Scriptures, and amongst the attendants at the said meetings is a Moslem of the village.

The Cadi, in my presence asked Elias-es-Saffori with what authority he sought to pervert the Moslems, and why he allowed a Moslem to attend his prayer-meetings. He answered that his doors were open for any that chose to come at their own discretion; that he could not force any to come, nor would he turn any away.

The Cadi then used some strong threatening language in order to intimidate Elias-es-Saffori, saying, that any Moslem who should become a Christian would be murdered according to the tenets of the holy law, and he who perverted him would bear the responsibility.

I then interposed, saying that I had no knowledge of the merits of this case, nor did I feel justified in instituting an inquiry at present, but reminded the Cadi that His Majesty the Sultan had issued a firman, granting full liberty of conscience to all his subjects, by virtue of which firman any who from conviction wished to change his religion might do so without constraint.

The Cadi answered, disdainfully, "The Sultan eats melons," which is a vulgar expression, meaning that the Sultan talks impotently or talks nonsense.

I remonstrated, at which the Cadi repeated his remark, adding that His Majesty's officers and subjects are only bound to obey him so long as his orders are in conformity with the law.

I told the Cadi that I should report the circumstance, and have done so for your information.

ملحق رقم (٣) : تقرير لسكنين، قنصل بريطانيا في حلب، حول رغبة المسلمين في شمال سوريا في التخلص من الحكم العثماني وإنشاء دولة عربية مستقلة برئاسة أشراف مكة. المرجع
BPP/69, Skene to Malmesbury, no. 43, Aleppo 7.8.1858, inclosure in no. 43,
Skene to Finn, Aleppo 31.7.1858.

Inclosure in No. 43.

Consul Skene to Mr. Alison.

Sir,

Aleppo, July 31, 1858.

I HAVE the honour to report to you that some excitement has existed in this town during the last ten days. Intelligence of the outbreak in the Island of Crete and the massacre at Jeddah, which arrived here during the festivities of the Courban Bairam, and instigation on the part of one or two of the leading Mussulman inhabitants, who considered themselves aggrieved in their private interests by the local government, raised a feeling of hostility between the Christian and Mahometan classes of the population, and a seditious spirit against the constituted authorities. Fire-arms and ammunition were hurriedly purchased wherever they could be found. Young men of doubtful character were seen assembling in the streets. One of these, a Greek Catholic, by name Butros Tawil, appeared in the bazaar, fully armed, and loudly called on the Christians to attack the Mussulmans. Some of the latter secretly announced to respectable European families, with whom they were on friendly terms, that a general massacre was about to commence, and advised them to take refuge in places of safety, if any such could be found. Great apprehensions were thus entertained. The civil and military Pashas, meanwhile, were taking all possible means of securing the tranquillity of the town. Butros Tawil was arrested, and is now under sentence of banishment. The sale of arms and ammunition was prohibited. The town was patrolled by 600 soldiers in 12 detachments of 50 each, under the command of field officers. The principal inhabitants of the different quarters were assembled and ordered to do their utmost to keep the townspeople in their neighbourhood quiet. These measures proved perfectly successful, and all alarm has for the present subsided.

It is worthy of remark that the hatred felt by the Arab population of this part of Syria for Turkish troops and officials in general, whom they regard as degenerate Mahometans, is little less violent than their fanaticism against the Christians. The garrison of Aleppo is only 2,000 strong. Were a serious insurrection to take place, this force would be altogether unable to quell it, each Turkish soldier having about thirty Arabs arrayed against him, all more or less inured to the use of arms, and looking upon him as a national enemy. The insurgents, moreover, might not be without the advantage of military organization, as it is said that the survivors of the Janissaries, who numbered no less than 25,000 affiliated in Aleppo when that corporation was suppressed in 1826, have kept up some species of secret union amongst themselves. The recent incidents, reported above, have given rise to much talking on these subjects, from which it would also appear that the Mussulman population of northern Syria harbours hopes of a separation from the Ottoman Empire and the formation of a new Arabian State, under the Sovereignty of the Shereefs of Mecca. However this may be, it is certainly desirable that the garrison of Aleppo should be augmented without loss of time, more especially as the consequences of the massacre at Jeddah will in all probability soon furnish a motive and opportunity for a dangerous ebullition of Mussulman fanaticism.

I have, &c.
(Signed) J. H. SKENE.

ملحق رقم (٤): رسالة من إيلدرidge إلى ساليزبوري حول رغبة السوريين، مسلمين
ومسيحيين، في أن تفرض بريطانيا حمايتها على بلادهم /
F.O. 78/ 2848, Eldridge to Salisbury, political no. 57, Alieh
18.7.1878.

No 57

Heik

Political

July 18th 1878

Cpy sent
to
Embassy

My Lord,

With reference to my despatch
No 55 of the 11th instant, —
transmitting a copy of my No 66
to Her Majesty's Ambassador —
reporting on the effect produced
at Beyrouth by the reports of an
English occupation of Cyprus,
I have the honor to inform Your
Lordship that I have since
the Right Honorable received
the Marquis of Salisbury.

received information from Latakia
and some other places in Syria
where the feeling produced by
this event, is, like at Beyrouth,
one of general satisfaction —
amongst the Christians though with
the same regret that the occupation
has not been extended to Syria,
and this feeling is shared by
many of the native Muhammadans.

I fear that (since it is reported
by telegraph that the Congress
at Berlin has terminated its
labours by a general Treaty)
it may be only temporary and
the disappointment will be great
in Syria if the forces of Her
Majesty are withdrawn from
the Island which will put an
end to the hopes entertained that
some day the benefits of British
rule may be extended to the
mainland where the disorganization
of the administration is

Consequence
of fear

ملحق رقم (٥): رسالة من القنصل زوهراب إلى ساليزبوري بشأن استعداد الشريف حسين لخدمة بريطانيا ومصالحها في المسألة الأفغانية وأية مسائل أخرى، وإيمان الشريف بعدلة الحكم البريطاني للمسلمين.
المرجع: F.O. 78/2988, *Zohrab to Salisbury, secret/conf./*
separate. Jeddah 12.3.1879.

*Not to fly in the
to General Lytton
at Cairo*

Secret and
Confidential
Separate

Her Majesty's Consulate
Icoldale March 12th
1879

My Lord.

The High Sheriff of
Mecca was, under a pledge
of the strictest secrecy, informed
me through my Dragoman,
Yusouf Bey, who returned
from Mecca yesterday, that
prior to the war with
Afghanistan he received a
letter, by special messenger,
from Sheik Ali in which
His Highness was earnestly

To The Right Honorable requested
The Marquis of Salisbury R. G.

1879
London 8 January
Mr Jas Toland
Richard George 10
Bacchus

requested to state in reply whether
seeing the Government of
India ill-used and oppressed
the Indian Mussulmans—
the Mussulmans would
not be justified in taking
up arms against the —
Government; in aid of
Afghanistan. His Highness
saw the object Shah Ali
had in view in seeking
for such a document, and
well knowing that a —
declaration of this kind
emanating from the highest
Mussulman ecclesiastical
Authority, would prove most
mischievous, he refused to
give the opinion; he replied

that, being on the most
friendly terms with England
and feeling convinced that
England was humane and
just in her rule over
Hindoostan, he could not
credit assertions to the
contrary and would not give
an opinion prejudicial to
her interests. The Sultan Haiby
also sent a message to him,
the Ameer, to convey the
disapproval of His Majesty
at the policy of the Amur.
He was bound to bow to
that opinion
His Highness requested me
to inform your Lordship,
always under the strictest

fanaticism. The various
Muhammadan nationalities
are now in close correspondence
with each other and political
events are reported to the
chiefs of all the organization
seems complete and the
union perfect, and restless
spirits are ever moving instead
of plotting to raise complications.
Russia is aware of all this
and she is, through her
Agency, fanning the flame.
His Highness states that he
will be happy to give his
aid to Her Majesty's Government
in any question in which
this sacred position may be

of any use, so long as such
and will not injure
the Sultan. All communication
must, however, be made to
him secretly and must
not be communicated to
any one, by this, I know, he
includes the Turkish
Government.

His Highness says, that though
Shere Ali has fled he has
not retired from the
struggle. He is seeking for
aid and is abiding his
time. and if we cannot
attack, we will endeavour
to raise revolt and foment
discontent. He believes that
Shere Ali's plans could be

counteracted by direct
communication with Yacoub
Khan and other chiefs of
Afghanistan, and should
Her Majesty's ^{Government} enter into His
views, He offers to act as
intermediary, not officially,
but privately and as of His
own accord.

This is the substance of His
Highness' communication to
me; In conveying it, I think
it is my duty to make
its value well understood
to explain what, in the
opinion of Musulmans
is the position of the High
Mufti of Mecca. The Muftiato
whom appointment of which
the Sultan can dispose at

will, it is hereditary, but
as there are two families
who claim the same descent
from the Prophet, the family
of Devi Aun, a member of
which is now Sheriff, and
the family of Devi Zed the
representative of which is at
Constantinople, the Sultan
without any act of usurpation
can remove the member of
one family for a member of
the other, but this power he
would only exercise when
urgently called upon - for
the Sheriff is regarded with
far too great veneration by
all Musselmans and
his deposition, without serious
cause, would most probably
create serious trouble.

ملحق رقم (٦) : زوهراب يبلغ ساليزبورى عن جمعية سرية في مكة غير راضية عن نتائج الحرب الروسية - العثمانية تقوم باتصالات مع القيادات في العالم الإسلامي لازاحة العثمانيين، عن الخلافة الإسلامية. كما أبلغه عن مشروع دولة عربية يجري اعداده، وأنه يتوقع عما قريب حدوث اضطرابات في الحجاز. المرجع : F.O. 78/2988, Zohrab to Salisbury, conf./political, no. 1, Jeddah 6.8.1879.

Yrs/consulate
Jeddah 6th August
1879
Confidential
Political

No, My Lord,

Statements of a serious
nature having reached me ~
from various and disconnected
sources, I deem it my duty
to bring them to Your lordship's
notice. I do not vouch for
their truth, but should they
be true, they prove the
existence of ideas and plans
which may give serious

1879
Salisbury, 6 Augt
Conrad J. Borch
Private

To The most Noble
The Marquess of Salisbury K.C.

trouble in the future.

From a Gentleman who has resided here for some years I hear, that at Mecca there exists a secret society whose object is the removal all Mohammedans from Christian control. This society is in communication with every Musselman community throughout the world, and it has had a good deal to do with the revolt in Algeria. It was not intended that the

revolt should commence
when it did, the plan was
that it should begin there
when the brand of war or
revolt could at the same
time be applied to the other
countries. Similar information
has reached me from
another source.

The society, which is composed
of Molokai Sheiks and
Sheriffs is, I am told, so -
dissatisfied with the result
of the late war with Rupia
that the question of withdrawing
from

from the Sultan the title of Temporal Head of the Mussulman Faith is being seriously discussed.

It is declared that as the Sultan is under the control of the Christians Powers, he can no longer be regarded as independent and cannot and cannot, therefore continue to be the true Representative of the Prophet and the mantle must be laid on other shoulders.

Thus

2nd Street This opinion, it appears,
Confidential had its rise in Damascus
Political and that City was at first
R^o, decided on as the future
seat of the Head of Islam
The Society at Mecca were
averse to this, it was argued
that Damascus being within
easy reach of European
influence, it could not be
a safe home; whereas Medina,
which combined within
itself all requirements —
that is, remoteness from —
Europe, difficulty of access
sacredness

sacredness of the city and
purity of the Mussulman
character, indicated itself
as the natural centre of the
faith. Medina has, though
it is said, been fixed upon.

M^r Kreyt the
Netherlands Consul, who
has many subjects residing
in Mecca has also received
similar information and
and he considers it of
such importance that
to enable him to buy to get

further and more minute details, he is applying to his government for authority to purchase information.

A Turkish Officer with whom I was conversing a few days ago assured me, that the Authority of the Sultan in Arabia was merely nominal and as the Arabs hated the Turks he believed gave no man would shortly take place. He told me that his wife had been warned by

Arab women with whom
she was on terms of intimacy,
that there was a desire
to rid the country of all
Turks, and there probably
would be a massacre. The
time had not yet arrived
for it, but it was fast
approaching. I do not know
whether it was the warning
that influenced this officer,
but he sent his family to
Constantinople about a fortnight ago.

3rd Street I asked Rashid Pasha the
Confidential New Governor General, if he
Political was aware of the feeling
Govt, that existed in this country,
he said he was, and that
there would be grave trouble
in the near future.

I have the honor to call
Your Lordships attention
to my despatch of the
12th March marked "secret
and confidential", as this
despatch is confirmatory of
what I then reported and
will, I think, prove the
sincerity

ملحق رقم (٧): رسالة من الشريف حسين إلى زوهراب حول استعداده لخدمة
المصالح البريطانية في أفغانستان، وأنه سيفعل ذلك ما في وسعه سراً
وعلناً، المرجع F.O. 78/2988, *Letter from Grand Sherif to Zohrab*, 23.12.1879
الموافق في ٣ محرم ١٢٩٧ هـ.

ذر الهمام جنابه من شئون الجباية
ومن فخركم المفتخرون باداره الوارد اليكم من نظارة خا بهيه مكده انكلاء الفطمانى ملا افغانستان ففي المقام ان جل قصتنا وحيثنا
السي ما يرافق صاحبكم ولله انكلاء القبيه ولم تترك على ذلكه باطنها وظاهرها احوال افغانستان في هذه الملح قيصره اهو الافتخار كغيره ولكن
حيث ان النبه الاصالحة لا يوانى الصالوة فنجزوا الله المؤيق وقيصلناكم بالامتنانه والمسرة في الزانه من حسن تعجب به الله القبيه ولهم
ساعويه هنا يكتم صوره هناده من الاخ محمد عجمي

رونه استحسنكم سلام من شئونه ببريمه هندر لاجل
الذكريه في ذكركم نا الاخ محمد عجمي

ملحق رقم (٨) : زوهراب يبلغ سالزيوري عن أن الشريف حسين يريد أن يتفاوض معه شفهياً من خلال وسيط موثوق، وأن مشاعر العداء ضد السلطان العثماني تفاقمت في الحجاز وأن مراجع دينية تطلب من بريطانيا وضع يدها على الأوقاف الإسلامية في الدولة العثمانية، وأخيراً، أن عرباً حجازيين يسعون للحصول على الجنسية البريطانية / F.O. 78
2988 Zohrab to Salisbury, secret/conf./separate, Jeddah
22.12.1879.

Political

secret and
longidential

H. B. M's Consulate

Separate

Jeddah, 22nd December 1879

My Lord,

I have the honor to inclose in
original a letter I have received from
the Grand Sheriff with a translation,
also an unsigned private note from
the same source

This Highness' letter is in answer to
a letter I addressed to him conveying
substance of your Lordships
message contained in despatch R:1

"Secret" "Political" of the 7th of August
a copy of my letter is also inclosed

The Grand Sheriff is evidently

To

The Most Noble

answrs

The Marquis of Salisbury K.G.

x

x

x

14 264

feeling in this Province against the Sultan
and his government is deep rooted and
may soon manifest itself. An Arab
official of high standing told me a few
days ago that the time was probably
very near when England would be asked
by the Ecclesiastical Authorities of the
Reditz to assume the control of all
prior foundations in Turkey (Evkaf)
as the revenues accruing from them
are grossly misappropriated. My reply
was that I hoped matters would shortly
take a favorable turn. I ought to state
also that several influential Arabs
have asked me, if they could become
British Subjects, that if money could
do it they would gladly pay to become
so. This I think is a certain indication
that the feeling in this country is
hostile

hostile to the government.

I send this despatch by the same channel as I did my last secret despatch, as I believe it to be the most speedy and safe manner of sending such communications -

I have the honor to be, with
the greatest respect

My Lord,

Your Lordship's

most obedient

humble servant



ملحق رقم (٩) : الشريف حسين يبلغ سالزبورى عبر زوهرب أن الانقلاب ضد
السلطنة يستوجب الحصول على دعم بريطانيا وحمايتها، وأن سكان
الحجاج يشاركونه موقفه هذا. زوهرب يرى أن فرض بلاده حمايتها
على الحجاج سيجعلها تحصل على نفوذ ثابت على كل المسلمين في
العالم. F.O. 78/3131, Zohrab to Salisbury, secret, Cairo
9.1.1880.

faire,
9th January 1880

My Lord

In a previous despatch from
Jedolah I had the honor to report to
your Lordship that the Grand Sheriff had
secretly written to ask me to send him
a person in whom I could trust as he
wished to give me some information
aware that his Highness placed complete
confidence in my Dragoman Yussuf
Iffendie & sent him to Mecca. He
retired four days before I left
His Highness was much pleased
at my attention to his request My

Most Oble

The Marquis of Salisbury K.B.

de to 17 ^{an} 266

made manifest by the Sultan and his Ministers in signing the Secret Treaty with Russia, and the hostile feeling towards the Porte existing in the Hedjaz bring forward a very serious and at the same time delicate and important question, a solution of which might compel the Ottoman government's honest adhesion to the direction of England, and might give to England a supreme influence over the whole Imperialman world

In the present Grand Sheriff of Mecca England has a faithful and devoted well-wisher and adherent, in the population of the Hedjaz, a people who would regard the protection of England as a blessing; the question

question to be solved consequently is
this, whether it is advisable or
politic to take advantage of the
feeling animating the Grand Sherif
and the disposition of the people
to establish British influence in
the Hedges and by the exercise of
such influence to obtain a certain
control over all Mussulmans -

In conclusion I beg to state,
that I have been most careful
not to allow a word to escape me
which could give hope or encouragement
to any one, my duty has been to
listen but not to speak, and to
this duty I have so implicitly
adhered, that even the Turkish
authorities

Sultan will and must be regarded,
by those for whom it is intended, as
biased by political leanings and views,
and must lose much of its power and
value, while whatever is said by the
Grand Sheriff, being regarded as emanating
from the true spiritual head of Islam
will I am persuaded, carry convictions
with it

The present Grand Sheriff is
a man of generous pulses and
liberal ideas. He regards England as
the acme of all that is good, and his
admiration of our laws and system
of government is such, that he would,
I am assured, run any risk in
supporting our policy whatever it
might

might be, if he believed he would
be supported and protected.

Alone he does not feel strong
enough to openly condemn what
he may consider wrong in the
Turkish Government, yet to keep
silent gives him, according to what
I have been told, much pain, for
he considers it a neglect of his
kely office. If, however, he could be
assured of the support and protection
of Her Majesty's Government, I feel
certain he would not hesitate to
denounce to the world any act of
their government which militated
against the interests of England.

Such is the present Grand Sheriff,

20 2nd such

ملحق رقم (١٠) : زوهراب يقترح على صديقه ألستون أن تفرض بريطانيا حمايتها على
الحجاز اذا ما أرادت محاربة السلطان العثماني، المرجع /
F.O. 78/
3131, Zohrab to Alston, Private/secret, Cairo 12.1.1880.

Private & secret

Cairo,

ff 12 January 1880

22

My dear Mr. Alston.

This mail takes a despatch
which I think will be regarded
as very important by the F.O.
Whether it will be acted on is
another question, but if my
suggestions are seriously
considered, I believe we could
head off any plan Russia
may be drawing out.

You will I doubt not, see
my despatch, and I wish to
lay before you my ideas which

if you find of any value you
might perhaps show in the right
quarter.

In my despatch I state
the position of the Grand Sheriff of
Mecca, his rank and his influence
I also give a sketch of the
condition and feeling of the
people of the Hedjas and I hint
at what Hayf might gain by
aiding in altering the political
position of the Province.

To you in a private note
I can speak clearly and think
I ought to do so as the time

appears to have arrived when
England must cease temporizing
with Turkey and assume a
firm attitude not alone
towards Turkey but towards Russia
and the whole of Asia.

The Eastern question (if we can
still so term Asiatic questions)
no longer embraces merely
Turkey, it includes the whole of
Muhammadan Asia, an defensive
or protective policy must,
therefore, be as widely extended
and I presume we are bound to
use every means, every weapon
which will give us firm ground
to act on and establish our

authority over Moslems in
a manner which will permit
of no wavering or falling away.

Turkey has entered into secret
treaty engagements with Russia
the Government of Turkey has
consequently, ceased to regard England
as a friend, we must therefore
get a strong weapon against her
which will compel the Sultan
to come back to us or bring about
his ruin. Such a weapon I
believe we now have to our hand
in the Medjaz or Grand Sheriff -
If we establish our influence by
a kind of protectorate in the Medjaz
we shall be able to guide the
whole Moslem world.
I have carefully watched the

temper of the people since I have been in Jeddah and I can tell you that the people would willingly throw off the direct rule of the Sultan to become a sort of tributary state with their position guaranteed by England, that is that England should prevent any attempt on the Porte's part to resort to arms.

The Grand Sheriff has not even hinted to me any such wish he is very careful in his language but his sympathies are I know with us, he is irritated with what is going on and he believes that England alone can aid the cause of the people. With the people it is different, many

ملحق رقم (١١): زوراب يطلب من قائد الأسطول البريطاني في المحيط الهندي
أرسال إحدى قطعه الحرية إلى ساحل الحجاز تحسباً لوقوع أحداث
خطيرة وذلك نفلاً عن أعلى المراجع في مكة، المرجع
F.O. 78/ 2988, Zohrab to Burners, most secret/ conf., Jeddah
6.12.1879.

most
secret and
impedimental

H. B. his Consulat
Jeddah, 6th December 1879

Sir
Information I have received leads me to
believe, that the present political
condition of Turkey may give rise to
difficulties here, which the presence of
one of Her Majesty's Ships might materially
aid in lessening, and as I have been
secretly advised by the highest authority
in the Province, to request that a British
ship of war may be stationed here while
certain political questions are being
discussed at Constantinople, I have the
honor to request you to take such
steps as the information I now lay
before you may lead you to consider
advisable. I have the honor to be &c &c

(signed) Jas. Zohrab
Consul

To Commander H. Burnes: R. N.

X X
H. M. S. "Philothea"
Jeddah

ملحق رقم (١٢): رسالة من لايارد إلى غرانفيل حول سياسة الجامعة الإسلامية للسلطان عبد الحميد الهدافـة إلى إثارة مسلمي الهند ضد بريطانيا، وأن الدعاية العثمانية خلال موسم الحج تُروج بأن بريطانيا هي عدو الإسلام وأنها تسعى للقضاء على الخلافة العثمانية، المرجع F.O. 881/4341

Layard to Granville, no. 10, Therapia 25.5.1880

Sir A. H. Layard to Earl Granville.—(Received June 1.)

(No. 542. Confidential.)

My Lord,

Therapia, May 25, 1880.

BEFORE leaving this Embassy, I think it my duty to call the serious attention of Her Majesty's Government to the intrigues which are being carried on from Constantinople with Mahomedans in India. I have every reason to believe that they are directed by the anti-English party in the Palace, and that the Sultan himself is not ignorant of them, if he does not actually encourage and connive at them.

I have been frequently warned that Ghazi Osman Pasha is in secret communication with leading Mussulmans in India. I have no actual proof that such is the case, but from his well-known fanaticism and his undisguised opposition to the policy of England, I think it very probable that it is. I have, on various occasions, brought to the notice of Her Majesty's Government the suspicious proceedings of certain Indians in this city. Some of them have access to the Palace, and appear to be treated with special favour by the Sultan. His Majesty has been persuaded that, as Caliph of Islam, he has immense influence over the Mussulmans of India, and he appears to have been induced to establish and subsidize the "Peik Islam," the newspaper of which I sent your Lordship a copy in my despatch No. 531 of the 21st instant, in order still further to extend it.

The danger which may arise from this state of things is that if, in consequence of the course of events, England is compelled to enter upon a policy hostile to Turkey, or which, in the Sultan's opinion, may threaten his independence or his sovereign rights, or may deprive him of further territory, he may have recourse to every means in his power to cause us trouble and embarrassment.

With this object in view, he may endeavour to excite the Mussulmans of India against British rule, and to bring about another rebellion in that country. To effect this he will make use of all the power and influence he possesses as head of the Mahomedan faith. Turkish agents will work upon Indian Mussulman pilgrims at Mecca, who, on their return, will spread disaffection, and the Indians who are established here will be used to carry on secret communications with the Princes and Chiefs in India. England will be represented as the enemy of Islam, and as aiming at the overthrow of the Caliphate and the destruction of the Mahomedan religion.

I cannot doubt that, in these intrigues, the Sultan and his advisers will receive every encouragement and support from Russia. There are very strong grounds for suspecting that Ghazi Osman Pasha has been completely gained over to her interests. I have been informed, from an apparently trustworthy source, that the new Russian Ambassador, M. de Novikoff, has been instructed to maintain him in his present high and influential position in the Palace, "côte que côte." Russian agents will lose no opportunity of persuading His Majesty and his Ministers that England is the real enemy of the Turkish Empire, and that Russia alone is its friend. The more hopeful the prospect of a good understanding between the Powers as to the policy to be adopted with regard to this country, the more determined will be the attempt of Russia to increase the suspicions of the Sultan as to the motives and designs of England, and to bring about a quarrel between her and Turkey.

What Russia most dreads is a cordial understanding between the Great Powers, which may have the effect of improving the Administration of this Empire, of restoring to it something of its former power, strength, and prosperity, and of frustrating her ambitious designs with regard to it.

It may, in my opinion, be considered almost absolutely certain that she will secretly do all in her power to prevent such an understanding, whatever may be the assurances to the contrary Her Majesty's Government may receive from St. Petersburg.

I have, &c.
(Signed) A. H. LAYARD.

ملحق رقم (١٣) : لايارد يبلغ ساليزبورى بردود الفعل الإسلامية المستاءة من اغتيال الشريف حسين، وكذلك عن محاولاته ثنى السلطان عن تعيين بديل له هو الشريف عبد المطلب، ووغرد السلطان بأن الشريف الأكبر التالي بعد عبد المطلب سيكون عون الرفيق، المرجع F.O. 424/97.

Layard to Salisbury, no. 112, Constantinople 25.3.1880

Sir A. H. Layard to the Marquis of Salisbury.—(Received April 9.)

(No. 342.)

My Lord,

Constantinople, March 25, 1880.

THE assassination of Sheikh Hussein, the late Grand Sheriff of Mecca, was first known at Constantinople through a telegram sent to me by Mr. Malet, who had received the information from Consul Zohrab. It has caused a very painful feeling here amongst the better class of Mussulmans, who appreciated the liberal and enlightened character of Sheikh Hussein. The Sultan told me yesterday that he had named Sheikh Abou Moutaleb his successor. I told His Majesty that, from information which had reached me from trustworthy source, I had reason to fear that the return of this individual to the Hedjaz might lead to serious disorders and bloodshed. Sheikh Abou Moutaleb, I said, had on more than one occasion, when formerly Sheriff of Mecca, been guilty of rebellion, and he was known to be at the head of a party which had been the cause of serious disasters to Turkey already, and were not unlikely to be so again.

The Sultan replied that, for various reasons, he could not do otherwise than name Sheikh Abou Moutaleb, and he had done so after consultation with his principal Ministers, and with Haireddiu Pasha, and other persons in whose advice he had confidence. Sheikh Abdul Moutaleb was a very old man, above ninety years of age, and could not in the course of things live long. On his death Aoni el Refik Pasha, or Sheikh Aoun (the name he is usually known by), the brother of Sheikh Hussein, who resides at Constantinople, will be named his successor. Of this, His Majesty said, he had written to inform Sheikh Aoun.

The Sultan added that he was well aware that Sheikh Abdul Moutaleb had been disloyal, and had rebelled against his Sovereign. But he had now given assurances, in which His Majesty had full confidence, that he would discharge the duties of his high office to His Majesty's complete satisfaction. As he still possessed great influence in the Hedjaz, His Majesty thought that, considering the disturbed state of that province, he was the best person to be entrusted with the duties of Grand Sheriff. His Majesty said that some troops would be sent with him, and I understand that four battalions will be dispatched to Jeddah at once.

I have, &c.
(Signed) A. H. LAYARD.

ملحق رقم (١٤) : مخاطر اغتيال الشريف حسين على المصالح البريطانية في الهند. إن السلطان العثماني كان على علم بالمخططات البريطانية بشأن الاستيلاء على الحجاز والأماكن المقدسة. الشريف الجديد عبد المطلب من المعارضين الشديدين لبريطانيا، وعون الرفيق (المرشح المقرب) يبلغها عن استعداده للمحافظة على أقصى علاقات الود معها إذا ما أصبح أميراً على مكة، المرجع F.O. 424/97, *Layard to Salisbury*, secret, no. 113, Constantinople 26.3.1880.

Sir A. H. Layard to the Marquis of Salisbury.—(Received April 9.)

(No. 344. Secret)

My Lord,

Constantinople, March 26, 1880.

THE assassination of Sheikh Hussein, the late Grand Sheriff of Mecca, may have given political consequences, and may seriously affect our interests in India. Suspicions are not wanting that his murder was planned by persons here. He had long been an object of suspicion to the Sultan and to the fanatical party, which now, unhappily, exercises a pernicious influence over His Majesty's mind on account of his liberal and enlightened opinions, and especially of his supposed leaning towards England. It was not unknown at the Palace and the Porte that secret attempts were being made to induce the Arab populations of the Empire to transfer their allegiance from the house of Osman to the Sheriff of Mecca as the head of the Mussulman faith, and it is believed that a widespread conspiracy exists to effect this object. I have reason to know that information as to the communications that were passing between Compt Zohrab and the Grand Sheriff had reached the Sultan, probably through Nasir Pasha, the Governor-General of the Hedjaz, and that even the French Embassy, which is now watching with extreme jealousy the proceedings of England in the East, is fully informed with regard to them.

Your Lordship will remember that I referred to these matters in my Secret despatches Nos. 189 and 302 of this year.

I learn, on very good authority, that about three months ago one of Abou Moutaleb's sons left Constantinople for Jeddah, and that Sheikh Aun, Sheikh Hussein's brother, who resides here, was warned that an attempt would probably be made to get rid of the Grand Sheriff. That the relations which Mr. Zohrab has entertained of late with the Sheriff have contributed, in any way, to the determination which, I am assured, existed here, either to depose His Highness or to make away with him, I cannot state with confidence, but I have been, for some time, very uneasy with regard to Mr. Zohrab's proceedings, knowing, as I do, the extreme jealousy and susceptibility of the Sultan, especially with regard to his religious rights and authority as Caliph of Islam, and being well aware that the fanatics who surround him would lose no occasion to excite his suspicions against England, whom they have even accused to him of wishing to possess herself of the holy places, and would not scruple to have recourse to any measures which they thought calculated to defeat the designs attributed to her.

Sheriff Abou Moutaleb is generally believed to be a man of fanatical opinions, although I have been assured by some who know him, amongst them I may mention my Persian colleague, in whose judgment in such matters I have confidence, that he is not. He has occasionally sent messages to me professing his friendship for England, and has expressed a wish to call upon me; but we have never met. The inclosed memorandum, which has been sent to me by a person who frequently sends me information of what is passing at the Palace, but is not very trustworthy, may not be strictly accurate in its details, but it tends to confirm what I have learnt from other sources as to the suspicious existing there with regard to the relations between the late Sheriff and England. It is true, as the Sultan told me, that Abou Moutaleb is an old man, not, however, of so great an age as His Majesty stated, but he may probably have time enough before his to excite the fanaticism of the people of the Hedjaz to a dangerous extent, and to excite his party to make such arrangements as may be necessary for securing the succession to one of his sons. He may also work mischief with Indian Mussulmans visiting the Holy Cities, or even commence intrigues in India with the view of causing us trouble. It will therefore be necessary to watch his proceedings with great vigilance, especially as, in this respect, he may be acting at the instigation of the Sultan, who, I have reason to believe, is in communication with certain Indian Mussulmans now here engaged, I am assured, in intrigues against England. Upon this subject I am endeavouring to obtain full and trustworthy information.

Mr. Zohrab, in a despatch to me, the substance of which appears to have been communicated to your Lordship by telegraph by Mr. Malet, describes the danger to the Christians and Indians in the Hedjaz should Abou Moutaleb be named Grand Sheriff. M. Fourrier tells me that he has received similar information from the French Consul at Jeddah. I warned the Sultan very seriously of this danger when I saw His Majesty the day before yesterday; and I have repeated the warning to Saws Pasha, pointing out, at the same time, to his Excellency the consequences which must inevitably ensue if there were a second massacre at Jeddah, for which, after the warning I had given to His Majesty and himself, the Turkish Government would unquestionably be held responsible, if the appointment of Sheikh Abou Moutaleb were persisted in. Saws Pasha did not conceal his regret and alarm at the advice made by the Sultan of this personage for Grand Sheriff, which he attributed to evil advise.

As your Lordship may have inferred, I have been, for some time past in direct communication with Sheikh Aun, the brother of the murdered Sheriff. I have not, however, thought it prudent to see him, although he has expressed his readiness to call upon me. I am informed that he is a man of intelligence and enlightened views, although

ملحق رقم (١٥) : لايارد يخبر ساليزوري أن اتصالات الشريف حسين المشبوهة بالحكومة البريطانية كانت وراء اغتياله، ويحدد الاعتبارات التي جعلت السلطان العثماني يعين عبد المطلب أميراً على مكة، المرجع
F.O. 424/97, *Layard to Salisbury, inclosure no. 113,*
Constantinople 26.3.1880.

Inclosure in No. 113.

Palace Reports respecting Death of Sheriff of Mecea.

LES nouvelles parvenues au Palais sur l'assassinat de l'Emir de la Mecque, Chérif Hussein Pacha (fils du feu Sheriff Mohammed-Ibu-Naon) attribuent ce meurtre à un Afghan, qui se serait fait le vengeur des bons Musulmans, indignés à cause de la sympathie de l'Emir Chérif Hussein Pacha envers les Anglais, sympathie qu'il avait dernièrement manifestée par le cadeau à la Reine de quatre juments. Quelques semaines auparavant le Palais avait reçu la nouvelle que trois Agents du Foreign Office déguisés en Musulmans avaient été reçus par le Chérif à la Mecque. Le vieux Abd-ul-Moutalib sera nommé aujourd'hui Emir de la Mecque. C'est pour la troisième fois que ce Chérif de 80 ans environ, portant parfaitement bien son âge, qui est appelé au Siège des Lieux-Saints de l'Islam. Il a été Emir de la Mecque sous Mahmoud II, auquel il resta fidèle contre la révolte de Muhammad Aly d'Egypte, qui avait nommé Mohammed-Ibu-Naon comme Emir de la Mecque, tandis que Abd-ul-Moutalib était obligé de se sauver à Bagdad d'où il vint à Constantinople. Après la soumission de Mohammed Aly, le Sultan Abd-ul-Medjid le nomma à l'Emirat de la Mecque, poste qu'il garda pour quatre ans et quelques mois. Abd-ul-Moutalib, rigide observateur du Chéri, s'il avait cru de son devoir de se prononcer contre le rebelle Mohammed Aly d'Egypte, lors, sur la demande de Sir Strafford Canning (Lord de Redcliff) reçut l'ordre par le Grand Vizir Réchid du Hanzimat de publier à la Mecque le fameux Hatti-l-Houmayoun, Abd-ul-Moutalib s'y refusa et prêcha même la guerre sainte contre le Sultan Abd-ul-Medjid. Hadji Kiamil Pacha (révolté juif)* alors Vali de la Mecque et qui jouait un rôle ambigu, parce qu'il s'était entendu avec les marchands d'esclaves pour empêcher la publication des Firman du Sultan, parvint à faire arrêter Abd-ul-Moutalib. Arrivé à Constantinople, sans mettre pied à terre, il dut sur un bateau à vapeur continuer son voyage pour Salonique, où se trouve le mausolée de son père, l'Emir Chérif Ghalib, mort dans cette ville, résidence de son exil, en 1816, de la peste—du poison Turc, au dire de quelques Arabes.

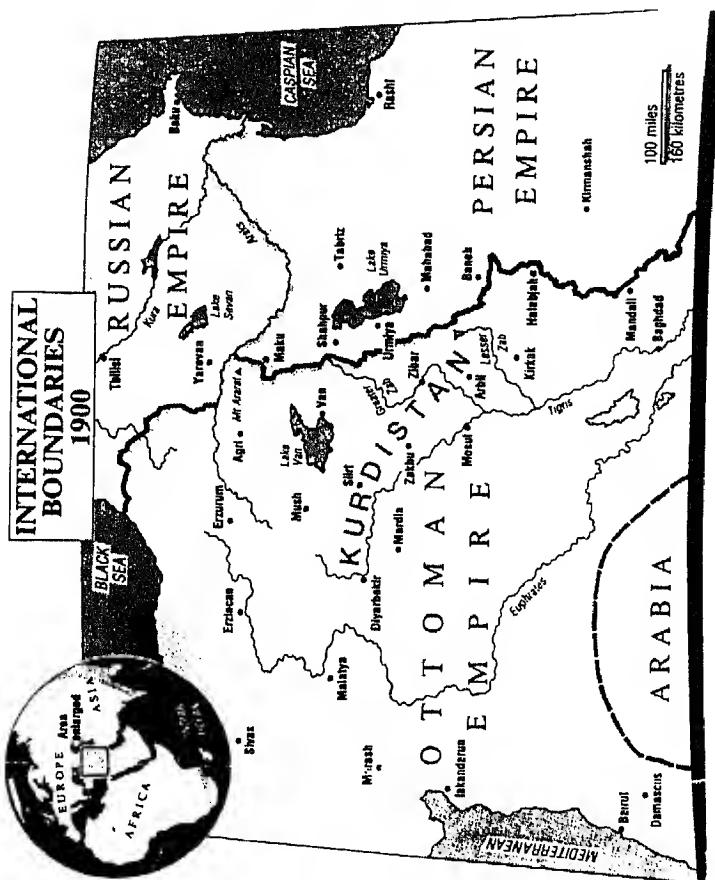
Après deux à trois semaines d'exil à Salonique, Abd-ul-Moutalib, à la suite d'un songe du Sultan Abd-ul-Medjid, fut rappelé à Constantinople. Ce souverain lui fit cadeau d'un grand ennak et lui accorda une pension convenable successivement augmentée par le Sultan Abd-ul-Asiz et par le Sultan actuel. Le choix d'Abd-ul-Moutalib par l'Emirat de la Mecque se recommandait par cette considération, que le Chérif Hussein Pacha, déjà très-impopulaire, comme tous les membres de sa famille, ayant été assassiné à cause de ses tendances Anglophiles vraies ou supposées, par cela seul son frère le Chérif Hossan Pacha (qui se trouve dans ce Hedjaz) où son frère le Chérif Avni El Réfik Pacha (qui se trouve à Constantinople) n'avait aucune chance pour l'Emirat. Abd-ul-Moutalib, qui est le Doyen des Chérifs, exerce une grande influence parmi les tribus de Hedjaz, et par l'expérience acquise il envisage autrement aujourd'hui la situation de l'Arabie ; il semble convaincu, sans cependant avouer cette pensée aux Turcs, que les Arabes ne doivent pas contrarier l'Angleterre. Ce que dit Burckhardt dans ses "Voyages en Arabie" sur les qualités et les défauts de l'insfortuné Emir, Chérif Ghalib, est parfaitement applicable à son fils, le nouvel Emir de la Mecque, Abd-ul-Moutalib.

ملحق رقم (١٦) : كردستان، المرجع : عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث .



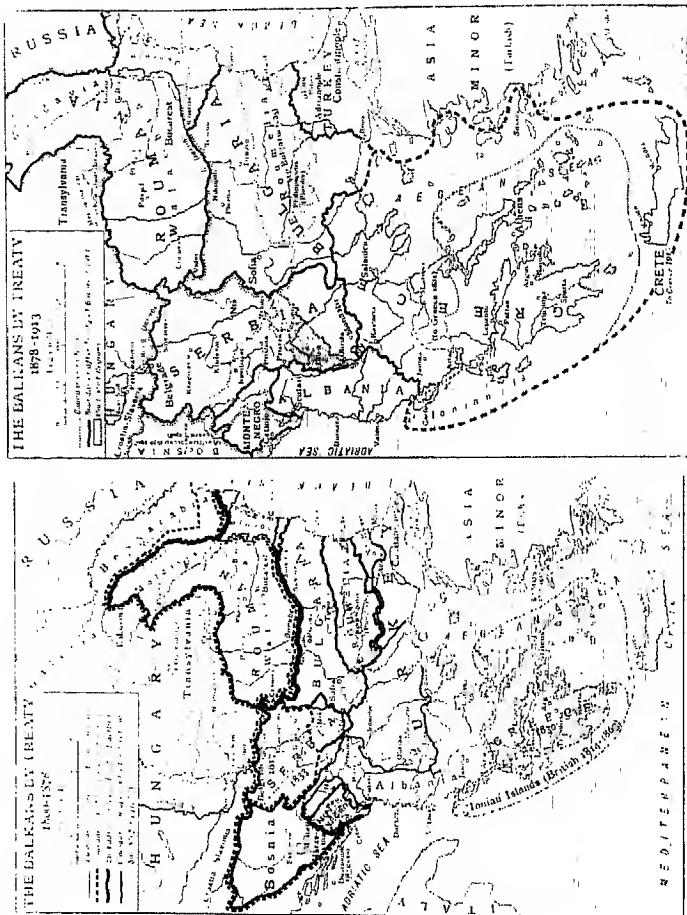
ملحق رقم (١٧): كردستان والحدود الدولية عام ١٩٠٠.

المراجع : David McDowall, The Kurds, London 1992, p28.



ملحق رقم (١٨) : الأراضي الألبانية قبل معاهدة برلين وبعدها.

المرجع : R.W. Seton-Watson, The Rise of Nationality in the Balkans, London 1917, p 128.



ملحق رقم (١٩) : مناطق استيطان المسلمين في ألبانيا حوالي عام ١٩٠٠ .

المراجع :
 Peter Bartl, Die albanischen Muslime zur Zeit
 der nationalen Unabhängigkeitsbewegung (1878-1912),
 Wiesbaden 1968, p 87.



المصادر والمراجع

١- بالعربية والترجمة إلى العربية

أ- غير المنشورة

آل صفا، محمد جابر العاملبي، (مخطوطه) مذكرات أدبية وسياسية والمنتخب من كلمات لنا أدبية واجتماعية وعلمية نشر بعضها في المجالات والصحف العربية، النبطية ١٣٥٢ / ١٩٣٣، ج ٥. وقد نُشرت أجزاء من هذه المخطوطة بعنوان «تاريخ جبل عامل».

ب- المنشورة

الكتب

آل صفا، محمد جابر، آل الصلح. عن مخطوط «سلاف الأفكار في مدح عترة المختار» ١٨٩١، إعداد وتقديم محمد علي فرحات، بيروت ١٩٨٩.

آل صفا، محمد جابر، تاريخ جبل عامل، ط ٢، بيروت ١٩٨١.

الأعمال الكاملة للكواكب، إعداد وتحقيق محمد جمال طحان، بيروت ١٩٩٥.

الأمين، محسن، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه ولده الأستاذ حسن الأمين، ج ٤٣، بيروت ١٩٥٨.

أبو شامي، علي، التصوف والطرق الصوفية في العصر العثماني المتأخر، أطروحة دكتوراه/ الجامعة اللبنانية ١٩٩٣.

بدوي، أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت ١٩٨٢.

بيهم، محمد جميل، قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور، ج ٢، بيروت ١٩٥٠.

—، العرب والترك، لام ١٩٥٧.

- الجسر، حسين، الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية، ظهرت ط ١ في ١٨٨٨، تقديم وتحقيق خالد زيادة، طرابلس/لبنان لات.
- جليل، جليلي، انتفاضة الأكراد عام ١٨٨٠، بيروت ١٩٧٩.
- جليل، جليلي وأخرون، الحركة الكردية في العصر الحديث، ترجمة عبدي حاجي، بيروت ١٩٩٢.
- الجميل، سيار، العثمانيون وتكون العرب الحديث، بيروت ١٩٨٩.
- حراز، رجب، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠-١٩٠٩، القاهرة ١٩٧٠.
- حسون، علي، العثمانيون والبلقان، ط ٢، بيروت/دمشق ١٩٨٦.
- الحصري، ساطع، نشوء فكرة القومية، القاهرة ١٩٥١.
- -----، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط ٢، بيروت ١٩٦٠.
- حمزة، فؤاد، قلب الجزيرة العربية، ط ٢، الرياض ١٩٦٨.
- حوراني، ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، بيروت ١٩٦٨.
- حويلي، محمد علي، التطور الثقافي لمدينة بيروت من الفتح المصري لبلاد الشام وحتى الحرب العالمية الأولى ١٨٣١ - ١٩١٤، أطروحة دكتوراه / الجامعة اللبنانية ١٩٩٠.
- خازن، سمعان، يوسف بك كرم في المنفى: صحفة رائعة من تاريخ لبنان المجيد في القرن التاسع عشر، طرابلس ١٩٥٠.
- خوري، إميل وإسماعيل، عادل، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٩٥٨، ج ٣: من معاهدة المضائق ١٨٤١ إلى فرمان ١٩ آذار ١٨٦٦، بيروت ١٩٦٦.
- خوري، يوسف قزما، مختارات من القوانين العثمانية، بيروت ١٩٩٠.
- داية، جان، المعلم بطرس البستاني، بيروت ١٩٨١.
- الدوري، عبد العزيز، التكوين التاريخي للأمة العربية، ط ٣، بيروت ١٩٨٦.
- رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون ١٩١٦-١٥١٦، دمشق ١٩٧٤.

- رستم، أسد، لبنان في عهد المتصرفية، بيروت ١٩٧٣.
- رنوڤان، پيير، تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر) ١٨١٥ - ١٩١٤، تعریب جلال يحيى، القاهرة ١٩٨٠.
- الزین، علی، للبحث عن تاريخنا في لبنان، بيروت ١٩٧٢.
- زین، زین نورالدین، نشوء القومية العربية، ط٢، بيروت ١٩٧٢.
- -----، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، بيروت ١٩٧١.
- زینی دحلان، أحمد ابن السيد، أمراء البلد الحرام، بيروت لات.
- السباعی، أحمد، تاريخ مکة، ج١ و٢، مکة المکرمة ١٢٩٩ / ١٩٧٩.
- سلامة، غسان، المجتمع والدولة في المشرق العربي، بيروت ١٩٨٧.
- ستو، عبد الرؤوف، أثر الغرب الأوروبي في حركة الإصلاحات في الدولة العثمانية ١٧٨٩ - ١٨٣٩، رسالة دبلوم / جامعة بيروت العربية ١٩٧٥.
- -----، المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ١٨٤١ - ١٩٠١، بيروت ١٩٨٧.
- شامية، جبران، آل سعود ماضيهما ومستقبلهم، لندن ١٩٨٦.
- الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها، ج٤ و٢، القاهرة ١٩٨٠ / ١٩٨٦.
- شوفاليه، دومينيك، مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا، ترجمة مني عبد الله عاقوري، بيروت ١٩٩٤.
- شيرکوه، بلهج، القضية الكردية، مصر ١٩٣٠.
- الصلح، عادل، سطور من الرسالة: تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي ١٨٧٧، بيروت ١٩٦٦.
- الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث، ط٣، بيروت ١٩٧٢.
- ضاهر، مسعود، مشكلات بناء الدولة الحديثة في الوطن العربي، دمشق ١٩٩٤.
- طربين، أحمد، لبنان في عهد المتصرفية إلى بداية الانتداب ١٨٦١ - ١٩٢٠، دمشق ١٩٦٨.

- عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤، القاهرة ١٩٦٩.
- عيسى، حامد محمود، المشكلة الكردية في الشرق الأوسط، القاهرة ١٩٩٢.
- العزاوي، قيس جواد، الدولة العثمانية: قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، بيروت / فلوريدا ١٩٩٤.
- فارج، فيليب / كرياج، يوسف، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي ، ترجمة بشير السباعي ، القاهرة ١٩٩٤.
- كوثاني، وجيه، الاتجاهات الاجتماعية - السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠-١٩٢٠ ، ط٣ ، بيروت ١٩٨٢.
- ، المسيحيون، من نظام الملل إلى الدولة المحدثة، في : المسيحيون العرب ، ط٢٦ ١٩٨٦ ، ص ٥٥ - ٧٤.
- ، السلطة والمجتمع والعمل السياسي: من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام ، بيروت ١٩٨٨.
- المحافظة، علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤ ، بيروت ١٩٨٧.
- مراد، عدنان، بريطانيا والعرب ، دمشق ١٩٨٩.
- مقدسی، أنس خوري، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي ، بيروت ١٩٦٠.
- مؤمن، مصطفى، سمات العالم الإسلامي المعاصر ، دار الفتح ١٩٧٤.
- موفاكو، محمد، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، سلسلة «عالم المعرفة» عدد ٧٤، الكويت ١٩٨٣.
- نشابة، هشام، الشيخ عبد القادر القباني وجريدة «ثمرات الفنون» في : الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠-١٩٣٩ ، إعداد مروان بحيري، ترجمة عبد الوهاب، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٩٩ - ١٠٦.
- نوار، عبد العزيز، تاريخ العراق الحديث ، القاهرة ١٩٦٨.
- الدوريات
- أبو منه، بطرس، السلطان عبد الحميد الثاني والشيخ أبو الهدى الصيادي، «الإجتهداد»(بيروت)، ١٩٨٩(٥) ، ص ٥٩-٨٨.

- ايميريت، مارسيل، الأزمة السورية والتوجه الاقتصادي الفرنسي في سنة ١٨٦٠،
- تعریف خلیل أبو رجیلی، «دراسات عربیة»(بیروت)، ١٩٧٢(٥)، ص ٢٦-٢.
- بسام، محمد سعید، الحركة العربية في جبل عامل، «الفکر العربي» (بیروت)،
- ٣٩/٦٠(٤٠ ١٩٨٥)، ص ٧٣-٦٠.
- «ثمرات الفنون» الأخوات ١٨٧٨-١٨٧٥.
- خالدي، رشيد، القومية العربية في سوريا: سنوات التكوين ١٩٠٨-١٩١٤،
- «الفکر العربي» ٣ (١٩٧٨)، ص ٥٥-٣٥.
- ستو، عبد الرؤوف، العلاقات الروسية - العثمانية ١٦٨٧-١٨٧٨، (سياسة الاندفاع
نحو المياه الدافئة)، «تاریخ العرب والعالم» (بیروت)، ٧٤/٧٣(١٩٨٤)، ص
- ٦١-٤٨.
- -----، العلاقات الروسية - العثمانية ١٦٨٧-١٨٧٨ (روسيا ومشاريع
تقسيم الدولة العثمانية)، «تاریخ العرب والعالم»، ٧٥/٧٦(١٩٨٤)، ص ٣٤-٣٣.
- ٤٧.
- -----، العلاقات الروسية - العثمانية ١٦٨٧-١٨٧٨ (حرب القرم
١٨٥٦-١٨٥٣)، «تاریخ العرب والعالم»، ٧٧/٧٨(١٩٨٥)، ص ٤٤-٢٥.
- -----، العلاقات الروسية - العثمانية ١٦٨٧-١٨٧٨ (مسألة البحر الأسود
والأزمة البلقانية ١٨٥٦-١٨٧٨)، «تاریخ العرب والعالم»، ٧٩/٨٠(١٩٨٥)، ص
- ٢٦-٢.
- -----، الأثروذكسيّة والسلافية وأثرهما في السياسة الروسية تجاه الدولة
العثمانية، «حوليات» (بیروت)، ١٩٨٥(١٩٨٤)، ص ١١-٣١.
- -----، ألمانيا وسياسة «الاندفاع نحو الشرق». العلاقات الألمانية
العثمانية من ١٨٧١ إلى ١٩١٨، «دراسات إسلامية» (بیروت)، ٣/١٩٨٩(٣)
- (١٩٩٠)، ص ٢٣١-٢٨٦.
- -----، المصالح الألمانية في «البنان» ١٨٣١-١٩١٨، «أوراق
جامعية»، (بیروت)، ٢(١٩٩٣)، ص ٢٠١-٢٣٦.
- -----، فكرة الجامعة الإسلامية بين السلطنة العثمانية والمغرب الأقصى،
«الاجتہاد» ٢٦/٢٧ (١٩٩٥)، ص ٣١٩-٣٥٨.

- ، تطور الاتجاهات الإسلامية في الدولة العثمانية «من التنظيمات حتى نهاية عصر السلطان عبد الحميد الثاني»، في : «المنهاج» (٤) ١٩٩٦)، ص ١٠٨ - ١٣١ و ١٤٩ (٥) ١٩٩٧) ص ٨٥ - ١٠٨ .
- شتبات، فريتز، بدايات العصر الحديث في الشرق الأدنى، «الأبحاث» (بيروت) ٢٠ ، ١ (١٩٦٧)، ص ١٧ - ٣٤ .
- الطيباوي، عبد اللطيف، نصوص وحقائق لم تنشر عن أصل النهضة العربية في سوريا، «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» (دمشق)، ٤(٤) ١٩٦٧)، ص ٧٧٥ - ٧٩٣ .
- كيلكوجيه، شانتال لومرسيه، طرق الصوفية في شمال القوقاز، «الإتجاه»، ٦ (١٩٩٠)، ص ٢٥٩ - ٢٧٤ .

٢- باللغات الأجنبية

أ- غير المشورة

الوثائق البريطانية المحفوظة في «مركز السجلات العامة» (Public Record Office) في ريتشموند (Richmond)، وتدرج تحت الملفات/ المفاتيح التالية:

- F.O. 78 Turkey.
- F.O. 195 Embassy and Consular Archives.
- F.O. 424 Confidential Prints, Turkey.
- F.O. 881 Confidential Affairs, Turkey ect.
- الوثائق الألمانية المحفوظة في «الأرشيف السياسي في وزارة الخارجية الألمانية» - بون (Politisches Archives des Auswärtigen Amtes - Bonn) وتدرج تحت الملفين/ المفاتيح التاليين:
- PAAA, Orientalia Generalia 9,1,
- PAAA, Asien G, 1

بـ المنشورة

Published Primary Sources

- British Parliamentary Papers 1860/69, *Despatches from Her Majesty's Consuls in the Levant respecting Past or Apprehended Disturbances in Syria: 1858 to 1860*, presented to the House of Commons, July 20, 1860.
- Hurewitz, J.C., The Middle East and North Africa in World Politics. A Documentary Record, vol. I. European Expansion 1535-1914, New Haven/ London 1975.
- Ismail, Adel, Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban, t. 14, 'Consultat Général de France à Beyrouth (1878-1883)', Beyrouth 1978.

Books

- Akarli, Engin D., Abdülhamid II's Attempt to Integrate Arabs into the Ottoman System, in: David Kushner ed. *Palestine in the Late Ottoman Period*, Jerusalem 1986, pp 74-89.
- Al-'Amr, Saleh Muhammad, The Hijaz under Ottoman Rule 1860-1914: The Ottoman Vali, the Sharif of Mecca, and the Growth of British Influence, Ph.D. University of Leeds 1974.
- Anderson, M., The Eastern Question 1774-1923, London 1966.
- Antonius, George, The Arab Awakening, Beirut 1969.
- Arabia, *Handbook prepared under the direction of the historical section of the Foreign Office*, no. 61, London 1920.
- Arfa, Hassan, The Kurds, London ect. 1966.
- Armenia and Kurdistan, London 1920.
- Arnold, Thomas, The Caliphate, London 1965.
- Bamberg, Felix, Geschichte der orientalischen Angelegenheit im Zeitraume des Pariser und des Berliner Friedens, Berlin 1892.
- Bartl, Peter, Die albanischen Muslimen zur Zeit der nationalen Unabhängigkeitsbewegung (1878-1912), Wiesbaden 1968.
- Baumgart, Wilfried, Vom Europäischen Konzert zum Völkerbund, Darmstadt 1974.
- Behrendt, Günter, Nationalismus in Kurdistan, Hamburg 1993.
- Blunt, Winfrid Scawen, The Future of Islam, London 1882.

- Bruinessen, Martin van, Agha, Shaikh and State. The Social and Political Structures of Kurdistan, London/New Jersey 1992.
- Burton, Isabel, The Inner Life of Syria, Palestine , and the Holy Land, vol.I, London 1875.
- Castellan, Georges, Histoire des Balkans (XIV^{ème} - XX^{ème} siècle), Paris 1991.
- Chaliand, Gerard, Introduction, in: Gerard Chaliand ed. *People without Country*, transl. By Michael Pallis, London 1980, pp 8-18.
- Chirguh, Bletch, La question Kurde, ses origines et ses causes, la Caire 1930.
- Clayton, G. D., Britain and the Eastern Question. Missolonghi to Gallipoli, London 1971.
- Creasy, Edward S., History of the Ottoman Turks, repr. Beirut 1961.
- Davison, Roderic H., Reform in the Ottoman Empire, New York 1973.
- Dawn, Ernest, From Ottomanism to Arabism, Urbana ect. 1973.
- Dehn, Paul, Deutschland und Orient in ihren wirtschaftspolitischen Beziehungen: I, Nach dem Orient, München/Leipzig 1884.
- Edmonds, C.J. Kurds, Turks and Arabs, London 1957.
- Fadyeyeva, I. L., Ofitsial'niye doktrini I idyeologii v politikye Osmanskoy Impyerii (Osmanizm - Panislamizm), XIX-XX, Moscow 1985.
- Faensen, Johannes, Die albanische Nationalbewegung, Leipzig 1990.
- Farnie, D.A., East and West of Suez. The Suez Canal in History 1856-1956, Oxford 1969.
- Franz, Erhard, Kurden und Kurdistan, Hamburg 1986.
- Gaury, Gerald de, Rulers of Mecca, London 1951.
- Georgeon, Francois, Le dernier sursaut (1878-1908), in: Robert Mantran ed. *Histoire de l'Empire Ottoman*, Paris 1989, pp 523-576.
- Gerber, Haim, Ottoman Rule in Jerusalem 1890-1914, Berlin 1985.
- Gilber, Gad G., Changing Patterns of Economic Ties: The Syrian and Iraqi Provinces in the 18th and 19th Centuries, in: Thomas Philipp ed. *The Syrian Land in the 18th and 19th Century*, Stuttgart 1992, pp 55-67.
- Gollwitzer, Heinz, Europe in the Age of Imperialism 1880-1914, London 1969.
- Gross, M.L., Ottoman Rule in the Province of Damascus 1860-1909, Ph.D. Gerogetown University 1979.

- Haslip, Jean, Der Sultan. Das Leben Abdul Hamids II, München usw. 1968.
- Hoskins, Halford Lancaster, British Routes to India, N.Y. ect. 1928.
- Jelavich, Barbara, The Ottoman Empire, the Great Powers and the Straits Question 1870-1887, Bloomington/London 1973.
- Jelavich, Charles, Tsarist Russia and Balkan Nationalism. Russian Influence in the Internal Affairs of Bulgaria and Serbia (1879-1886), Berkeley/ Los Angeles 1962.
- Johnson, Michael, Class and Client in Beirut. Muslim Community and the Lebanese State (1840-1985), London ect. 1986.
- Jwaideh, Wadie, The Kurdish Nationalist Movement: Its Origins and Development , Ph.D. Syracuse University 1960.
- Kendal, The Kurds und the Ottoman Empire, in: Gerard Chaliand ed. *People without Country*, transl. By Michael Pallis, London 1980, pp 19-46.
- Khoury, Philip S., Urban Notables and Arab Nationalism. The Politics of Damascus (1860-1920), Cambridge 1983.
- Kramer, Martin, Islam Assembled: The Advent of the Muslim Congresses, New York 1986.
- Langer, William, European Alliances and Alignments 1871-1890, New York 1966.
- Logoreci, Anton, The Albanians, London 1977.
- Ma'oz, Moshe, Ottoman Reform in Syria and Palestine (1840-1861), Oxford 1968.
- _____, Changes in the Position and Role of the Syrian 'Ulama' in the 18th and 19th Centuries, in: Thomas Philipp ed. *The Syrian Land in the 18th and 19th Century*, Stuttgart 1992, pp 109-122.
- Marriott, J.A.R., The Eastern Question. A Historical Study in the European Diplomacy, Oxford 1917.
- Marston, Thomas E., Britain's Imperial Role in the Red Sea Area 1800-1878, Connecticut 1961.
- McDowall, David, *The Kurds*, London 1992.
- Medicott, W.N., The Congress of Berlin and After 1878-1880, London 1938, 2nd. Ed. Edinburgh 1963.
- Miller, William, The Ottoman Empire and Its Successors 1801-1927, New impression, London 1966.

- Millman, Richard, Britain and the Eastern Question 1875-1878, Oxford 1979.
- Monteil, Vincent, Les Musulmans soviétiques, Paris 1982.
- Mousa, Suleiman, The Rise of Arab Nationalism and the Emergence of Transjordan, in: William Haddad/William Ochsenwald eds. *Nationalism in a Non-National State. The Dissolution of the Ottoman Empire*, Columbus 1977, pp 239-263.
- Mosely, E.P., Russian Diplomacy and the Opening of the Eastern Question in 1838-1839, London 1934.
- Nebez, Jamal, Kurdistan und seine Revolution, Nuske 1972.
- Ochsenwald, William, The Hijaz Railroad, Virginia 1980.
- _____, _____, Religion, Society and the State in Arabia. The Hijaz under Ottoman Control, 1840-1908, Columbus 1984.
- Okyar, Osman, A New Look at the Recent Political, Social and Economic Historiography of the Tanzimat, in: Jean-Louis Bacque-Grammont/ Paul Dumont, eds. *Economie et sociétés dans l'Empire Ottoman (Fin du XVIII^eme début du XX^eme siècle)*, Paris 1983 , pp 33-45.
- Olson, Robert, The Emergence of Kurdish Nationalism and the Sheikh Said Rebellion 1880-1925, Austin 1989.
- Pierce, Richard A., Russian Central Asia 1867-1917, Berkeley 1960.
- Pollo, Stefanaq/ Puto, Arben, Histoire de l'Albanie, Roanne (Paris), s.d.
- Rabinovich, Itamar, Syria and the Syrian Land: The 19th Century Roots of 20th Century Developments, in: Thomas Philipp ed. *The Syrian Land in the 18th and 19th Century*, Stuttgart 1992, pp 43-54.
- Rogel, Carole, The Wandering Monk and the Balkan National Awakening, in: William Haddad/ William Ochsenwald eds. *Nationalism in a Non-National State. The Dissolution of the Ottoman Empire*, Columbus 1977, pp 77-101.
- Rhode, Gotthold, Die Staaten Südosteuropas vom Berliner Kongress bis zum Ausgang des 1. Weltkriegs (1878-1918), in: Theodor Schieder ed. *Europa im Zeitalter der Nationalstaaten und europäische Weltpolitik bis zum Ersten Weltkrieg*, Bd. 6, Stuttgart 1973, pp 547-609.
- Saab, Hassan, The Federalists of the Ottoman Empire, Amsterdam 1958.
- Safrastian, Arshak, Kurds and Kurdistan, London 1948.
- Salībā, Najib Elias, Wilāyat Sūriyyā 1876-1909, Ph.D. University of Michigan 1971.

- Sax Carl Ritter von, Geschichte des Machtverfalls der Türkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die Phasen der 'orientalischen Frage' bis auf die Gegenwart, Wien 1908.
- Schmidt-Neke, Michael, Geschichtliche Grundlagen, in: Klaus-Detlev Grothusen ed. *Albanien*, Göttingen 1993, pp 26-46.
- Seton-Watson, R.W., The Rise of Nationality in the Balkans, London 1917.
- Shaw; Stanford J./ Shaw, Ezel Kural, The Ottoman Empire and Modern Turkey, vol. II. Reform, Revolution and Republic: The Rise of Modern Turkey, 1808-1975, Cambridge 1977.
- Shukla, Ram Lakham, Britain, India and the Turkish Empire 1853-1882, New Delhi ect. 1973.
- Skendi, Stavro, The Albanian National Awakening 1878-1912, Princeton 1967.
- Snouck - Hurgronje, C., Verspride Geschriften, vol. III , *The Revolt in Arabia 1916*, pp 313-325.
- Stavrianos, L.S., The Balkans Since 1453, New York ect. 1958.
- Steppat, Fritz, Some Arabic Manuscript Sources on the Syrian Crisis of 1860, in: Jacques Berque et Dominique Chevallier eds. *Les Arabes par leur archives (XVI^eme - XX^eme siècle)*, Colloques International du Centre National de la Recherche Scientifique, No. 555, Paris 9-11 avril 1974, Paris 1976, pp 183-191.
- _____, Kalifat, Dār al-Islām und die Loyalität der Araber zum Osmanischen Reich bei hanafitischen Juristen des 19. Jahrhunderts, *Actes du V^eme Congrès International d'Arabisants et d'Islamisants*, Bruxelles, 31 aout - 6 septembre 1970, pp 443-462.
- Sumner, B.H, Russia and the Balkans 1870-1880, Oxford 1937.
- Tauber, Eliezer, The Emergence of the Arab Movements, London 1993.
- Tibawi, A.L., A Modern History of Syria, London 1969.
- Webers, Georg, Lehr-und Handbuch des Weltgeschichte. Neu bearbeitet von Alfred Baldamus, Bd. IV, Neueste Zeit, Leipzig 1911.
- Wensinck, A.J., Mekka, in: *Encyclopédie de l'Islam*, T III., Leiden/Paris 1936, pp 512-518.
- Zeine, Zeine N., Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism, Beirut 1958.

Periodicals.

- Abu-Manneh, Butrus, Sultan Abdülhamid II and the Sharifs of Mecca (1880-1900), in: *Asian and African Studies* 9, 1(1973), pp 1-21.
- _____, The Christians between Ottomanism and Syrian Nationalism: The Ideas of Butrus Al-Bustani, in: *IJMES*, II (1980), pp 287-304
- _____, _____, The Genesis of Midhat Pasha's Governorship in Syria 1878-1880 (Draft) Paper presented at the International Conference, *The Syrian Land (Bilad al-Sham) in the 18th and 19th Century*, July 18-22, 1995, Friedrich-Alexander-Universität Erlangen, pp 1-22.
- Balivet, Michel, Aux origines de l'Islamisation, in: *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, 66(1992/4), pp 11-20.
- Becker, C.H., Islampolitik, in: *Die Welt des Islams*, I, 3(1915), pp 101-120.
- Bois, Th., Kurds, Kurdistan, in: *EI* 2, vol. V, Leiden 1982, pp 438-486.
- Charmes, Gabriel, La situation de la Turquie.I. La politique du Califat et ses conséquences, in: *RDM* 47(1881), pp 721-761.
- Davison, Roderic H., Turkish Attitudes Concerning Christian-Muslim Equality in the Nineteenth Century, in: *American Historical Review* 59, 4(1954), pp 884-864.
- Inalcik, Halil, Arnawutluk, in: *EI* 2, vol. 1, NE, Leiden/London 1960, pp 650-658.
- Landau, Jacob M., An Arab Anti-Turk Handbill, 1881, in: *Turcica* 9, 1(1977), pp 215-227.
- Ma'oz, Moshe, Muslim Ethnic Communities in Nineteenth-Century Syria and Palestine: Trends of Conflict and Integration, in: *Asian and African Studies* 19(1985), pp 283-307.
- Melikoff, Irene, L'Ordre des Bektaşı après 1826, in: *Turcica*, 15(1983), pp 155-178.
- Panislamism and the Caliphate, in: *The Contemporary Review*, vol. 43, Jan. - June 1883, pp 57-68.
- Panislamism and the Caliphate, in: *The Times* (London), Jan. 19, 1882, p 8.
- Ramsaur, Ernest, The Bektashi Dervishes and the Young Turks, in: *The Moslem World*, 33(1943), pp 7-14.
- Rentz, G., Barakāt, in: *EI* 2, vol. 1, pp 1032-1033.

- Saliba, Najib E., The Achievements of Midhat Pasha as Governor of the Province of Syria, 1878-1880, in: *IJMES*, 9(1978), pp 307-323.
- Salih, Sakeeb, The British-Druze Connection and the Druze Rising of 1896 in the Hawran, in: *MES* 13, 2(1977), pp 251-257.
- Samra, Mahmud D., Pan-Islamism and Arab Nationalism: A Study of the Ideas of Syrian Muslim Writers (1860-1918), in: *Faculty of Arts Journal* (Amman), 3/2 (1972), pp 5-32.
- Shafy, Mohamed said, The Export Trade of Juddah in the 19th Century, in: *Revue d'Histoire Maghrebine*, 31/32(1982), pp 367-372.
- Shamir, Shimon, Midhat Pasha and the Anti-Turkish Agitation in Syria, in: *MES* 10, 2(1974), pp 115-141.
- Sinno, Abdul-Raouf, Pan-Slawismus und Pan-Orthodoxie als Instrumente der russischen Politik im Osmanischen Reich, in: *Die Welt des Islams XXVII, 1988*, pp 537-558.
- Steppat, Fritz, Der Muslim und die Obrigkeit, in: *Zeitschrift für Politik*, NS, 12(1965), pp 319-332.
- —, —, Eine Bewegung unter den Notabeln Syriens 1877-78. Neues Licht auf die Entstehung des arabischen Nationalismus, in: *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, Suppl. I = 17. Deutscher Orientalistentag vom 21-27 Juli 1968 in Würzburg, ed. Wolfgang Voigt, Wiesbaden 1969.
- Süssheim, K., Arnauts, in: *EI*, vol. 1, Leiden/London 1913, pp 449-460.



فهرست الأعلام

- أ -

- . إبكاريوس (ترجمان القنصلية البريطانية العامة في بيروت عام ١٨٨٠): ٧٦.
أحمد أيوب (مشير، وقائد الفيلق العثماني الخامس في سوريا): ٧٨.
أحمد جدoot باشا (والى سوريا عام ١٨٨٠): ٤٣، ٤٥، ٥٢، ٦٩، ٧٢، ١٤٢.
أحمد حمدي باشا (والى سوريا ١٨٧٥ - ١٨٧٦، ١٨٨٠ - ١٨٨٥): ٤٤، ٧٥، ٧٩.
أحمد راتب باشا (ياور السلطان عبد الحميد الثاني): ٧٩.
إدريس (مؤرخ كردي): ١١٣.
. أرسلان، محمد - الأمير (أحد مؤسسي الجمعية العلمية السورية): ٣٨.
إسماعيل باشا، (خديري مصر ١٨٦٣ - ١٨٧٩): ٦٨، ١٢٠.
إغناطيش، نيكولا (سفير روسيا في الأستانة ١٨٦٤ - ١٨٧٧): ٢٣.
آل صفا، محمد جابر (مؤرخ وأديب عامل): ٤١.
إيفانوف (قنصل روسيا في أرضروم عام ١٨٧٧): ١١٧.
. أيلدریدج، جون (قنصل بريطانيا العام في بيروت ١٨٦٣ - ١٨٩٠): ٦٨، ٧٠.
الأزهري، أحمد عباس (عالم مصرى الأصل): ٤٠، ٤٧، ٤٩، ٧٤، ٧٦.
الأسعد، خليل (من أعيان جبل عامل المقربين من مدحت باشا): ٤٨، ٧٣.
الأسعد، شبيب باشا، (أحد أعضاء حركة الأعيان): ٤١، ٤٨.
الأسعد، كامل (من أعيان جبل عامل المقربين من مدحت باشا): ٤٨.
الأسعد، نجيب (من أعيان جبل عامل المقربين من مدحت باشا): ٧٣.
. الأسير، محمد - الشيخ (محرر في صحيفة «ثمرات الفتن»): ٣٩.
الأفانى، جمال الدين - السيد (عالم مسلم وداعية): ٤٧.
الأمين، محسن - السيد (عالم من جبل عامل): ٤١.
الأمين، محمد - الثاني (عالم من جبل عامل): ٤١، ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٤٩.
الأيوبي، أحمد مهدي (أحد أخصاء مدحت باشا): ٧٢.
. الستون (صديق القنصل البريطاني زوهراپ): ملحق (١٠) ص ٨.

- ب -

- برّي، سليمان (وجيه من جبل عامل): .٥٠
البستاني، بطرس (أحد رواد حركة النهضة العربية في لبنان ١٨١٩ - ١٨٨٣): .٣٤
بسمايك، أوتو فون (مستشار ألمانيا ١٨٧١ - ١٨٩٠): .١٥٤
بطرس الأكبر (قيصر روسيا ١٦٨٢ - ١٧٢٥): .٢٢
بلانت، ويلفريد سكاون (شاعر بريطاني جال في المشرق العربي - ١٨٤٠ - ١٩٢٢): .٩٥ ، ١٧
بيمان (نائب قنصل بريطانيا في بيروت): .٧٤
بيهم، حسين - الحاج (تاجر من أعيان بيروت وعضو في جمعيات علمية وأدبية): .٣٨ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٨

- ج -

- الجابي، حسن فائز (أحد أخصاء مدحت باشا): .٧٢
جان بولاد، علي (زعيم محلي سوري): .٣٢
جمعة، - الإمام (رجل دين كردي): .١٧٥
جورشاكوف، الكستندر (مستشار روسيا ١٨٦٣ - ١٨٨٣): .٢٣
الجوهري، إبراهيم آغا (أحد زعماء حركة الأعيان ورئيس بلدية صيدا عام ١٨٧٧): .٤٠ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٤٩

- ح -

- الحر، علي (عالم عامل و أحد أعضاء حركة الأعيان): .٤٩ ، ٤٧ ، ٤١
حسين باشا (ابن الزعيم الكردي بدر خان): .١١٧ ، ١٣ ، ٤١
الحصني، حسن تقى الدين (مفتي دمشق): .٤٩ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤١
حمد، عمر (شاعر وأحد رواد حركة الإصلاح): .٤٧
حمزة آغا (زعيم عشرة منغور الكردية): .١٢٧ ، ١٢٣

- د -

- درزائيلي، بنiamin - بيكونسفيلد (رئيس الوزارة البريطانية ١٨٦٨ ، ١٨٧٤ - ١٨٨٠): .١٥٤

درويش باشا (مشير عثماني وقائد الحملة ضد الألبانيين ١٨٨٠ - ١٨٨١) : ١٦١.
دودا، پرن بيب (زعيم عشيرة ميرديت الكاثوليكية الألبانية) : ١٥٢، ١٥٧.
ديكسون، جون (نائب قنصل بريطانيا بالوكالة في دمشق ١٨٧٥ - ١٨٧٦، نائب قنصل في بيروت ١٨٧٦ - ١٨٨٢؛ قنصل في دمشق ١٨٨٢ - ١٨٨٤؛ قنصل في القدس ١٨٩٠ - ١٩٠٦) : ٧٤، ٧٦.

- ز -

زوهراب، جايمس (قنصل بريطانيا في جدة ١٨٧٩ - ١٨٨٣) : ٦، ٧، ٩٥ - ١٠٣، ١٧٨.

- س -

سالزيوري، روبرت أرثور (سياسي بريطاني - وزير الخارجية ١٨٧٨ - ١٨٨٠؛ رئيس الوزارة ووزير الخارجية ١٨٨٥ - ١٨٨٦، ١٨٩٢ - ١٨٩٥، ١٩٠٠ - ١٩٠١) : ٩، ٨، ٧، ٦، ٦٨، ٧١، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠.

سامح باشا (مشير عثماني وقائد الجيش الرابع في الأنضول عام ١٨٧٩) : ١٢٢.

سركيس، سليم (صحافي لبناني) : ٧٢.

سكنين، ج. (قنصل بريطانيا في حلب عام ١٨٥٨) : ٧، ٣٧ - ٣٨.

سليم الأول (سلطان عثماني ١٥١٢ - ١٥٢٠) : ٨٩، ١١٣.

سنوك - هورغرونجيه، كريستيان (مستشرق ورحالة واستعماري هولندي - ١٨٥٧ - ١٩٣٦) : ١٧.

- ش -

شرارة، موسى (عالم عامل ومؤسس مدرسة بنت جبيل) : ٥٠.

شير علي - يزدان شير (زعيم كردي) : ١١٥، ١٢١.

- ص -

الصلح، أحمد (زعيم حركة الأعيان - ١٨١٠ - ١٨٩٣) : ٤١، ٤٤، ٤٦، ٤٩ - ٥٠.

الصلح، رضا (سياسي ونائب عن بيروت لـ «مجلس المبعوثان» العثماني ١٩٠٩) : ٤٦.

الصلح، عادل (ابن محمود منح الصلح، ناقل وناشر الشهادة الشفوية عن حركة الأعيان) : ١٧، ٤٠، ٤١، ٤٣ - ٤٤، ٤٧، ٤٩، ٧٣.

الصلح، كامل (قاض وعضو في لجنة بيروت الإصلاحية): ٤٦.

الصلح، محمود منح (أحد زعماء حركة الأعيان): ١٧، ٤١، ٤٩ - ٧٣، ٥٠ - ٧٦، ٧٤.

- ظ -

ظاهر العمر (زعيم فلسطيني): ٣٢.

- ع -

عاذوري، نجيب (أحد رواد حركة النهضة العربية): ٧٥.

عبد الحميد الثاني (سلطان عثماني ١٨٧٦ - ١٩٠٩): ٩، ١٤، ٣٥، ٣٩، ٤٥، ٢٧، ١٤، ٩ - ١٢٦، ١٢٠، ١١٨، ١٠٣ - ١٠٠، ٩٢ - ٧٧، ٨٠ - ٧٣، ٧١ - ٦٩، ١٧٩ - ١٧٨، ١٦١ - ١٦٠، ١٥٨ - ١٥٥، ١٢٨.

عبد الحميد ضياباشا (والى سوريا عام ١٨٧٧): ٤٣، ٥٢.

عبد الرحمن باشا (أمير بابان): ١١٥.

عبد العزيز (سلطان عثماني ١٨٦١ - ١٨٧٦): ٣٧.

عبد القادر - الأمير (زعيم وقائد ديني وعسكري جزائري ١٨٠٧ - ١٨٨٣): ٥، ٣٨، ٤١، ٤٤ - ٤٥، ٤٩، ٤٥ - ٤٦، ١٧٨.

عبد المجيد الأول (سلطان عثماني ١٨٣٩ - ١٨٦١): ٧، ٣٦، ٤٨.

عبد المطلب بن زيد (أمير مكة ١٨٥١ - ١٨٥٦، ١٨٥٦ - ١٨٨٢، ١٨٨٠ - ١٨٨٢): ٩، ٣٨، ٨٨، ٩ - ١٠٣.

عبده، محمد (عالم ومصلح ومفتى الديار المصرية - ١٨٤٩ - ١٩٠٥): ٤٧.

عبد الله (النهرى) (صوفي نقشبendi وزعيم الانفاضة الكردية عامي ١٨٧٩ و ١٨٨٠): ٦، ١١٨ - ١٢٨، ١٧٤ - ١٧٦.

عثمان باشا (ابن الزعيم الكردي بدر خان): ١٣، ١١٧.

عرابى باشا (ضابط وزعيم وطنى مصرى ١٨٣٩ - ١٩١١): ١٠٣.

العرىسي، عبد الغنى (أحد رواد حركة الإصلاح): ٤٧.

عزيز خان (قائد عسكري إيراني كردي الأصل): ١١٤.

عسيران، حسين (فنصل إيران وشهبندراها في صيدا): ٤٧.

- عسيران، علي (وجيه من جبل عامل): ٤٧ - ٤٨.
 علي باشا (قائمقام غيسيني): ١٥١.
 علي باشا - تابلن (حاكم يانينا ١٧٤٤ - ١٨٢٢): ١١٤، ١٣٨.
 علي - الشيخ (موفد أمير مكة إلى سوريا عام ١٨٧٩): ٩٦ - ٩٧.
 علي بك - الكبير (زعيم مملوكي مصرى): ٣٢.
 عون الشريف (أمير مكة ١٨٨٢ - ١٩٠٥): ٩، ٨٨، ١٠١ - ١٠٣.
 غرانفيل، جورج (وزير الخارجية البريطانية ١٨٥١ - ١٨٥٢، ١٨٧٠ - ١٨٧٤، ١٨٨٠ - ١٨٨٥): ٩، ٩٣، ٩٤ - ١٠١، ١٠٢، ١٥٥.
 غلاستون، وليم (سياسي بريطاني - رئيس الوزارة ١٨٦٨ - ١٨٧٤، ١٨٨٠ - ١٨٨٥، ١٨٨٦ - ١٨٩٢): ٧٧، ٧٨، ٩٢.
 غوشن، جورج (سفير بريطانيا في الأستانة ١٨٨٠ - ١٨٨١): ٩٤، ١٢٥، ١٥٥، ١٥٨.
 ف -

- فخر الدين، خورسان (أفغاني، قاتل الشريف حسين بن عبد الله عام ١٨٨٠): ١١٠.
 فخر الدين المعني الثاني (زعيم إقطاعي لبناني ١٥٧٢ - ١٦٣٥): ٣٢.
 فراشر، داليب (شاعر ألباني مسلم): ١٤٦.
 فراشر، سامي (مفكر سياسي ألباني مسلم): ١٤٦ - ١٤٧، ١٤٩، ١٦٠، ١٦١.
 فراشر، شاهين (شاعر ألباني مسلم): ١٤٦.
 فراشر، عبداليل (زعيم الحركة الاستقلالية الألبانية): ١٤٦ - ١٤٧، ١٥٢ - ١٥٣، ١٥٩، ١٦٠.
 فراشر، نعيم (شاعر ولهم الطريقة البكتاشية في ألبانيا): ١٤٦ - ١٤٨.
 فرحان - الشيخ (زعيم عشيرة عرب بغداد): ١٢٠.
 فضل - الشيخ الحضرموتي (من أنصار حركة الجامعة الإسلامية في الجزيرة العربية): ١٠٢.
 فن، جايمس (قنصل بريطانيا في القدس ١٨٤٥ - ١٨٦٢): ٣٩.
 فوزي، عمر باشا (والى سوريا بالنيابة ١٨٧٧ - ١٨٧٨): ٤٣، ٥٢.

- ق -

القدسى، يوسف (ترجمان القنصلية البريطانية في جدة): ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٠٢.

- ك -

كاترين الثانية (قيصرة روسيا ١٧٦٢ - ١٧٩٦): ٢٢.

كامل، مصطفى (زعيم مصرى ومؤسس الحزب الوطنى ١٨٧٤ - ١٩٠٨): ١٥٨.

كرم، يوسف (زعيم إقطاعي لبناني ١٨٢٣ - ١٨٩٣): ٤٠، ٤٤، ٤٨، ٥٠ - ٧٥.

. ١٧٨

الكواك比، عبد الرحمن (أبرز رواد الحركة القومية العربية ١٨٥٥ - ١٩٠٢): ٣٧.

- ل -

لاري، هنري أوستن (سفير بريطانيا في الأستانة ١٨٧٧ - ١٨٨٠): ٩، ٥٢، ٦٨.

. ٧١، ٧٧، ٧٨، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٩ - ١٠١.

- م -

مالت، إدوارد (دبلوماسي بريطاني خدم في الدولة العثمانية): ٧١، ٩٤، ١٠٠.

محمد باشا (موفد السلطان العثمانى عبد الحميد الثاني إلى ألبانيا): ١٥٦.

محمد بن عون (أمير مكة ١٨٢٧ - ١٨٥١): ٨٨، ٩١.

محمد علي باشا (مؤسس سلالة حاكمة في مصر من ١٨٤١ - ١٩٥٢): ٢٢، ٣٢.

. ٣٣، ٤٦، ٨٨، ١١٥.

محمود الثاني (سلطان عثماني ١٨٠٨ - ١٨٣٩): ١٤٨، ١١٤.

المختار (خرج في الكوفة تحت شعار «الثار للحسين»): ١٤٦.

مختار باشا (موفد السلطان العثمانى إلى ألبانيا): ١٥٧.

مدحت باشا (والى سوريا ١٨٧٨ - ١٨٨٠): ٥، ٤٠، ٥٢، ٦٧، ٧٢، ٧٤ - ٧٦.

. ٧٩، ٩١، ١٢٠.

مردا الثاني (سلطان عثماني ١٤٢١ - ١٤٥١): ١٤٨.

مروة، محمد حسين (عالم من جبل عامل): ٥٠.

مورلي، جون (أديب وسياسي بريطاني ١٨٣٨ - ١٩٢٣): ١٧٧.

مير محمد (زعيم كردي): ١١٥.

- ن -

نعمه، عبد الله (عالم من جبل عامل) : ٤٧.

النمر، فارس (أحد أعضاء جمعية بيروت السرية) : ٦١.

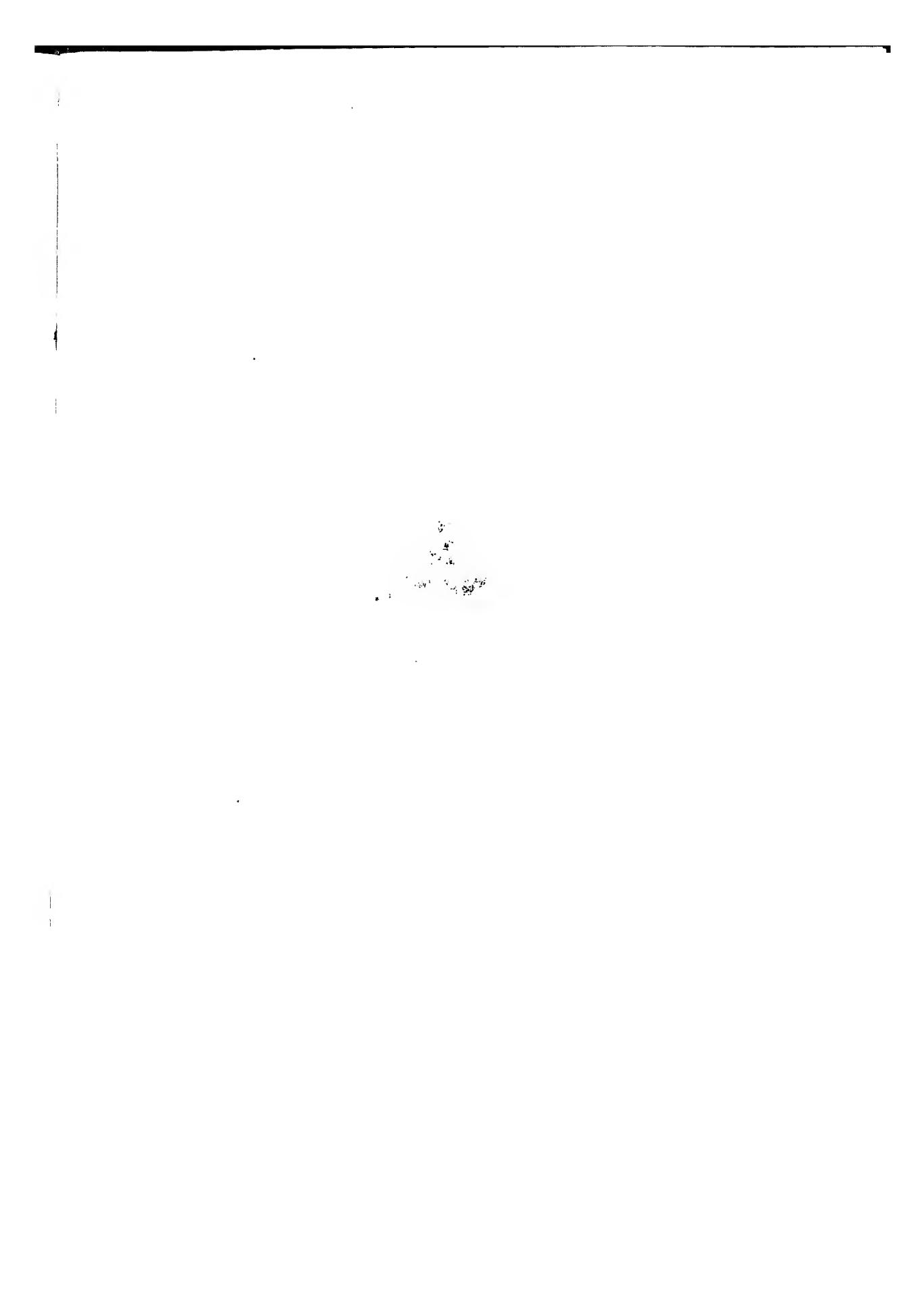
- ي -

اليازجي، إبراهيم (شاعر وأديب ومحامي لبناني ١٨٤٧ - ١٩٠٦) : ٣٤، ٣٥، ٧٥.

يحيى بن سرور (أمير مكة ١٨١٣ - ١٨٢٧) : ٩١.



General Organization of the Alexandria Library
جامعة الإسكندرية
المكتبة العامة
الإسكندرية



—
—
—

النزعات الكيانية الإسلامية
في الدولة العثمانية (١٨٧٧ - ١٨٨١)

يعالج هذا الكتاب مسألتي الهوية الدينية والهوية الوطنية لدى «القوميات» الإسلامية في الدولة العثمانية، إنطلاقاً من الحرب الروسية-العثمانية (١٨٧٨-١٨٧٧)، التي هددت السلطنة في وجودها، وجعلت وبالتالي شعوبها الإسلامية تقلق على مصيرها من الوقوع تحت الاستعمار. يرصد الدكتور ستو تحركات «ال القوميات» الإسلامية في السلطنة (بلاد الشام والحجاج وكردستان وألبانيا) التي تزامنت معًا في أثناء هذه الحرب وفي أعقابها، ويحاول أن يستكشف أهدافها ومحركاتها ونقاط الالتفاء والاختلاف فيما بينها طارحًا إشكالية ولائتها للوطن (الرابطة العثمانية) ومشاعرها الوطنية وزوغاتها الكيانية من خلال المناخ الذي أشاعتة «التنظيمات العثمانية» وفي ضوء الأوضاع الاجتماعية-الاقتصادية والتهديد والتدخل الخارجيين.

يستنتاج المؤلف أن معاهدة برلين التي ضمنت للدولة العثمانية سلامتها، هدّأت من مخاوف السوريين على مصير بلد़هم، وأدت وبالتالي إلى تلاشي مشروع «كيانية سوريا» والعودة مجدداً إلى التشبث بـ«الرابطة العثمانية»، ذلك أن تحركهم «الوطني» جاء في إطار وعي بالانتماء إلى دولة إسلامية. على عكس ذلك، فجرّت المعاهدة الاتجاهات الاستقلالية في كردستان وألبانيا. إن الخوف من كيان أرمني مستقل في شرق الأناضول وويلات الحرب، جعل الأكراد ينتفضون لإنشاء كيان خاص بهم. كذلك، فإن إقطاع معاهدة برلين أراضي البانيا لصالحة إعادة تشكيل الكيانات المسيحية المجاورة في البلقان، كان وراء انبعاث النزعة الكيانية في ألبانيا. أما في الحجاز، فقد كان تحرك الأشراف هناك مشروعًا «لورانسيًا» بريطانيًا مبكرًا لاستبدال خلافة عربية بـ«الخلافة العثمانية» ولتأمين بريطانيا مصالحها الاستراتيجية مع الهند.

أخيرًا، يشكل هذا الكتاب خلفية تاريخية لكثير من الأحداث السياسية والتطورات الراهنة التي يمر فيها بعض البلدان العربية والإسلامية.